القلزم للدراسات التاريخية والحضارية
مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان
بالشراكة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين - الدنمارك
ISSN:1858-9952

في هذا العدد :

- القومية والدولة القومية(قراءة في رسائل النور)
  د. أحمد الياس حسين - د. رحاب نور الدائم أحمد حفظ الله
- العلاقة بين الاقتصاد والتنمية الاجتماعية في السيرة النبوية «دراسة تاريخية»
  د. شيخة بنت عبيد بن دابس الحربي - أ. رقية بنت عبدالرحمن بن عبدالله الشمسان
- المهن والحرف في المدن الحجازية (41 - 132هـ/661 - 750م)(دراسة تاريخية تحليلية)
  د. محمد عبد الكريم محمد الكنيدري
- الحجاز في الربع الأول من القرن العشرين
  أ.عبد العزيز بن حماد الحماد
- المـــدارس التعليمية في مكة المكرمة (القرن العاشر الهجري/الخامس عشر ميلادي) (دراسة تاريخية وصفية)
  أ.أمـــنيه بنت حسن بن علي يماني
- موضي البسام ودورها الحضاري والسياسي (1270-1363هـ/1853 - 1944م) (دراسة تاريخية حضارية)
  أ.خلود محمد مساعد الشهري
- محافظة أضم بمنطقة مكة المكرمة(دراسة جغرافية تحليلية)
  أ.سعد صالح سعد عزيز العمري
- منهج الإمام ابن كثير (ت 774 هـ) في عرض السيرة النبوية من خلال تفسيره (غزوة بدر 2هـ/624م أنموذجاً) «دراسة تاريخية مقارنة»
  أ.حشنوديبيك يونوسوف
- مدن مملكة الأنباط منذ عام 86ق.م - 40م «دراسة تاريخية حضارية»
  أ.أسماء بنت عبدالله القحطاني
- الرعايا الأجانب ودوهم في توسع النفوذ البريطاني في غرب الخليج العربي (1255 - 1334هـ/1840 - 1916م)
  أ.نورة بنت إبراهيم نامي النامي

العدد الثاني و الثلاثون - صفر 1446هـ - سبتمبر 2024م

مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية علمية دولية محكمة العدد الثاني والثلاثون-صفر 1446هـ سبتمبر 2024م

ISSN: 1858 - 9952 ردمك

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

فهرسة المكتبة الوطنية السودانية-السودان
مجلة القلزم:Alqulzum Journal for
Historical and cultural Studies
الخرطوم : مركز دول حوض البحر الأحمر 2024
تصدر عن دار آريثيريا للنشر والتوزيع -السوق العربي
السودان - الخرطوم
ردمك: 1858-9952

مجلة القلزم للدراسات التاريخية و الحضارية

هيئة التحرير

المشرف العام

أ.د.إبراهيم البيضاني

رئيس هيئة التحرير

أ.د.حاتم الصديق محمد احمد

رئيس التحرير

د. عوض أحمد حسني شبا

سكرتير التحرير

د.سلوى التجاني فضل جبر الله

التدقيق اللغوي

أ.الفاتح يحيى محمد عبد القادر

الإشراف الإلكتروني

د. محمد المأمون

التصميم الداخلي

أ. عادل محمد عبد القادر

تصميم الغلاف

ايلين عبد الرحيم ابنعوف

الهيئة العلمية و الإستشارية

أ.د. حسن أحمد إبراهيم-السودان

أ.د. سارة بنت عبد الله العتيبي- المملكة العربية السعودية

أ.د. أسامة عبد الرحمن الأمين- السودان

أ.د. أبو هريرة عبد الله محمود يعقوب- السودان

أ.د. أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس - جمهورية مصر العربية

أ.د. السماني النصري محمد أحمد - السودان

د. أحمد الياس الحسين - السودان

د. داود ساغه محمد عبد الله- السودان

د. سلطان أحمد الغامدي- المملكة العربية السعودية

د. سامي صالح عبد المالك البياضي- مصر

د. محمد أحمد زروق- المغرب

د. سعاد عبد العزيز أحمد السودان

د . أحمد محمد مركز- السودان

د. باب ولد أحمد ولد الشيخ سيديا- موريتانيا

د. عزة محمد موسى - السودان

د. حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني- السودان

د. ربيعة أحمد عمران المداح- ليبيا

د. أمل عبد المعز صالح الحميري- جامعة صنعاء اليمن

الآراء والأفكار التي تنشر في المجلة

تحمل وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن آراء المركز

موجهات النشر

تعريف المجلة:

مجلة (القُلزم) للدراسات التاريخية و الحضارية مجلة علمية محُكمة تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان . بالشراكة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين - الدنمارك تهتم المجلة بالبحوث والدراسات التاريخية والحضارية والمواضيع ذات الصلة لدول حوض البحر الأحمر من الناحية التاريخية والحضارية.

موجهات المجلة:

1. يجب أن يتسم البحث بالجودة والأصالة وألا يكون قد سبق نشره قبل ذلك.
2. على الباحث أن يقدم بحثه من نسختين. وأن يكون بخط (Traditional Arabic) بحجم 14 على أن تكون الجداول مرقمة وفي نهاية البحث وقبل المراجع على أن يشارك إلى رقم الجدول بين قوسين دائريين ().
3. يجب ترقيم جميع الصفحات تسلسلياً وبالأرقام العربية بما في ذلك الجداول والأشكال التي تلحق بالبحث.
4. المصادر والمراجع الحديثة يستخدم أسم المؤلف، اسم الكتاب، رقم الطبعة، مكان الطبع، تاريخ الطبع، رقم الصفحة.
5. المصادر الأجنبية يستخدم اسم العائلة (Hill, R,).
6. يجب ألا يزيد البحث عن 30 صفحة وبالإمكان كتابته باللغة العربية أو الإنجليزية.
7. يجب أن يكون هناك مستخلص لكل بحث باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد على 200 كلمة بالنسبة للغة الإنجليزية. أما بالنسبة للغة العربية فيجب أن يكون المستخلص وافياً للبحث بما في ذلك طريقة البحث والنتائج والاستنتاجات مما يساعد القارئ العربي على استيعاب موضوع البحث وبما لا يزيد عن 300 كلمة.
8. لا تلزم هيئة تحرير المجلة بإعادة الأوراق التي لم يتم قبولها للنشر.
9. على الباحث إرفاق عنوانه كاملاً مع الورقة المقدمة (الاسم رباعي، مكان العمل، الهاتف البريد الإلكتروني).

نأمل قراءة شروط النشر قبل الشروع في إعداد الورقة العلمية.

المحتويات

القومية والدولة القومية (قراءة في رسائل النور).....(14-7)

د. أحمد الياس حسين - د. رحاب نور الدائم أحمد حفظ الله

العلاقة بين الاقتصاد والتنمية الاجتماعية في السيرة النبوية «دراسة تاريخية».....(24-15)

د. شيخة بنت عبيد بن دابس الحربي - أ. رقية بنت عبدالرحمن بن عبدالله الشمسان

المهن والحرف في المدن الحجازية (41 - 132هـ/661 - 750م)(دراسة تاريخية تحليلية).....(42-25)

د. محمد عبد الكريم محمد الكنيدري

الحجاز في الربع الأول من القرن العشرين.....(74-43)

أ.عبد العزيز بن حماد الحماد

المـــدارس التعليمية في مكة المكرمة (القرن العاشر الهجري/الخامس عشر ميلادي) (دراسة تاريخية وصفية)(75-88)

أ.أمـــنيه بنت حسن بن علي يماني

موضي البسام ودورها الحضاري والسياسي (1270-1363هـ/1853 -1944م) (دراسة تاريخية حضارية)....(89-102)

أ.خلود محمد مساعد الشهري

محافظة أضم بمنطقة مكة المكرمة (دراسة جغرافية تحليلية).....(103-118)

أ.سعد صالح سعد عزيز العمري

منهج الإمام ابن كثير (ت 774 هـ) في عرض السيرة النبوية من خلال تفسيره (غزوة بدر 2هـ/624م أنموذجاً) «دراسة تاريخية مقارنة».....(119-160)

أ.حشنودبيك يونوسوف

مدن مملكة الأنباط منذ عام 86ق.م - 40م «دراسة تاريخية حضارية».....(161-176)

أ.أسماء بنت عبدالله القحطاني

الرعايا الأجانب ودوهم في توسع النفوذ البريطاني في غرب الخليج العربي (1255 -1334هـ/1840 -1916م)..(177-192)

أ.نورة بنت إبراهيم نامي النامي

كلمة التحرير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين.

القارئ الكريم:

بعد السلام وكامل التقدير والاحترام يسعدنا أن نضع بين يديك هذا العدد من مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية الذي يأتي في إطار الشراكة العلمية المثمرة والجادة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين (الدنمارك).

القارئ الكريم:

هذا هو الثاني والثلاثون من المجلة بفضل الله وتوفيقه بعد نجحت المجلة بواسطة هيئتها العلمية والاستشارية وهيئة تحريرها في إصدار واحد وثلاثون عدداً من المجلة الأمر الذي يضع الجميع أمام تحدٍ كبير يتمثل في بذل المزيد من الجهد بغرض التطوير التحديث والمواكبة لتصبح هذه المجلة في مصاف المجلات العالمية الرائدة بإذن الله.

القارئ الكريم:

نأمل أن يكون هذا العدد أكثر شمولاً وتنوعاً من حيث المواضيع وطريقة طرحها وتحليلها ومعالجتها. ونسأل الله تعالى أن يجد المهتمين والمختصين والباحثين في هذا العدد ما يفيدهم ويضيف للبحث العلمي.

وأخيراً نجدد شكرنا وامتنانا لكل الذين أسهموا في إنجاح هذا العدد من باحثين، ومحكمين ونجدد دعوتنا للجميع بأن أبواب النشر مشرعة في جميع مجلات القلزم العلمية المتخصصة.

أسرة التحرير

القومية والدولة القومية
(قراءة في رسائل النور)

د. أحمـــد اليـــاس حســـين
قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة الخرطوم

د. رحاب نور الدائم احمد حفظ الله
قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة الخرطوم

مستخلص:

يناقش هذا الموضوع قضية القومية والدولة القومية من خلال ما طرحه الأستاذ النورسي في رسائل النور - وهي مسألة انتشار ونمو الحس القومي وقيام الدول القومية في العالم الإسلامية وأثر ذلك على الأمة الإسلامية. يقسم الأستاذ النورسي القومية إلي عنصرية سالبة ضارة وإلى قومية إيجابية نافعة. ويوضح أن القومية السالبة وفدت من أوربا ذات التراث المتباين مع التراث الإسلامي، وناقش كيف أن هذه القومية أدت وتؤدي إلى تفتيت الأمة، بينما تشكل القومية الإيجابية جزء من تراثنا وحث المسلمين إلى ضرورة التمسك بها من أجل إعادة بناء وحدة الأمة.

كلمات مفتاحية: النورسي، رسائل النور، القومية، الدولة القومية، الوحدة، الأمة

Nationalism and the nation-state:(Readings on Rasaél el Nūr)

Dr.Ahmed Elyas Hussein
Dr.Rehab Nour Eldaim Ahmed Hafazalla

This topic discusses the issues raised by El Nursi in "*Rasaél el Nūr"* about the spread and growth of nationalism and nation-states in the Islamic world and their impact on the Muslim *Umma. El* Nursi distinguishes between negative, harmful racism nationalism and positive, beneficial nationalism. He says the former belonging to European heritage differs from the latter belonging to the Islamic heritage. He discusses how the negative nationalism has led and is leading to the fragmentation of the *Umma*, while positive nationalism relates to Muslim heritage. And he urges Muslims to adhere to it in order to rebuild the unity of the *Umma*.

Key words:el Nursi, *Rasaél el Nūr,* Nationalaism, Nation State. Unity, Umma

مقدمة:

بدأت الدعوة إلى العالمية (Globalization) منذ الطور الأول للدعوة الإسلامية في مكة قبل قيام دولة الأمة في المدينة، يقوا الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(سبأ: 28) وعندما أنشأ الرسول ﷺ الدولة في المدينة أعلن قيام الأمة التي توسعت

فيما بعد بين جنوب شرق آسيا والمحيط الأطلسي، وحل الولاء للأمة محل جميع الولاءات المحلية الإقليمية والعرقية والدينية، فأصبح الانتماء للأمة انتماءاً عالميا لا يعرف الحدود.

هذا المفهوم العالمي يختلف عن المفاهيم السياسية والدينية التي كانت سائدة في عصر الرسول محمد ﷺ، فالانتماء في الإمبراطوريات السابقة – مثل الإمبراطورية الرومانية والفارسية-لم يكن انتماءاً عالميا بل كان محليا وعرقيا ودينيا. كما كانت دعوات الرسل السابقين دعواتاً محلية أو إقليمية. روى مسلم والبخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة.. الحديث([1]).

فمفهوم الأمة إذاً هو المفهوم الذي حقق العالمية بانتمائها إلى الهوية الواحدة وبعدم وجود الحدود العازلة، وبتمتع جميع أفراد الأمة بنفس الحقوق والواجبات في كل الدول الإسلامية كما سنبين ذلك لاحقا. وظلت الأمة تتمتع بهذه الامتيازات عبر تاريخها -رغم ما تعرضت له من هزات عنيفة - حتى مطلع القرن العشرين عندما تعرضت الأمة لواحدة من أعنف الهزات في تاريخها ألا وهي القومية والدولة القومية Na-tionality and Nation State .

القومية السلبية:

عاصر الأستاذ النورسي(1877-1960) ظهور هذا الخطر المتمثل في مشكلة القومية منذ الدعوات المبكرة لها في تركيا والبلاد العربية، ثم قيام الدولة القومية في تركيا وغيرها من البلاد الإسلامية وسيادة الرابطة العنصرية التي و سمها «بالداء الخبيث([2]) وفطن لخطرها وناقشها في مواضع كثيرة في كل رسائل النور. وفيما عدا ملحق بارلا وكتاب المثنوي العربي فقد تناولت كل الرسائل الأخرى هذا الموضوع وبذل الأستاذ النورسي الكثير من الجهد لعلاجه، وأشار إلى أن طلبته ومن له علاقة به يشهدون بذلك.([3]) ووضح أن فكرة القومية الحديثة وفدت إلينا من أوربا فهي غريبة غرابة المدنية الغربية عن مدنيتنا الإسلامية. _

فالقومية هي إحدى ركائز المدنية الأوربية الحديثة، كانت أوربا - قبل عصرها الحديث - تعيش نظاما سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا يختلف ويتباين تباينا تاما مع أوضاع العالم الإسلامي. ولذلك فإن ما نجح في أوربا ليس من الضروري أن ينجح في المجتمعات الإسلامية من أجل اختلاف المدنيات. فالقومية الأوربية -التي تبناها المسلمون- كما صورها الأستاذ النورسي « أساسها العنصرية التي تنمو على حساب غيرها وتتقوى بابتلاع الآخرين، وشأن القومية السلبية والعنصرية التصادم المريع وهو المشاهد. ومن هنا ينشأ الدمار والهلاك.([4])ووضح أن الفلسفة الأوربية الحديثة في تربية المجتمع ترى أن «القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف إلى المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستورا للحياة وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية([5]).

أما الأمة الإسلامية فقد كانت أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية – في الفترة السابقة للاستعمار- تتباين مع ما كان سائدا في أوربا. فالمدنية الإسلامية كما صورها الأستاذ النورسي: « رابطتها بين المجموعات البشرية رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان، وشأن هذه الرابطة أخوة خالصة وطرد العنصرية والقومية السلبية.([6]). والأستاذ النورسي لا يعارض القومية إطلاقاً بل قسمها إلى قسمين: قسم سلبي عنصري وآخر إيجابي، أما القسم السلبي العنصري فهو»مشؤوم مضر، يتربى

وينموا بابتلاع الآخرين ويدوم بعداوة من سواه « ويضيف قائلا: « لقد نظرت - منذ السابق - إلى القومية السلبية والدعوة إلى العنصرية نظرة السم القاتل، لأنها مرض أوربي خبيث ، ألقت أوربا بذلك المرض الوبيل بين المسلمين ليمزقهم ويفرقهم شذر مذر ليسهل عليها ابتلاعهم قطعا متناثرة.([7]).

فالقومية السلبية تحقق هذا الهدف بتشجيع العنصريات داخل كيان الأمة وتبشر بأن اتحاد الغة والدين في أي مجموعة بشرية يكفي لقيام أمة قومية قوية.([8]) وبذلك تتفتت الأمة الإسلامية وتنقسم بعدد لغاتها إلي قوميات عرقية. ومن جانب آخر فإن أساس القومية السلبية – العصبية النوعية - يحل محل مبادئ الإسلام([9])وهو ما عبر عنه أيضا السلطان عبد الحميد منذ بداية انتشار الفكر القومي الأوربي في تركيا، فقد جاء في مذكراته أن الأوربيين» يفضلون القومية على الدين.([10]). وقد ساعدت أوربا كثيرا – في ذلك الوقت – في بث وترسيخ هذه المفاهيم القومية العنصرية علق علي ذلك السلطان عبدا لحميد قائلاً:

« علينا أن نعترف وبكل أسف بأن الإنكليز استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن يبثوا بذور القومية والعصبية في بلادنا، وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا وظهرت في سوريا بوادر تحرك مماثل لحب الوطن، وبدأ بعض الشبان الذين اكتسبوا قشور الحضارة الأوربية بإلقاء خطب في الدعوة إلى حب الوطن، لكن حب الوطن في بلادنا العثمانية يجب أن يأتي في المرتبة الثانية بعد حب الدين الذي يحتل المرتبة الأولى.([11]).

اجتاحت الدعوة إلي القومية العنصرية أراضي الدولة العثمانية لاسيما القسمين الأوربي والعربي.ففي أوربا بدأ تحرك القوميات مثل الهلينية (اليونانية) والبلغارية وتأججت نار القومية التركية التي بدأت تسخر الشعب التركي ضد شعائر الإسلام. وأصبح « إغلاق التكايا والزوايا والمدارس الدينية ، وإقرار العلمانية ووضع أسس القومية بديلا عن مبادئ الإسلام، وفرض لبس القبعة ورفع الحجاب، وفرض كتابة الحروف اللاتينية بدلا عن الحروف القرآنية، وأداء الأذان والإقامة باللغة التركية، وإلغاء دروس الدين في المدارس، ومنح المرأة حقوقا في الميراث مثل الرجل وإلغاء تعدد الزوجات» أصبحت مثل هذه الخطوات منجزات ثورية.([12]). ويصف الأستاذ النورسي كيف أدي قيام الدولة القومية – Nation State - في تركيا إلي تحول المجتمع التركي من مجتمع إسلامي إلى مجتمع قومي عنصري علماني معاد للدين، وكيف سادت الثقافة الأوربية تحت ستار القومية التركية، وأصبح التعاون التركي مع غيره من الأجناس ينافي النخوة القومية وتعرض المواطنون غير الأتراك إلى القهر والذل كما عانى الأستاذ النورسي نفسه من ذلك.([13]).

فقيام الدولة القومية في تركيا أدى إلى عزلها «وابتعد الشعب التركي الذي كان رمزا لشرف الإسلام وعزته وسيفا ألماسيا ممتازا بيد الإسلام والقرآن طوال سبعمائة سنة.([14]) وقامت الدول القومية العنصرية في بقية أراضى الدولة العثمانية وتشتت ولاء أفراد الأمة بين تلك الدول القومية وتحولت رابطة الإسلام والولاء لها إلى مرتبة دنيا، وأصبح المسلمون فريسة سهلة للأطماع الغربية. وخطر القومية العنصرية لم يقف عند حد تفتيت الأمة وتجريدها من سمتها العالمية فقط بل أمعن في إضعاف المسلمين وخضوعهم وانقيادهم المطلق للغرب بقيام الدول القومية في العالم الإسلامي. وفي الحقيقة فإن مدلول الدولة القومية الغربية لا ينطبق ويفسر واقع حال كثير من المسلمين الآن في الشرق الأوسط ووسط وجنوب شرقي آسيا.

الدول القومية المسلمة بحدودها الحالية أنشأها الاستعمار باستثناء حالات قليلة وافق فيها الاستعمار على قيامها. والأمر الأهم من ذلك أن الاستعمار هو الذي خطط ووافق على الحدود السياسية لتلك

الدول. وأصبحت كل من تلك الدول تضم – في الغالب – مجموعة عرقية متجانسة وذات لغة أو لغات وتراث مشترك. ويلاحظ أن القومية العنصرية الواحدة قد تقسمت إلي عدة دول كما في العالم العربي ووسط وجنوب شرقي آسيا. وإذا أخذنا العالم العربي كمثال نجد أن العرب كقومية عنصرية قد قُسِّموا إلى نحو عشرين دولة محلية، الولاء في هذه الدول المحلية ليس للقومية العنصرية – وبالطبع ليس للإسلام – بل للحدود السياسية. فدول العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين بحدودها الحالية خلقها الاستعمار البريطاني والفرنسي إبان الحرب العالمية الأولى، وأصبحت هذه الدول كيانات سياسية فخورة ومعتزة بنفسها وبحدودها التي رسمها الاستعمار والتي أصبح لها الانتماء الأول. فالانتماء لم يعد للقومية العنصرية أو للإسلام بل للحدود السياسية التي فرضت على كل مجموعة. والشيء المثير للدهشة والعجب أن كل مجموعة تنسى روابط القومية العنصرية واللغة والتاريخ والتراث وتحارب بعضها – في إباءٍ وشمم – من أجل المحافظة على الكيان السياسي الذي أوجده الاستعمار، وأصبح لهذا الكيان السياسي مرتبة الولاء الأولى ثم تأتي بعده بقية المراتب القومية العنصرية والإسلام. فالكيانات السياسية الحالية لم تزحزح الانتماء للإسلام إلى المرتبة الثالثة فقط بل أدت إلى زيادة إضعاف وتفتيت الأمة وخضوعها الكامل لأبيها الذي أوجدها وهو الاستعمار، وقس على ذلك أوضاع المسلمين في وسط آسيا وعالم الملايو. فالقومية العنصرية أنجبت الدولة القومية غير أن أخطار المولود فاقت أخطار الوالد. وعندما استقرأ الأستاذ النورسي التاريخ الإسلامي رأى أن القومية العنصرية لم تظهر وتهدد أضرارها قوة الأمة ووحدتها إلا في العصر الأموي.([15]). ذلك أن اعتماد الأمويين على قومية العرب وحدهم في إدارة شؤون الدولة ونظرتهم المتعالية على سائر الأقوام دفع العناصر غير العربية منذ وقت مبكر إلى الوقوف ضد الإدارة الأموية فانضم جم غفير منهم إلى الحسين بن علي ضد الأمويين، فالصراع بين الحسن والحسين من جهة والأمويين من جهة أخرى – كما رآه الأستاذ النورسي - كان صراعاً بين الدين والقومية العنصرية.([16]). ورغم الانتصارات التي حققتها القومية العنصرية تحت قيادة الأسرة الأموية ألا أن رابطة الإسلام تمكنت من جمع القوميات تحت لوائها وانتصرت على القومية العنصرية فتغيرت قيادة الأمة إلى الأسرة العباسية التي أتت إلى الحكم متبنيةً رابطة الإسلام، .([17]). فكل ما أظهرته القومية السلبية من قوة ونجاح خلال التاريخ الآسلامي كان إنجازاً مؤقتاً. وبالرغم من شدة الصدمة التي تعرضت لها الأمة في النصف الأول من القرن العشرين في تركيا وخارجها ظل الأستاذ النورسي متفائلا وعلى يقين من « أن الدولة [تركيا] وهذه الأمة ستُعوض عن هذا البلاء الذي أصابها سعادة يرفل فيها العالم الإسلامي وحرية يتمتع بها.([18]).

لم يكن تفاؤل الأستاذ النورسي هذا تفاؤلا رومانسيا مبنيا على التأملات والخيال بل بُـني على واقع عاشه وصوره لنا في رسائله. فقد شحذ النورسي الهمم وانبرى قلمه يوضح مثالب القومية العنصرية وينير الطريق أمام المسلين، وانتقل إلى معارك القتال قائداً لفرقة الأنصار المشكلة من طلبته والمتطوعين وخاض معارك ضارية في جبهة القفقاس.([19]). وبالرغم من انشغاله بالحرب لم يكف قلمه عن العمل فقد ألف كتابه إشارات الإعجاز في جبهة القتال.([20]). وكان نشاط الأستاذ النورسي ضد الإنجليز واضحا وفعالا، ولعل من أبرز تلك المواقف تصديه للقائد الإنجليزي في استانبول. فقد روى الأستاذ النورسي أن هذا القائد «تمكن من بذر بذور الخلاف بين المسلمين، وخدع شيخ الإسلام وبعض العلماء الآخرين، وجعل أحدهم يهاجم الآخر، ووسع الخلاف بين جماعة الاتحاديين وجماعة الائتلاف لكي يهيئ الجو لانتصار اليونانيين واندحار حركة المللية الوطنية.([21]).

عندئذ قام الأستاذ النورسي بتأليف كتابه الخطوات الست ضد الإنجليز وضد اليونانيين، وتمكن من تحويل رأي العلماء في استانبول ضد الإنجليز مما كان له أثر كبير على الحركة المللية الوطنية. وخطط الأستاذ النورسي إلى خلق جيل قوي البناء متسلحا بفيض رسائل النور لكي يقوم بالعمل على إعادة ترتيب الأمة وبناء وحدتها.

لم يكن هذا هو كل ما حمل الأستاذ النورسي على تفاؤله بل رأى أن هنالك عوامل قوية أخرى تعمل متضافرة من أجل تحقيق الهدف، فلا بد من التسلح بالعلم وإنشاء الجامعات « لئلا تفسد العنصرية الأقوام في البلدان العربية والهند وإيران والقفقاس وتركستان وكردستان، وذلك لأجل إنماء الروح الإسلامية التي هي القومية الحقيقية الصائبة الشاملة فتنال شرف الامتثال بالدستور الإسلامي.([22])

كما رأى الأستاذ النورسي أن الزمن ليس في مصلحة القومية العنصرية، فقد بدأ نجمها في الأفول ولم تعد قوية كما كانت عليه في السابق في أوربا خاصة بعد انتصار الشيوعية وقيام الجمهوريات السوفييتية وتبنيها برامج هجوم مركزة ومنظمة ضد القومية العنصرية.

القوميـة الإيجابيـة:

وإلى جانب كل ذلك فإن الأستاذ النورسي لم يقل بأن كل الفكر القومي سلبي عنصري وهدام بل في الفكر القومي ما هو ذوق للنفس، وإيجابية بناءة تقود إلى إعادة بناء ووحدة الأمة. فالقومية الإيجابية كما رآها الأستاذ النورسي يكن إيجازها فيمل يلي:

« القومية الإيجابية خادمة للإسلام وقلعة حصينة له ، وسوراً منبعاً حوله([23]) تتمثل في الروح الإسلامية، أساسها المحبة والرابطة الوثيقة بين القبائل والطوائف، ووجود أُخوة معنوية وتعاونية ،ووجود علاقة فداء بين القوم والجنس، والتزام قوي ورابطة قوية لا تهتز مع الحقائق القرآنية.([24]) فالقومية الحقيقية هي الإسلام،([25])،وعاداتنا القومية ناشئة من الإسلام وتزدهر به،([26])ويمكن للأمة بناء قوتها برابطة اللغة والدين والروابط الوطنية والمهنية.([27]) فالقومية الإيجابية:

«نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهي سبب التعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع، وتكون وسيلةً لإسناد أكثر للمجتمع.([28])فالوضع الطبيعي للمجتمعات الإسلامية هو القومية الإيجابية البناءة التي تناقض القومية السلبية العنصرية الهدامة. فقيام القوميات السلبية في المجتمعات الإسلامية إذاً هو حالة مرضية طارئة يتوقف زوالها على الشروع في العلاج، وقوة الإسلام الكامنة في المجتمعات تجعلها دوما مهيأة لمقاومة المرض ثم اجتثاثه. وقد لاحظنا بداية مثل هذه التحركات سياسيا وفكريا منذ وقت مبكر في أعمال القادة الإسلاميين مثل النورسي وغيره في المجتمعات الإسلامية. سعى أولئك القادة إلى تحصين الأمة بالمصل المضاد للداء لتقوية مناعتها للقيام بدرها في التغيير. كما سعت بعض القيادات السياسية أيضا منذ وقت مبكر للقيام بدرها في صد الخطر القومي العنصري ويبدوا ذلك في بعض أفكار السلطان عبد الحميد.

خاطب السلطان عبد الحميد أتباع القومية العنصرية الذين يعتقدون بأن حضارتهم ستمتزج بحضارة الغرب مبينا أن هنالك تناقضا بين كل من الحضارتين يستحيل معه امتزاجهما، وبين أن الدولة العثمانية «احتوت عددا كبيرا من الشعوب ... جمعتهم الرابطة الإيمانية وجعلتهم أفراداً في عائلة واحدة

... مسلمين قبل أن يكونوا عثمانيين،» وأقَر « أن تكون صفة خليفة المسلمين فوق صفة الإمبراطور العثماني فإن الدين هو أساس البناء السياسي والاجتماعي للدولة.([29]). وفي واقع الأمر فإن القومية العنصرية نجحت في خلق الدولة القومية، ثم تلا ذلك قيام الكيانات السياسية الحالية التي قسمت خريطة العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا إلى أكثر من أربعين كيانا سياسيا نصفها في العالم العربي. والسمة البارزة لتلك الكيانات السياسية هي التعصب والعداء للجار والطمع في أراضيه رغم التماثل العرقي والديني واللغوي بين الغالبية العظمى لتلك الكيانات السياسية. ويتحسر الأستاذ النورسي على هذا العداء بين هذه الكيانات السياسية في الوقت الذي تقيم فيه علاقات الود والتعاون مع الغرب، وبين أن في ذلك « التباغض والتنافر هلاك عظيم وخطب جسيم، إذ أن تلك العناصر أحوج ما تكون لبعضها البعض لكثرة ما وقع عليهم من ظلم وإجحاف ولشدة الفقر الذي نزل بهم ولسيطرة الأجانب عليهم، كل ذلكم يسحقهم سحقا. لذا فإن في نظر هؤلاء بعضهم لبعض نظرة العداء مصيبة كبرى لا توصف، بل إنه جنون أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض ولا يعبأ بالثعابين الماردة التي تحوم حوله.([30]).

فالكيانات السياسية - الوليد الشرعي للاستعمار – من أكبر الأخطار على الأمة وتمثل العقبة الكبرى على طريق إعادة بنائها ووحدتها. احتلت هذه الكيانات السياسية في نفوس المسلمين - الآن - محل الدين والقومية، وأصبح الدفاع عنها من أعز المقدسات . فالمسلم العربي مثلا يقتل أخاه المسلم العري الآخر في نخوة وعزة إذا أحس أنه تعدى على قدسية كيانه السياسي الذي خطّه الاستعمار. وقد تناول الأستاذ النورسي تجربة بعض الأقطار الآسيوية مع القومية فذكر أن بعض الأقوام « في آسيا قد تمسكوا بالقومية وحذو حذو أوربا في كل النواحي حتى ضحوا بكثير من مقدساتهم في سبيل ذلك التقليد... ... فالتقليد الأعمى يؤدي في كثير من الأحيان إلى حالة من الهزء والسخرية.([31]). ووضح الأستاذ النورسي كيف أن أوضاع المجتمعات الآسيوية الحالية وتراثها الماضي يختلفان عن الأوضاع في أوربا، فالدين والقلب كانا دائما العاملان اللذان يوقظان أقوام آسيا ويدفعانها ويدفعانها للرقي والتقدم بينما الحكمة والفلسفة كانتا تعاونان الدين والقلب في ذلك.([32]) وأشاد في هذا الصدد بتجربة اليابان لأنها حافظت على تقاليدها القومية وأخذت بمحاسن المدنية الأوربية، وحث المسلمين على الاقتداء بهذه التجربة.([33]). ومن الواضح أنه لا يمكن إعادة بناء الأمة إلا بإضعاف الولاء إلى هذه الكيانات السياسية ليحل محله الولاء للأمة. ورغم أن ذلك يبدو صعبا إلا أنه ليس مستحيلا، فأوربا مصدرة الفكر القومي الحديث بدأت في إضعاف الولاء للكيان السياسي وأوشكت الحدود السياسية بين الدول الأوربية أن تصبح حدودا إدارية يعبرها الأوربيون بدون تعقيدات كما خطت خطوات جادة نحو الوحدة. كيف تحقق ذلك؟ هذا ما ينبغي على المسلمين استيعابه. ويتضمن تراثنا التاريخي تجربة رائدة تتطلب الوقفة المتأنية والمراجعة الدقيقة. ففي فترة الستة قرون الواقعة بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين قامت عشرات الدول الإسلامية بعضها صغير المساحة والآخر كبيرها، وعاش بعضها لعقود قليلة بينما عمرت الأخريات، وتعاصرت الكثير من تلك الدول فيما بين الهند شرقا والأندلس غربا.

ففي القرن الثالث الهجري (9 م) إلى جانب الدولة العباسية كانت هنالك أكثر من عشرة دول محلية. وفي القرن الرابع الهجري (10 م) كانت هنالك ثلاث أسر تلقبت بلقب الخليفة وهم العباسيون في بغداد والفاطميون في القاهرة والأمويون في الأندلس. وهكذا الحال في القرون التالية، عشرات من الدول

الإسلامية التعاصرة، ذات مذاهب مختلفة سنية وشيعية وأباضية، بعضها يعترف بقيادة العباسيين الاسمية وبعضها الآخر لا يعترف بذلك.

كيف كانت أوضاع المسلمين خلال تلك الفترة ؟ ينبغي أن نتذكر أولا أن تلك الفترة شهدت عصر ازدهار الحضارة الإسلامية وسيادتها في العالم القديم مثل سيادة الحضارة الغربية الحالية. كما شهد ذلك الوقت انتشار الإسلام وقيام الدول الإسلامية في الهند وغرب وشرق أفريقيا، وكان ميزان القوى العالمي في جانب المسلمين. فكيف كانت أوضاع المسلمين والعلاقات فيما بينهم ؟

من الواضح أنه لم تكن هنالك وحدة سياسية كنظام الوحدات السائد اليوم، ولم ترفع أيٌّ من تلك الدول شعار القومية العنصرية أو تمارسه، والانتماء لمواطني تلك الدول لم يكن انتماءً قوميا أو إقليميا أو أُسَرِيا. فالمواطنين في الدولة الفاطمية لم تكن هويتهم فاطمية أو مصرية وفي بغداد لم تكن هويتهم عباسية أو عراقية، نعم كانوا أحيانا ينتسبون إلي الوطن المحلى غير أن هذا الانتساب من قبيل القومية الإيجابية التي لم تحل محل الارتياط العالمي للأمة. ومن جانب آخر فإن الحدود السياسية لتلك الدول لم تلكن ستاراً وحاجزا أمام تحركات أفراد الأمة، فكل فرد ينتمي إلى الأمة يتمتع بحرية التنقل والإقامة وممارسة جميع النشاطات الاقتصادية والثقافية والسياسية في جميع تلك الدول دون النظر إلى موطنه المحلي أو دينه أو عرقه. هذا مثال لحال أفراد الأمة في ذلك الوقت الذي غابت فيه الوحدة السياسية، فهل أثر غياب الوحدة السياسية على وحدة وقوة الامه وتماسكها؟ من الواضح أن غياب الوحدة السياسية لم يؤد إلى تفتيت الأمة كما يرى البعض. وهل يمكن أن تكون الكيانات السياسية الحالية لبنات تساهم في إعادة بناء وحدة الأمة إذا ما اتخذت من الإسلام رابطة لها خاصة وأن تحقيق الوحدة السياسية في المستقبل المنظور يبدو من المستحيلات ؟ .

الهوامش:

(1) صحيح البخاري (بيروت: دار ابن كثير 1407) 1/128 ، صحيح مسلم (بيروت: دار إحياء التراث العربي بدون) 1/370 وقد تواتر هذا الحديث في كتب السنة والتفسير فرواه الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي والدرامي وأبي عوانة والقرطبي وابن كثير.
(2) المكتوبات، ص 79 الإشارات الواردة إلي جميع رسائل النور هنا ترجع إلى مجموعة رسائل النور المحفوظة فيCD
(3) نفس المكان السابق.
(4) رسائل النور، لكلمات ص 855.
(5) المصدر السابق ص 145
(6) المصدر السابق ص 856
(7) المصدر السابق ص 79
(8) رسائل النور، المكتوبات ص 91
(9) رسائل النور، الشعاعات ص 483
(10) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ط 5 بيروت: مؤسسة الرسالة 1/ 133
(11) نفس المصدر 1/176
(12) رسائل النور، الشعاعات ص 126، 483
(13) رسائل النور، سيرة ذاتية ص 264
(14) رسائل النور، اللمعات ص 35
(15) رسائل النور، ملحق أمبيرداغ ص 415
(16) رسائل النور، المكتوبات ص 70
(17) رسائل النور، صيقل الإسلام ص 468
(18) رسائل النور،الكلمات ص 854
(19) رسائل النور، الشعاعات 542
(20) رسائل النور، سيرة الذاتية ص 291
(21) رسائل النور، الشعاعات ص 504
(22) رسائل النور، ملحق أميرداغ ص 417
(23) رسائل النور، لمكتوبات ص 415
(24) رسائل النور، لشعاعات ص 4465
(25) رسائل النور، سيرة الذاتية ص 501
(26) رسائل النور، صيقل الإسلام ص 463
(27) نفسه ص 359
(28) رسائل النور، المكتوبات ص 415
(29) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية 1 / 133 ، 176
(30) رسائل النور، المكتوبات ص 415
(31) رسائل النور، لمكتوبات ص 417
(32) نفس المكان
(33) رسائل النور، صيقل الإسلام ص 468

العلاقة بين الاقتصاد والتنمية الاجتماعية في السيرة النبوية «دراسة تاريخية»

د.شيخة بنت عبيد بن دابس الحربي
أستاذ التاريخ المشارك- قسم التاريخ والتراث
كلية اللغات والعلوم الإنسانية - جامعة القصيم
المملكة العربية السعودية

أ.رقية بنت عبدالرحمن بن عبدالله الشمسان
طالبة دكتوراه - قسم التاريخ والتراث
كلية اللغات والعلوم الإنسانية - جامعة القصيم
المملكة العربية السعودية

مستخلص:

تسعى هذه الدراسة للكشف عن العلاقة بين الاقتصاد والتنمية الاجتماعية في العهد النبوي، والعلاقة التي بدأت منذ الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.وتكمُنُ أهمية البحث في استقرائه الأحداث المدونة في السيرة النبوية، ثم الوقوف على دور التنمية الاجتماعية في حل المشاكل التي نتجت بسبب تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية، ومحاولة الكشف عن الآثار المترتبة على تلك المشاكل، وعن الدور الاقتصادي عليها، وبيان مدى عناية النبي ﷺ بالتنمية الاجتماعية للأمه.والبحث يتبع المنهج التاريخي، فيدرس عددًا من الأحداث التاريخية، ويسعى لتحليل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية منها.

الكلمات المفتاحية: الاقتصاد، التنمية، التنمية الاجتماعية، السيرة النبوية.

The relationship between the economy and social development In the Prophet's biography

"Historical study"

Dr. Sheikha Obaid Al- Harbi
A.Ruqaia Abdulrhman Al Shmsan

Abstract:

This research works to reveal the relationship between the economy and social development In the Prophet's era, the relationship began since the Prophet's migration and the importance of the research is reading the events recorded in the Prophet's biography.Then learn about the role of social development in solving problems that arise due to changing economic and social conditions, know the effects of these problems, the role of economics in that matter, and explain the interest of the Prophet's -Peace be upon him- in the social development of his nation.Research using the historical method, studies historical events, and analyzes economic and social changes.

Keywords: Economy, Development, Social development, Biography of the Prophet.

المقدمة:

ترتبط الحياة الاقتصادية بالحياة الاجتماعية من الناحية التاريخية وذلك منذ أقدم العصور، فالاستقرار والرخاء الاقتصادي ينعكس على الاستقرار الاجتماعي، والتنمية الاقتصادية التي تسير بلا تنمية اجتماعية تتسم بالفشل، إذ هي من مسببات تتفكك الروابط الأسرية وإلغاء السلطة الأبوية، وظهور ما يسمى بالتخلف الاجتماعي. والإسلام دين الشمولية والتكامل جاء مراعيا لكل جوانب الحياة، ولذلك اتصلت التنمية الاجتماعية بالحالة الاقتصادية، فكانت سبباً لهذا البحث فهو يعنى بدراسة (**العلاقة بين الاقتصاد والتنمية الاجتماعية في السيرة النبوية**).

فالتنمية هي فعل يقتضي الزيادة والكثرة والارتفاع ولذا يقال نما الزَّرْع.[1] وفُسر مصطلح التنمية بأنه «النمو المدروس على أسس علمية والذي قيست أبعاده بمقاييس علمية سواء كانت تنمية شاملة ومتكاملة أو تنمية في أحد الميادين الرئيسية مثل الميدان الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الميادين الفرعية كالتنمية الصناعية أو التنمية الزراعية إلخ»[2].

أما التنمية الاجتماعية فهي «عملية يقصد بها التحسين المستمر لرفاهية أعداد كبيرة من الناس ورفع مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية والصحية .. ومن شأن هذه العملية أن تأخذ خط سيرها جنبا إلى جنب مع التنمية الاقتصادية»[3].

العلاقة بين الاقتصاد والتنمية الاجتماعية في السيرة النبوية:

المجتمع في المدينة كغيره من المجتمعات التي تتفاوت فيها الأوضاع الاقتصادية بين طبقاته؛ فهناك من هم في ثراء، وهناك المساكين والفقراء، وهناك من هم بين القسمين، وجميعهم تحت كفالة الله ورعايته.وكانت المدينة تعتمد في اقتصادها على الزراعة وأعمال الفلاحة، أما النشاط التجاري والأسواق فكانت تحت سيطرة اليهود.

استمر ذلك الحال حتى أنشأ النبي ﷺ فيها نظاما اقتصاديا يضمن كرامة العيش لجميع الطبقات، عن طريق العديد من القواعد والتشريعات المتضمنة تعزيز القيم والروابط الاجتماعية، مما أسهم في نجاح التنمية الاجتماعية آنذاك، فنظام الزكاة والصدقة والأوقاف وتوزيع المصارف إلى الفقراء والمساكين والغارمين والمؤلفة قلوبهم والأيتام وعتق الرقاب والأسرى؛ وكل ما فيه بذل للمال في أعمال البر المشروعة، مما له دور بتذويب الفوارق بين الناس وتفتيت الثروات، ومما يكفل نماء مجتمعات مستقرة مادياً واجتماعياً خالية من الضعف الاقتصادي وما يترتب عليه من آثار سلبية تنعكس على المجتمع والأسرة، فلا يتسبب أفرادها بإعاقة التنمية الاجتماعية. وإن مما يعيق التنمية الاجتماعية ظهور مشكلة الفقر داخل المجتمعات، وقد تفاقمت هذه المشكلة بداية الهجرة النبوية؛ نظرا لترك المسلمين متاعهم وأموالهم في مكة وانتقالهم للعيش بالمدينة وبعضهم بلا مال ولا مأوى، فاعتنت التنمية الاجتماعية في السيرة النبوية بحض الناس على العمل وحثهم على كفاية أنفسهم والسعي إلى الخروج من دائرة الفقر والحاجة، فيقول أبو هريرة (ت57هـ) رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: « لأن يحتزم أحدكم حزمة حطب فيحملها على ظهره فيبيعها، خير له من أن يسأل رجلا يعطيه أو يمنعه»[4] لأن السؤال لا يقطع مشكلة الفقر، بل يجعل الفقير عالة على الناس فهو ينتظر إجابته بلا تعب ليقتات على أتعاب غيره.

فالنبي ﷺ بين مكانة العاملين على قضاء حاجات أنفسهم وأهليهم، ورفع تلك المكانة عندما جعلهم في سبيل الله نظراً لتجنبهم الفقر وابتعادهم عن سؤال الناس لحاجتهم، ويقول أبي هريرة (ت57هـ) رضي الله عنه: بينما نحن

جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا شاب من الثنية، فلما رأيناه بأبصارنا قلنا: لو أن هذا الشاب جعل شبابه ونشاطه وقوته في سبيل الله. قال: فسمع مقالتنا رسول الله ﷺ، قال: « وما سبيل الله إلا من قتل؟ من سعى على والديه ففي سبيل الله، ومن سعى على عياله ففي سبيل الله، ومن سعى على نفسه ليعفها ففي سبيل الله، ومن سعى على التكاثر فهو في سبيل الشيطان»[5]، والعفاف يشمل العفاف بالمال وبالزواج. وقد كانت مشكلة الهجرة من بلد إلى آخر متعددة الاضرار من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، بالمهاجرين أنفسهم وبمكان الهجرة، وهذا ما يزعزع طمأنينة البلدان الحديثة؛ إذ عجزت عن حل مشاكل الهجرة بينما أقفلت بلدان أخرى أبوابها، ولو أن هذه البلدان اتخذت السيرة العطرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم قدوة ومنهاجا تحتذي به لـعالجت مشاكلها واستقبلت جميع المهاجرين بصدر رحب. وتعد المؤاخاة من التدابير المتخذة من التنمية الاجتماعية لعلاج مشكلة الفقر والتشرد وجعلها مثمرة بدلاً من كونها مجدبة؛ فقام النبي ﷺ بعد الهجرة بإنشاء نظام يستند على المشاركة والتوارث بين المهاجرين والأنصار ليس بالمال والمتاع فقط وإنما بالمحبة والمودة والنصرة وذلك عن طريق نظام المؤاخاة، وكان نفعه في البداية أعظم نفعا حتى تحسنت أمور المهاجرين وأوضاعهم المالية وحينها ألغي نظام التوارث بينهم مع بقاء الأخوة.

كما يعد تنظيم «الصفة» أحد التدابير المتخذة لحل مشكلة من مشاكل الفقر في السيرة النبوية، وهو مكان مظلل في آخر مسجد رسول الله ﷺ يأوي إليه مساكين الصحابة[6] فسموا نسبة إليه بأصحاب الصفة «بضم الصاد وتشدد الفاء هي مثل الظلة والسقيفة يؤوى إليها» وقيل: «هي موضع مظلل من المسجد يأوي إليه المساكين وقيل سموا أصحاب الصفة لأنهم كانوا يصفون على باب المسجد لأنهم كانوا غرباء لا منازل لهم»[7]، وهو بمثابة منازل إيواء الفقراء التي توجد في البلدان التنموية الحديثة. وهؤلاء بدل أن يكونوا عثرة في طريق التنمية الاجتماعية أصبحوا ثمرة من ثمارها، فبقاؤهم بالمسجد جعلهم قريبين من رسول الله ﷺ يحضرون مجالسه ويكتبون له ويتفرغون لأعماله، فمنهم وصلت إلينا تعاليم الإسلام وأحاديث رسولنا ﷺ وكان يخصهم بالمرور إليهم يعضهم ويحدثهم ويبعث منهم البعوث، مع ما كانوا عليه من أعمال السبق لإعلاء كلمة الله بالجهاد والنصرة. والصحابة رضوان الله عليهم كانت نيتهم في الجهاد إعلاء كلمة الحق ونيل الشهادة، ولكن مع ذلك كان للقتال مكسب ذو دور اقتصادي اجتماعي؛ كحصول الجزية والخراج والغنائم، وإنه يشرع لكل من حضر القتال سواءً كان مقاتلاً أم لم يقاتل أن يأخذ من الغنائم. وكانت الغنائم على أربعة أقسام: المال والأسرى والسبي والأرض، وهذه الغنائم بدورها تعمل على تغطية جزء من اقتصاد المجتمع وتساهم في بناء التنمية الاجتماعية. وقد عالجت السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم مشاكل الاقتصاد المعطلة للتنمية الاجتماعية عن طريق الصدقة مع مراعاة النهي عن الإسراف الذي يتسبب في استهلاك حاجة المنفق. وإن النفس البشرية مجبولة على حب المال والاستئثار به لها دون الغير، لما يتحقق بالمال من علو منازل الدنيا، وقد يبلغ به أعلى منازل الآخرة بإنفاقه على أوجه الخير المشروعة، وهذا أحد أبواب الإثار. ومن هنا وجب التنويه إلى ضرورة الاتزان في ذلك الإيثار، فالمبالغة والإكثار من الصدقة بالمال حتى لا يبقى للمرء شيء يقيم به حياته وشؤونه أمر نهى عنه رسول الله ﷺ وتنهى عنه التنمية الاجتماعية، فهو إن كان يظن بذلك معالجة فقر المجتمع؛ فإنه من جهة أخرى يزيد مشكلة الفقر بحاجته وحاجة عياله، يروى عن جابر بن عبد الله (ت78هـ)[8] رضي الله عنهما أنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبت هذه من معدن، فخذها فهي صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول

الله ﷺ ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن، فقال: مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله ﷺ فحذفه بها، فلو أصابته لأوجعته، أو لعقرته، فقال رسول الله ﷺ : « يأتي أحدكم بما يملك، فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»[9]، فمن معطلات التنمية أن الرجل ينفق دون مراعاة احتياجاته واحتياجات من كان يعيلهم، فهو بإيثاره لمعالجة مشكلة فقير واحد أنتج عدة فقراء، ومن هذا قول المصطفى ﷺ لسعد بن أبي وقاص (ت55هـ)[10] ﷺ «أنك إن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»[11].

أما قوله ﷺ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»، ففيه ذم خلاف ذلك فلا بد من غنى يتقوى ويتوقى به، فمن الفقه أن يستبقي لنفسه قوتا وأن لا ينخلع من ملكه أجمع مرة واحدة لما يخاف عليه من فتنة الفقر وشدة نزاع النفس إلى ما خرج من يده، فذلك يورثه الندامة وينال به ذهاب ماله وفوات أجره ويصير كلاً على الناس. واستثنى النبي ﷺ صاحبه أبي بكر الصديق (ت13هـ) ﷺ من التصدق والخروج من ماله جميعاً؛ لما آثر به الإسلام وأهله ولعلمه من صحة نيته وقوة يقينه ولم يخف عليه الفتنة كما خافها على الرجل الذي رد عليه الذهب،[12] فأبو بكر الصديق ﷺ كسب ماله بالتجارة وعرف عنه أنه كان من أغنى أغنياء الصحابة رضوان الله عنهم،[13] ومن المعلوم أن التاجر وإن خسر ماله يمكن أن يسترده خلال أيام نظرا لفهمه وعلمه بطرق الكسب وأسراره، وهنا أبو بكر (ت13ه) ﷺ لم يخسره وإنما تصدق به وشتان بين ذلك.

لقد انطلق المصطفى ﷺ براية التنمية والدور الفعال وكان قدوة لصحابته رضوان الله عليهم والأمة أجمع فحافظ عليها بمحافظته على اقتصاد المدينة، وهذا درس عظيم لم يتأخر عن تقديمه منذ -أول هجرته عليه الصلاة والسلام؛ فقد كان يعمل بيديه الشريفتين أمام الناس شارعاً ببناء المسجد النبوي وسارع معه الصحابة تبعاً واقتداءً، وقد نالوا بهذا العمل اكتفاءً ذاتيا لهذه الدولة الناشئة وكفوها حملا ثقيلا متمثلا في البحث عن الأيدي العاملة وعن أجور أموالها، وعن كل ما يشكل عبئا إضافياً على مجتمع جديد خالٍ من المخزون المالي، وبهذا الدور حافظ ﷺ على ازدهار المجتمع الإسلامي دون تأثير سلبي على الاقتصاد.

أما من الناحية الاجتماعية فقد أدى هذا العمل إلى زيادة الترابط بين أبناء الأمه وتعاونهم معا كلحمة واحدة، فالنظام الاقتصادي في السيرة النبوية تميز بالتكافل الاقتصادي والاجتماعي معاً في آن واحد.وعنما استقر المسلمون في المدينة بعد بناء المسجد وجهت السيرة النبوية الأمة إلى الطرق المشروعة لاكتساب المال بالعمل والتوارث وغير ذلك، وأسست النظم المالية والاقتصادية، ووطدت للمجتمع طرق تيسيرها، فقد أشرف ﷺ بنفسه على الأسواق وطاف فيها محذرا وناصحاً، فنهى المطففين الذين لا يوفون الميزان، وراقب الأسواق وبث قواعد المعاملات المالية، وراقب المناسب من الأسواق واستحسنه لأصحابه.[14] كما عيّن فيها جهات مراقبة وتنظيم وعلى رأسهم سعد بن سعيد بن العاص (ت59هـ) ﷺ بمكة بعد الفتح وعمر بن الخطاب (ت23هـ) ﷺ بالمدينة، ولما تأثم المسلمون من التجارة في أسواق الجاهلية، أنزل الله: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[15]، مما يدل على أهمية الاقتصاد وعدم تعطله وإلا لنهوا عن تلك الأسواق وعن التبايع فيها.[16]

مما سبق يلحظ أن النظام الاقتصادي في السيرة النبوية مرّ بمرحلة نمو تماشت جنبا إلى جنب مع التنمية الاجتماعية، فلم يتصادم المتناميان بل مضيا سوياً ليصلا بالأمة الإسلامية إلى أرقى النماذج، فلم يتقدم الاقتصاد والازدهار المالي دون مراعاة الإصلاح الاجتماعي، ولذلك حرمت أنواع من المعاملات المالية كبيع السلم والغش، وأنواع من أصناف البيع كالخمور والمسروق والخنازير، وحرم الاكتناز وكل ما يؤدي الى

التخلف الاجتماعي والتدهور الاقتصادي من ظلم وفساد. ومن فروع الاقتصاد المعينة على التنمية الاجتماعية الأراضي الزراعية، وذلك بتوفيرها فرص العمل للمزارعين مما يكفل قوتهم وقوت أسرهم، فهي ذات أعمال شاقة على ملاك الأراضي وحدهم، مما يضطرهم لتوفير فرص عمل للفلاحين، فمن المعلوم أن أعمال الزراعة كثيرة وقد تتراكم على صاحبها فتلغي دوره الاجتماعي، وقد ورد في السيرة أن الأنصار طلبوا من رسول الله ﷺ تكرما وإحسانا أن يقسم مزارع النخيل بينهم وبين إخوانهم المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة،[17] فلم يوافق ﷺ على هذا العرض، لأنه كره أن يخرج شيء من عقار الأنصار عنهم، ونظراً إلى أن المهاجرين لا علم لهم بعمل النخل[18] فلربما تنعكس هذه المشاركة عليهم سلباً من ضياع الحقوق ثم المطالبة بها ومن فساد الزراعة نتيجة ضياع فترة زمنية على تعليم المهاجرين عليها وغير ذلك. وإن لهذا الرفض بعد نظر؛ فقد استقل المهاجرون بعدها بمزارع أقطعها لهم النبي ﷺ بعد غزوة بني النضير،[19] ولو أنهم تشاركوا مع الأنصار لاختلت الموازين الاقتصادية ولرجحت الكفة بالمكانة الاجتماعية للمهاجرين دون الأنصار. ولأهمية الزراعة حث النبي ﷺ أصحابه عليها فقال: «ما من مؤمن يغرس غرسا أو يزرع زرعا فتأكل منه بهيمة أو سبع أو طير إلا كان له صدقة»[20] ويستنتج منه أهمية إحياء الأرض الموات لتفعيل الازدهار الاقتصادي ذي التأثير على التنمية الاجتماعية، فهي تضمن لمن أحياها التقوت على ما تنتجه تلك الأرض فتكفيه عناء الحصول عن عمل والبحث عن المؤونة، ولهذا حث ﷺ الأمة لإحيائها ووعدهم بالجزاء الأخروي: «من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر ما أكلت العافية فهو له صدقة»[21]، وضمن لهم الجزاء الدنيوي المتمثل بحق الملكية «من أحيا أرضا ميتة فهي له»[22]. ومما أثر في الاقتصاد وجعله ذا دور فعال في التنمية الاجتماعية؛ احتياج الناس للحرفيين والمهنيين، ولأن الناس محتاجون لبعضهم اضطرارا فإن هذا الاضطرار تبنى عليه فوائد لكلا الطرفين، فالنساج مثلاً يعمل بيديه وينسج الأكسية التي يبيعها ويكتسب به ما يقيم صلبه ويكفيه مؤونته ومؤنة أهله، والناس محتاجون استمراراً للأكسية والاغطية والملابس بغرض الستر، فهم مضطرون لبعضهم اضطرار يفسر اضطرار التغيرات الاجتماعية للمتغيرات الاقتصادية ومدى ترابطهما الأزلي. وكان صلوات ربي وسلامه عليه يسند المهام لكل أهل حرفة بما يحترفونه وكل ذي علم بعلمه واختصاصه، ورد في صحيح البخاري[23] أن رسول الله ﷺ بعث إلى امرأة «أن مري غلامك النجار، يعمل لي أعوادا، أجلس عليهن إذا كلمت الناس»، فأمرت الغلام ليعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ بها، فأمر بها فوضعت، فجلس عليه ﷺ، وهذا يؤكد فكرة أن الانسان لا يمكنه العيش وحيدا فمن دلالات العيشة السوية والطبيعة البشرية كون الناس محتاجون لبعضهم. فـ «لا تمكّن حياة المنفرد من البشر، ولا يتمّ وجوده إلّا مع أبناء جنسه. وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبدا بطبعه»[24].

هذا وتعاق حركة التنمية الاجتماعية إذا دخلت في كينونة الاقتصاد أمورا تتعارض مع منطلقاتها، كبيع كل ما يعطل العقل البشري من أمور فكرية كالأصنام التي تؤدي إلى الشرك والكتب المحتوية على الأفكار الشركية أو الإلحادية، وبيع أمور متناولة كالخمر والمسكرات والمخدرات وغير ذلك. ولهذا نهت التنمية الاجتماعية في السيرة النبوية عن كل ما يتضمن ضررا على البائع أو المشتري ووضعت بنودا منظمة تضمن عدم استخدام الوسائل غير الشريفة في البيع والشراء والمعاملات، كما اعتنت بالتفاصيل الدقيقة جداً؛ كالنهي عن بيع الرجل ما ليس عنده، فقد سأل الصحابي الجليل حكيم بن حزام (ت54ه)[25] رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن الرجل يسأله عن البيع وليس عنده هل يشتريه من السوق ويسلمه إياه؟ فقال ﷺ: « لا تبع ما ليس عندك»[26]. لما في ذلك من خطورة بالغة؛ فقد لا يجد البائع المنفعة المطلوبة (المبيع) فيكون أخذ مالا بغير

وجه حق، أما إن استخدم ذلك المال فيكون قد أكل حراماً، فكيف وإن صرفه على من يعيل؟ وتنهى التنمية الاجتماعية في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم عن تلقي الركبان وصورته أن يخرج التجار لتلقي الباعة قبل أن يدخلوا السوق ويعرفوا ثمن السلع التي بحوزتهم فيكذب عليهم التجار في ثمنها ويشترونها بما فيه غبن،[27] وقد نهي عن هذا البيع لما فيه من ضرر على الركبان الذين بخسوا في مالهم، وعلى الأسواق بمن فيها من الباعة المتنافسين ومن الناس المشترين، فالمنافسين قد تبخس بضاعة أحدهم إذا باع متلقي الركبان بثمن أقل من ثمن مبيعهم وربح أكثر من ربحهم، ويتضرر كذلك المشتري الذي يشتري من متلقي الركبان نظرا لأنه يشتري تلك السلع بثمن فيه خداع وغش فمتلقي الركبان يبيعها بثمن مرتفع مقابل ثمن شرائه لها فيكون ربح مالاً فوق استحقاقه. وتنهى التنمية الاجتماعية عن العديد من البيوع كالربا وكل ما يفضي إليه كبيع العينة وهو أن يبيع سلعة بثمن مؤجل، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن حالاً،[28] وعن بيع المزابنة وصفته أن يبيع الرّطب في رؤوس النّخل بمقابل التّمر،[29] ونهت عن بيع الثمار قبل صلاحها، وعن النّجش وهو الزيادة في ثمن السلعة المعروضة للبيع لا ليشتريها بل ليغرّ بذلك الآخرين،[30] وعن الاحتكار، وعن بيع المصرّاة أي الدّابّة الحلوب حبس لبنها في ضرعها، ليوهم المشتري كثرة اللبن،[31] كما تنهى عن البيع بالنّسيئة وهو بيع شيء ربوي بشيء ربوي مع تأخير القبض فيهما، مثل بيع صاعاً من البر بصاع من الشعير مع تأخير القبض،[32] كما نهت عن بيع الحاضر للبادي، وإنما نهي عن ذلك - والله أعلم - لأنه متى ترك القادم يبيع سلعته اشتراها الناس منه بثمن زهيد، وتوسع عليهم السعر، بخلاف ما إذا تولى الحاضر بيعها، فإنه لا يبيعها غالبا إلا بغلاء فيحصل الضرر لأهل البلد،[33] وقد نهت عن بيع المجازفة أي بيع الشيء لا يعلم كيله أو وزنه،[34] وعن المخاضرة وهي بيع الثمار والحبوب قبل أن يبدو صلاحها وتزهو،[35] وغيرها من البيوع مما نظمت السيرة النبوية بنهيها عنها الحركة الاقتصادية تنظيما ذا تأثير كبير على العلاقات الاجتماعية بين الباعة والمشترين من سكان المدينة وكذلك ممن هم من خارجها، كالمسافرين والركبان الذين فقدوا ثقتهم نظراً للغبن والغش، فتم استعادتها لأن هذه المعاملات المالية من صميم أعمال التنمية الاجتماعية. وبينما تتجه دول اليوم للازدهار المالي في أثناء عملها على خططها الاقتصادية التنموية فإن الحاجة أصبحت ملحة لتنمية اجتماعية تتماشى مع هذا التطور لتحافظ على كيان الأمة وتعزز قيمها الناشئة من المبادئ الإسلامية، حتى لا يصاب المجتمع الإسلامي بتبعات التخلف وعواقبه.

وبعد فهذه أهم النتائج التي خلص إليها البحث:

- النظام الاقتصادي في السيرة النبوية مرّ بمرحلة نمو تماشت جنبا إلى جنب مع التنمية الاجتماعية، فلم يتصادم المتناميان بل مضيا سوياً ليصلا بالأمة الإسلامية إلى أرقى النماذج؛ فالعلاقة وثيقة الصلة.
- الأنظمة التي أنشئت في السيرة النبوية نظّمت العلاقات وأذابت الفوارق بين الناس فأصبحوا كلحمة واحدة.
- تبدأ التنمية الاجتماعية من الذات للتخلص من مشاكل المجتمع الاقتصادية.
- مخاطبة الرجولة لإظهارها في السعي لأجل الوالدين أو الأسرة أو لأجل إعفاف النفس -أو عليها جميعاً- فهو في سبيل الله ما عمل بها.
- عالجت السيرة النبوية الفقر والتشرد ومشاكل الهجرة التي أرهقت البلدان الحديثة عن طريق حل واحد يقتضي المؤاخاة.
- الاتزان في النفاق وفي الصدقات مطلب من مطالب التنمية الاجتماعية.
- المعاملات المالية من صميم أعمال التنمية الاجتماعية.

الهوامش:

(1) انظر: إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، المعجم الوسيط، (2/ 956)، (دار الدعوة- د.م، د.ت).

(2) عبد الهادي الجوهري، القيم الإسلامية والتنمية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-الرياض، العدد 5، (ص508)، (1401ه-1981م).

(3) عبد الله حسن العبادي، أفكار في التنمية، مؤسسة اليمامة الصحفية-الرياض، كتاب الرياض ع 15، (ص65)، (1995م).

(4) أخرجه أحمد في مسنده، ح (9868)، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ، ط الرسالة (15/ 536).

(5) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ح(17824)، (9/ 43).

(6) محمد بن فتوح الحَمِيدي بن أبي نصر (488هـ)، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: زبيدة محمد سعيد، ط1 (386،293)، (مكتبة السنة - القاهرة - مصر1415 – 1995).

(7) عياض بن موسى اليحصبي السبتي (544هـ)، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، (2/ 50)، (المكتبة العتيقة ودار التراث-د.م د.ت).

(8) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري، شهد العقبة مع أبيه، شهد مع النبي ﷺ تسع عشرة غزاة، مات سنة ثمان أو تسع وسبعين بعد أن عمى وكان له يوم مات أربع وسبعون سنة. محمد بن حبان البُسْتي (354هـ)، الثقات، ط1 (3/ 51)، (دائرة المعارف العثمانية-حيدر آباد 1393هـ-1973م).

(9) أخرجه أبي داود في سننه، ح(1673)، كتاب الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله، (2/ 128).

(10) سعد بن مالك بن وهيب، أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة وهو من أوائل الذين أسلموا، وأول من رمى بسهم في سبيل الله. ابن سعد، الطبقات الكبرى، (3/ 101).

(11) أخرجه ابن ماجه في سننه، ح (2708)، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، (2/ 903).

(12) انظر: حمد بن محمد الخطابي (388هـ)، معالم السنن، ط1 (2/ 78-77)، (المطبعة العلمية –حلب 1351هـ-1932م).

(13) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، (3/ 138،128).

(14) أخرجه ابن ماجه في سننه، ح (2233)، كتاب التجارات، باب الأسواق ودخولها، (2/ 751).

(15) سورة البقرة، الآية: (198).

(16) للاستزادة: انظر: صحيح البخاري، ح (2098)، (3/ 62).

(17) أخرجه البخاري في صحيحه، ح (2325)، كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مئونة النخل وغيره، وتشركني في الثمر (3/ 104).

(18) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (12/ 161).

(19) مغازي الواقدي، (1/ 379).

(20) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ح(1884)، (3/ 327).

(21) البيهقي، السنن الكبرى، (6/ 244)

(22) أخرجه مالك في الموطأ، ح(2893)، كتاب الأقضية، العمل في عمارة الموات، (2/ 466).

(23) أخرجه البخاري في صحيحه، ح (2094)، كتاب البيوع، باب النجار، (3/ 61).

(24) تاريخ ابن خلدون، (1/ 594).

(25) حكيم بن حزام بن خويلد، ولد قبل قدوم أصحاب الفيل بثلاث عشرة سنة، وأسلم يوم فتح مكة، ومات بالمدينة سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان وهو ابن مائة وعشرين سنة. ابن سعد، الطبقات الكبرى، (232-213).

(26) أخرجه أحمد في مسنده، ح(15312)، مسند المكيين، مسند حكيم بن حزام، عن النبي ﷺ ط الرسالة (24/ 28).

(27) انظر: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (620هـ)، الكافي في فقه الإمام أحمد، ط1 (2/ 15)، (دار الكتب العلمية- د.م 1414 هـ - 1994م).

(28) ابن قدامة، الكافي في فقه الإمام أحمد، (2/ 16).

(29) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (1/ 126).

(30) علي أبو الحسن بن عبد الحي الندوي (1420هـ)، السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ط12 (270)، (دار ابن كثير-دمشق 1425هـ).

(31) انظر: يحيى بن هُبيرة (560هـ)، الإفصاح عن معاني الصحاح، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، (2/ 57)، (دار الوطن-د.م 1417هـ).

(32) انظر: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (1421هـ)، الشرح الممتع على زاد المستقنع، ط1 (8/ 393)، (دار ابن الجوزي-د.م 1422 - 1428هـ).

(33) محمد بن عبد الله الزركشي (772هـ)، شرح الزركشي على مختصر الخرقي، ط1 (3/ 646)، (دار العبيكان-د.م 1413هـ - 1993م).

(34) انظر: محمد بن علي الإثيوبي الوَلَّوِي، ذخيرة العقبى في شرح المجتبى، ط1 (35/ 46)، (دار المعراج، دار آل بروم 1416 هـ - 1996م - 1424 هـ - 2003م).

(35) الإثيوبي الوَلَّوِي، المرجع السابق، (31/ 139).

المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم.

(1) ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني (273هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط1، (دار الرسالة العالمية-د.م 1430 هـ - 2009م).

(2) أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي (275ه)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (المكتبة العصرية-صيدا-بيروت د.ت).

(3) أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (204هـ)، مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي، ط1، (دار هجر – مصر 1419 ه 1999-م).

(4) أحمد بن الحسين البيهقي (ت458هـ)، السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط3، (دار الكتب العلمية-بيروت 1424 هـ 2003-م).

(5) أحمد بن حنبل الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط1، (مؤسسة الرسالة-د.م 1421ه - 2001م).

(6) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852ه)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (دار المعرفة -بيروت 1379).

(7) حمد بن محمد الخطابي (388ه)، معالم السنن، ط1، (المطبعة العلمية –حلب 1351هـ1932-م).

(8) (8) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (808هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط2، (دار الفكر-بيروت 1408ه1988-م).

(9) (9) عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (620هـ)، الكافي في فقه الإمام أحمد، ط1، (دار الكتب العلمية- د.م 1414 هـ - 1994م).

(10) (10) علي بن إبراهيم الحلبي (1044هـ)، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية)، ط2، (دار الكتب العلمية - بيروت 1427هـ).

(11) (11) علي أبو الحسن بن عبد الحي الندوي (1420هـ)، السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ط12 (دار ابن كثير-دمشق 1425هـ).

(12) (12) عياض بن موسى اليحصبي السبتي (544هـ)، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، (المكتبة العتيقة ودار التراث-د.م د.ت).

(13) (13) مالك بن أنس بن مالك (179هـ)، موطأ الإمام مالك، تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود خليل، (مؤسسة الرسالة-د.م 1412هـ).

(14) (14) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، (دار طوق النجاة –د.م 1422هـ).

(15) (15) محمد بن حبان البُسْتي (354هـ)، الثقات، ط1، (دائرة المعارف العثمانية-حيدر آباد 1393هـ-1973م).

(16) حمد بن سعد بن منيع (ت230)، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1، (دار الكتب العلمية – بيروت 1410 هـ 1990-م).
(17) محمد بن صالح بن محمد العثيمين (1421هـ)، الشرح الممتع على زاد المستقنع، ط1، (دار ابن الجوزي-د.م 1422 - 1428 هـ).
(18) حمد بن عبد الله الزركشي (772هـ)، شرح الزركشي على مختصر الخرقي، ط1، (دار العبيكان-د.م 1413هـ - 1993م).
(19) محمد بن علي الإثيوبي الوَلَّوِي، ذخيرة العقبى في شرح المجتبى، ط1، (دار المعراج، دار آل بروم 1416هـ-1996م - 1424 هـ - 2003م).
(20) محمود بن أحمد العيني (855ه)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (دار إحياء التراث العربي-بيروت د.ت).
(21) يحيى بن هُبيرة (560هـ)، الإفصاح عن معاني الصحاح، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، (دار الوطن-د.م 1417هـ).

المراجع والأبحاث العلمية:

(1) إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، المعجم الوسيط، (دار الدعوة-د.م، د.ت).
(2) عبد الله حسن العبادي، أفكار في التنمية، مؤسسة اليمامة الصحفية-الرياض، كتاب الرياض العدد 15، (1995م).
(3) عبد الهادي الجوهري، القيم الإسلامية والتنمية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-الرياض، العدد 5، (1401ه1981-م).

المهن والحرف في المدن الحجازية
(41 - 132هـ/661 - 750م)
(دراسة تاريخية تحليلية)

د. محمد عبد الكريم محمد الكنيدري
باحث - المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على المهن والحرف في المدن الحجازية خلال العصر الاموي (41 - 132هـ/661 - 750م)، ولأن العصر الأموي يمثل الدعائم الرئيسة للدولة الإسلامية سعت الدراسة إلى تسليط الضوء على تطور المهن والحرف فيها بصورة علمية من خلال المصادر والمراجع التي تناولت تلك الحقبة وما حدث فيها من نشأة للمهن والحرف المختلفة وتطورها بعد ذلك، تنبع أهمية الدراسة من كونها تناولت العديد من الحرف والمهن في مدن الحجاز المختلفة بقدر من الشرح والتفصيل والتحليل ومن هذه المهن التجارة، النسيج والخياطة والصباغة، التعدين، الحدادة ، الصياغة ، صناعة الفخار، الخصف والحبال، الحلاقة، والعطور والطيب، اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي بغية الوصول للنتائج والتي من أهمها: كان الحجاز ومدنه خلال العصر الأموي يضج بالعديد من الحرف والمهن والتي أسهم موسم الحج في زيادة تطورها وانتشارها، تنوع المهن والحرف في العصر الأموي في الحجاز يدل على الاهتمام بهذه المهن والحرف، توفر العديد من العوامل التي اسهمت في تطور وازدهار الحرف والمهن في المدن الحجازية.

الكلمات المفتاحية: المهن، الحرف، المدن الحجازية، التجارة. العطور والطيب.

Professions and crafts in Hijazi cities (41-132 AH/661-750 AD)
(Analytical historical study)

Dr. Mohamad Abdalkrem Alknidri

Abstract :

This study aims to identify the professions and crafts in the Hejaz cities during the Umayyad era (41-132 AH/661-750 AD**).** Because the Umayyad era represents the main pillars of the Islamic state, the study sought to shed light on the development of professions and crafts in it in a scientific manner through the sources and references that dealt with That era and the emergence of professions that occurred in it And the various crafts and their development after that. The importance of the study stems from the fact that it dealt with many crafts and professions in the various cities of Hijaz with a degree of explanation, detail, and analysis. Among these professions are trade, weaving, tailoring, and dyeing, mining, blacksmithing,goldsmithing, pottery making, weaving and ropes, shaving, and perfumes and perfumes. The study followed the

method Historical, descriptive and analytical in order to reach the results, the most important of which are: During the Umayyad era, Hijaz and its cities were full of many crafts and professions, and the Hajj season contributed to their further development and spread. The diversity of professions and crafts in the Umayyad era in Hijaz indicates interest in these professions and crafts, and the availability of many factors that Contributed to the development And the prosperity of crafts and professions in the cities of Hijaz.

Keywords: professions, crafts, Hejaz cities, trade**.** Perfumes and perfume**.**

مقدمة:

المجتمعات المتحضرة والمتقدمة هي تلك التي اهتمت بالحرف والمهن التي ظهرت فيها، وعلمت على تنميتها وتطويرها عبر الحقب التاريخية المختلفة. لتصبح بعد ذلك هذه المهن والحرف أحد أعمدة نهضتها وتطورها بين الأمم، والحجاز بموقعه الجغرافي والديني المهم والاستراتيجي ظهرت فيه العديد من الحرف والمهن على امتداد مدنه وحواضره الأمر الذي أدى إلى ظهور حالة من الاستقرار لهذه المجتمعات، وقد تنوعت هذه الحرف بتنوع مناطق الحجاز وتميز كل واحدة منها بنوع أنواع هذه الحرف والمهن.

المهن والحرف في الحجاز:

دبـــاغة الجلود:

إن احتراف دباغة الجلود وصناعتها قد عرفت في أجزاء عديـدة من شبه الجزيرة العربية من عصور مبكرة قبل الاسلام، فلم يكن استخدامها والتجارة فيها على نطاق المستوى المحلي والاقليمي فقط، انما كانت سلعة عالمية يتاجر فيهـا تجار شبه الجزيرة، وخصـوصا الحجازيين، الى أنحاء بعيدة ومتعددة من العالم[1]. وقد أفادتنا بعض المصادر الاسلامية المبكرة عن المدن الحجـازية التي كانت ذات شهرة عالمية في هذه الحرفة، فيذكر الهمداني[2]، والبكري[3] ان مدينة الطائف كانت المدينة الرئيسية في دباغة وتصنيع وتجارة الجلود الجيدة النوعيـة. [4]، ورد ذكرها كذلك عند ابن المجاور[5]، وياقـوت الحموي[6] وقد وافق الهمداني والبكري على ما ذكرا ثم اضـافوا أن سلعة الجلود المدبوغة في الطائف كانت من السلع الأساسية التي يعتمد عليها المجتمع الطائفي وذلك بترويجها والتجـارة فيها ليس في شبه الجزيرة فحسب ولكن في أماكن عديدة من العالم.

الا أن الطائف لم تكن هي الوحيدة في الحجاز التي مورست فيها مهنة دباغة الجلود، وإنما وجد في مكة وجدة والمدينة من يزاول هذه الحرفة، لكن لم تكن في مستوى النوعية وكثرة الانتاج التي كانت في مدينة الطائف[7]، كما أن هذه المدن نفسها لم تكن في مسـتوى واحد من حيث الجودة والانتاج للجلود المدبوغة، وتأتي مكة في المرتبة الثانية بعد الطائف، غير أنها تُـعـد السوق المركزي لترويج وتصـدير انتاج أهالي الطائف من الجلود المدبوغة الجاهزة، ثم ان بعض الطائفيين أنفسهم قد يذهبون الى مكة للاستقرار بها ومزاولة حرفة الدباغة الا أن مثل هذا الانتقال من الطائف الى مكة لم يؤثر على سمعة الطائف في أن تتصدر المنطقة الحجازية في مزاولة هذه الحرفـة[8]. وبما أن أي حرفة أو صناعة تحتاج الى عوامل مساعدة ومواد أولية، فان

دباغة الجلود تحتاج الى الجو الملائم للدباغة، كأن يكون جافاً وذا هواء معتدل، ثم يستلزم وجود المادة الأولية للدباغة الا وهي جلود الحيوانات الصالحة لمزاولة حرفة الدباغة، ثم المواد والمحتويات التي تضاف الى الجلود أثناء دباغتهـا وعادة تكون من أوراق ولحاء بعض الأشجار المخصصة لمثل هذه المهنة. واذا كانت هذه اللوازم التي يحتاج اليها من يحترف مهنة الدباغة، فإنها لحسن الحظ كانت متوفرة في الحجاز وخصوصا في مدينة الطائف وما يحيط بها، فهي ذات جو عليل جداً لممارسة الدباغة ثم ان الحيوانات والأشجار الضرورية للدباغة كانت موجودة وبكثرة ليس في الطائف وضـواحيها وانما في أماكن عديدة من أرض الحجاز[9]، ولهذا لم يكن هناك أي عقبة لمزاولة مهنة الدباغة في الطائف وغيرها من المدن الحجازية. ولكن نشاط حرفة الدباغة في المدن الحجازية ربما كانت واسعة ونشيطه حتى تستهلك جميع جلود الحيوانات التي كانت موجودة في المنطقة، والدليل على ذلك أن عدداً من المصادر تذكر نشاط استيراد الجلود غير المدبوغة من غير مناطق الحجاز حتى يتم دباغتها في كل من مكة والطائف، وكانت المدن اليمنية وكذلك المدن العراقية وبلاد فارس وخراسان من انشط البلاد التي تصدر هذه السلعة الى الحجاز حيث يتم دباغتها هناك ثم تصديرها مرة ثانية الى أنحاء العالم[10].

أما المواد الأساسية التي تضاف الى الجلود أثناء دباغتها، والتي يمكن الحصول عليها من بعض الأشجار والنباتات، فنجد كلا من الدينوري[11] وابن سيده[12] يذكـران قائمة بأسماء الأشـجار والنباتات التي تستخدم أوراقها في حرفة ودباغة الجلود، ولم يكونا يكتفيان بذكر الأسماء فقط وإنما استطردا في وصف كل شجر أو نبات ونوعية الجلد الذي يتم دبغه مع التوضيح لبعض الأشجار المهمة والتي تكون أكثر صلاحية من غيرها في دباغة الجـلود واعطاء صفات جيدة كالنعومة، واللون لجلد المدبوغ ومن يطلع على أسماء الأشجار والنباتات التي ذكرها كل من الدينـوري وابن سيده، فانه سيجدها جميعا في شبه الجزيرة العربية وخصوصاً أراضي الحجاز مع العلم أن من أهم وأحسن الأشجار التي تستخدم والمتواجدة بوفرة في المناطق الحجازية، هي أشجـار القرظ[13] التي لا تزال تغطى أجزاء واسعة من أودية وجبال الحجـاز والتي كانت من أهم المواد الأساسية التي يعتمد عليها العاملون في مهنة الدباغة، اذ كانوا يذهبون لجمعها من أماكنها واحضارها الى الأماكن التي تمارس فيها المهنة، أو أنه كان هناك من هو متخصص في جمع الأخشاب والأشجار المتنوعة ومن ضمنها شجر وأوراق القرظ الذي يحضر الى الأسواق والأماكن المتخصصة في بيعها فيتصل الدباغون بهؤلاء المهنين ويشترون منهم ما أرادوا لكي يمارسوا حرفتهم في الدباغة[14].وحيث أن المصادر الأولية أكدت على نشاط حرفة الدباغة في المدن الحجازية خلال العهود الاسلامية الأولى، الا أنه لا يزال لدينا بعض الغموض عن الطرق المتبعة، والخطوات التي تتخذ أثناء عملية الدباغة، ثم أنالا ندرى هل كان يعمل الدباغون في كل من مكة والطائف وغيرها على شكل نقابات وجماعات يتعـاونون لمزاولة هذه الحرفة، أم أنهم فقط كانوا يعملون على شكل أفراد أو أسر مستقلة بعضهم عن الآخر، مع العلم أن الدينوري وابن سيده في فصـليهما اللذين خصصاهما للدباغة زودانا بمعلومات قيمة عن بعض الخطوات التي تتبع أثناء ا لدباغة، وزيادة على ذلك فقد ذكـرا الأشجار وبعض الأدوات التي يستخدمها الدباغون أثناء مزاولة أعمالهم[15]. ومع وجود هذا كله فالنقص لا يزال واضحا وخصوصا في الكيفية التي كانت تتم بها عملية الدباغة ثم مدى ثقلها الاقتصادي وعلاقتها بالأسواق والحرف الأخرى، ثم أيضا التحديد والتعريف بالأماكن التي كانت تقام فيها المدابغ، علماً

بأن عملية الدباغة قد تسبب مخلفات قذرة وكذلك رائحة غير طيبة، فلهذا لا ندري عن العاملين في هذه الحرفة وكذلك القائمين على الحفاظ على نظافة المدن، هل كانوا يحتاطون لمثل هذه الأمور أم لا. وطالما أن حرفة الدباغة تمارس بشكل جيد في مناطق الحجاز لهذا بد من أن يكون هناك حرفة الخرازة التي هي في الأساس تابعة لمهنة الدباغة، فبعد عملية الدبغ تأتي صناعة هذه الجلود المدبوغة وتشكيلها على نمط أدوات مختلفة، وقد يكون هناك من فئة الدباغين من يجيد حرفتي الدباغة والخرازة معا، أو أن الخرازين المتخصصين يقومون بالاتصال بالدباغين والتعاون معهم لكي يحولوا منتجاتهم إلى أدوات أكثر صلاحية للاستعمال، فتروى لنا بعض المصادر عن تواجد الخرازين وبكثرة في المدن الحجازية، وخصوصاً في مكة حتى أنهم صاروا من كثرتهم يسيطرون على أماكن أصبحت خاصة بهم بل وعرفت بأسواق أو أزقة الخرازين في أماكن متعددة من مكة[16]. في حين أن مصعب ابن الزبير يتحدث عن هؤلاء الحرفيين في المدينة بمثل الصورة التي تحدثت بها المصادر عن مكة[17]. ولكن الشيء الغريب أن المصادر ركزت على تواجد الخرازين بكثرة في كل من المدينة ومكة في حين ان الطائف قد امتازت بشهرتها في الدباغة إلا أنه لا يذكر عنها شيء كثير في مهنة الخرازة، وهذا أمر يجعلنا نتساءل هل كان يتم ارسال كل الجلود المدبوغة في الطائف الى المدن الكبرى كالمدينة ومكة حيث يتم صناعتها ثم تصديرها؟ أم أن الطائف كانت قد اهتمت بحرفة الخرازة الا أن شهرتها في الدباغة كانت أكبر، لهذا ركز المؤرخون على حرفة الدباغة أكثر من غيرها ؟ وهذان الاحتمالان ربما كانا واردين، فالطائف كانت تصدر انتاجها من الدباغة ليس الى المدن الحجازية فقط ولكن الى أنحاء عديدة من العالم آنذاك، ثم إنه لابد من أن يكون قد عملوا أهل الطائف على تصنيع الجلود وخرازتها على أشكال مختلفة[18].

النجـــارة :

عرفت المجتمعات مهنة النجارة وأدركت أهميتها منذ القدم، ومن يطلع على تاريخ شبه الجزيرة بشكل عام وتاريخ الحجاز بشكل خاص، يجد أن سكان هذه الإقليم قد عرفوا مهنة النجارة، وان هناك من كان يعالج الأدوات الخشبية عن طريق النجارة على المستويين الفردي والجماعي ولأهداف تجارية عامة، وكذلك لاستخدامات شخصية خاصة فعندئذ يتم انتاج أدوات خشبية متنوعة في الأشكال والأغراض[19]. وتواجد مهنة النجارة في أي مكان، يتطلب بعض المقومات الأساسية التي تستند عليها، ومن أهم هذه المقومات، توافر الأيدي الفنية العاملة، ثم توافر المواد الأولية لصناعة الاخشاب التي تتمثل في الخشب نفسه، الذي يتوافر في الأشجار الصالحة لمزاولة هذه الحرفة. ومن حسن الحظ فان هذه المقومات الأساسية تتوفر في منطقة الحجاز، فيروى لنا عدد من المصادر وجود النجارين في كل من مكة والمدينة، وان مزاولتهم لمهنة النجارة لم تكن قاصرة على الحاجة الخاصة للفرد، وانما كانوا يمارسونها كحرفة تجارية يسعون من وراء مزاولتها الى الكسب وسد الحاجة في وقت واحد، ثم ان الأماكن التي كانوا يتخذونها للعمل لم تكن قاصرة على البيوت فقط وانما كان لبعضهم أجزاء خاصة بهم في الأسواق وبعض الأماكن الأخرى في كل من مكة والمدينة[20]. ومع أن المؤرخين الاوائل يخبروننا بتواجد من يزاول النجارة في المدن الحجازية، الا أنهم لم يفصحوا عن مستوى أولئك النجارين في أعمالهم التي ينتجونها، ولا عن الطرق التي كانوا يتبعونها أثناء مزاولتهم حرفتهم، بل ولا كمية انتاجهم هل كان يكفي حاجة المجتمع الحجازي وهل كان يصدر منه شيء الى خارج الحجاز؟ كل هذه النقاط لم تكن توضح، الا أن بعض الروايات تذكر أن علية القوم وأغنياء المجتمع

الحجازي وكذلك الأمراء والخلفاء في عهد بني أمية كانوا لا يقتصرون على ما يتم انتاجه عن طريق النجارين المقيمين في الحجاز وانما كانوا يقومون بجلب بعض النجارين المهرة من بلاد الشام والعراق وبلاد فارس، لكي ينفذوا لهم بعض الأشكال الخشبية المعقدة التركيب في بيوتهم وبساتينهم وغيرها من العقارات، بل وفي المساجد والمشاريع العمرانية التي تم تنفيذها خلال القرون الاسلامية المبكرة[21]. وقد يكون سبب استيراد الأيدي الفنية لهذه المهنة ناتجا عن عدم وجود نجارين بين المجتمع الحجازي يستطيعون تنفيذ الأعمال الخشبية المعقدة التي قد يطلبها أصحاب الأعمال. ثم كون الروايات تذكر وجود نجارين مقيمين بين المجتمع الحجازي وقد كان أغلبهم من طبقات الموالي والعبيد، و آخرين تم جلبهم من خارج شبه الجزيرة، الا أن المصادر أغفلت الحديث عما حدث من اتصال بين الفريقين، وهل كان هناك نوع من الاحتكاك وتبادل الخبرات، علما بأنه اذا كان الأفراد القادمين استطاعوا عمل أشكال جيدة ومعقدة التركيب، فليس ببعيد أن يكون استفاد منهم بعض النجارين المقيمين في المدن الحجازية، الا أن هذا الاحتمال وان كان قوياً فليس عندنا من البراهين والدلائل ما يجعلنا نجزم بحدوثه.

أما المواد الخشبية التي تتمثل في الأشجار والتي تعتبر عنصراً، أساسيا في مهنة النجارة فكانت هي أيضا متوفرة في أرض الحجاز، فمما سبق من حديث عن الدباغة نجد أن الدينوري يخبرنا عن عدد من أصناف الأشجار المتواجدة في الحجاز والصالحة للاستخدام في حرفة الدباغة فهو هنا يذكر لنا أعدادا كثيرة من الأشجار الصالحة لحرفة النجارة مبيناً مميزات كل شجرة من حيث الصفات لإعطاء أدوات خشبية جيدة[22]. الى جانب مصادر أخرى توضح بشكل دقيق بعض الأماكن المليئة بالأشجار الصالحة لمهنة النجارة، والواقعة في المناطق المحيطة بكل من مكة والمدينة والطائف وغيرها من مناطق الحجز الأخرى[23].

إلا أن أغلب هذه المصادر أجمعت على أن أحسن أنواع الأشجار في عمال النجارة تتمثل في شجر الغرب، التألب، والعتم، والشوحط، والنشم، والاثل، والطلح وهذه الأنواع كلها توجد ولا تزال في منطقة الحجاز حيث يستطيع النجارون أن ينتجوا من هذه الأشجار أشكالا خشبية متنوعة ومتعددة الأغراض[24]. ولأهمية توفير الأخشاب للنجارين في الحجاز، فقد وجد من هو متخصص في جلب الأخشاب من الجبال والأودية المحيطة بالمدن الحجازية، حيث كان يتم احضارها إلى الأسواق وبيعها لأصحاب هذه الحرفة، حتى ليذكر أنه كان بمكة والمدينة أسواق خاصة لبيع الأخشاب المتنوعة[25]. ولم يكن الاقتصار على الأخشاب المحلية وانما كان هناك بعض الأخشاب المستوردة من الهند، وبلاد فارس، مثل خشب الساج، والأبنوس وغيرها، حيث كان يأتي بها الأغنياء وعلية القوم في المجتمع الحجازي، وكذلك الخلفاء والأمراء لاتسخدامها في مشاريع عمرانية متعددة في كل من مكة والمدينة والطائف[26].

النسيج والخياطة والصباغة :

إن حرفة النسيج، والخياطة والصباغة متكاملة فيما بينها، فلا يمكن ممارسة الخياطة أو الصباغة دون أن تتوافر المنسوجات التي على ضوئها يتم للخياطين والصباغين ممارسة أعمالهم، وكل هذه الحرف وجدت عند العرب في شبه الجزيرة منذ العصور القديمة واستمرت تمارس في بلاد الحجاز وغيرها خلال العصور الإسلامية المختلفة[27].

الـــنـــسـيـــج:

تتحدث بعض المصادر عن وجود حرفة النسيج في منطقة الحجاز، فيذكر الأرزقي[28]، أن النساجين في مكة كانوا متواجدين بكثرة في البيوت والأسواق حتى أنه صار لهم أماكن ودكاكين تعرف باسم مهنتهم، كسوق أو زقاق النسيج، أو النساجين، ثم انه كان عليهم مشرف أو رئيس عام يتابع حركة عملهم ويطلق عليه أمير الحـاكه أو النساجين[29]، ومع أن الأزرقى يحدثنا بتواجد هؤلاء الحرفيين في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، الا أنه لم يوضح لنا دور هذا الأمير الذي ذكر أنه مشرف على العاملين في هذه المهنة، من الذي عينه أميرا، ثم ما هي الأعمال التي كان يقوم بها تجاه من يشرف عليهم؟ ومع العلم أيضا أنه لم يذكر المستوى الذي وصل اليه النساجون في مكة، وهل كان انتاجهم كافيا لسد حاجة المجتمع؟ فمن ناحية الأمير الذي ذكر لابد من أن يكون قد عينه أحد الملاك لمحلات النسيج في مكة، والدليل على ذلك أننا نجد بعض المصادر الأخرى تذكر أسماء بعض الأشخاص الذين كانت لديهم محلات للنسيج، وقد يعمل فيها عدد من العمال الذين غالبيتهم من العبيد والموالي، ويكون عليهم مشرف عام يقوم بمتابعة أعمالهم وتزويدهم بالمـواد الأساسية في عمل المنسوجات[30]. وفي أغلب الظن أن هذا الأمير الذي قصده الأزرقي كان من ملاك محلات النسيج أنفسهم، والسبب الذي يجعلنا نستبعد أن يكون هذا الأمير عين من قبل خلفاء أو أمراء بني أمية، هو أنه لم يكن في منطقة الحجاز محلات للنسيج تحت إشراف الخلافة وسلطاتها، وانما كانت على العكس من بعض المدن في الشام ومصر وبلاد فارس، في أنه كان بالمدن الأخيرة محلات للنسيج والطراز مهمتها بالدرجة الأولى انتاج منتوجات وشعارات تستخدم لأغراض رسـمية للخلفاء وموظفيهم[31].

أما المستوى الذي وصل اليه النساجون في مكة أو غيرهـا من مدن الحجاز، وكذلك نسبة انتاجهم، فالمعتقد أن مستواهم كان عالياً كما وأن نسبة انتاجهم كانت قليلة وضئيلة، والسبب في ذلك أن المصادر الأولية بشكل عام لم تكن تذكر مستوى راقيا للنسـاجين بالمنطقة الحجازية، ولا تلك الكمية الكافية التي تسد حاجة المجتمع. وانما كانت تتحدث عن المنسوجات التي يتم تصديرها من الدم المعنية، والعراقية والفارسية، وبلاد الشام ومصر وغيرهـا، وكيف كانت أسواق الحجاز تستقبل الأنواع العديدة من المنسوجات ويتم نفاذها على أيدي الحجازيين الذين كانـوا تواقين لشراء تلك المنسوجـات المستوردة[32]. وهذا التصدير والاقبال من قبل أهل الحجاز يدل على أن مستوى منتوجات النسيج في الحجاز لم تكن كافية ولا جيدة المستوى.

الـخيـاطة:

تتوفر المنسوجات في المدن الحجازية، اما عن طريق الاستيراد من الخارج، وأما من الانتاج المحلى، وقد وجدت أيضا حرفة الخياطة التي تعتمد بالدرجة الأولى على توافـر الأقمشة والمنسوجات التي تستخدم في هذه الحرفة. وقد أشارت بعض المصادر الى وجـود مهنيين في كل من مكة والمدينة يقومون بإحضار الأقمشة وبيعها الى الخياطين للاستمرار في ممارسة مهنتهم، علما بأن أولئك الحرفيين لم يكونوا من أهل الحجاز فقط وانما كانوا يأتون الى أسواق الحجاز من أماكن عديدة داخل وخارج شبه الجزيرة، الى جانب أنه كان في مكة والمدينة من كان يقيم بشكل دائم، ويمارس بيع الأقمشة بأنواعها، حتى أصبح لهم أماكن معروفة كأسـواق القماشين أو البزازين[33]. وطالما وجدت الأقمشة في المدن الحجازية فلم يكن هناك مشكلة للخياطين الذين كانوا يشتغلون في الأسواق، فيدفع اليهم القماش لتفصيله مقابل أجرة معلومة، كما كانـوا

أحيانا أخرى يستأجرون للعمل وتفصيل الثياب في بيوت الأثرياء وعلية القوم من المجتمع الحجازي[34]. الى جانب وجود خياطين بدائيين لم يكن لديهم الدراية بفن الخياطة وتفصيل الملابس، الا أنهم قد يسدون حاجتهم في خياطة ملابسهم الخاصة وعادة تكون هذه الفئة بين الأسر الفقيرة، في المدن وعند أهل البوادي والأرياف. أما العاملون في المدن والذين يمارسون حرفة الخياطة على مستوى واسع فليسوا الا من طبقة الموالي والعبيد حتى انه ليذكر ان غالبية الحرفيين في هذه المهنة من هذه الفئات[35].ومن المعروف أن طبقات الموالي والعبيد لم يكونوا من سكان الحجاز الأصليين وانما قدموا الى الحجاز خلال الفتوحات الاسلامية المبكرة من مناطق متعددة ومتباينة في ثقافاتها وحضاراتها، مما لا شك فيه أنهم قد عملوا في الحرف والمهن أمثال الخياطة وغيرها وبالتالي أحدثوا أنواعا من التجديد والتطوير في الحرف التي أصبحوا يعملون فيها، مستفيدين من خلفياتهم ومعارفهم التي اكتسبوها من أوطانهم الأصلية[36]. وطالما أننا لا ننكر وجود العاملين في مهنة الخياطة، الا أنه لا يزال لدينا النقص واضحاً في معرفة المستوى الذي وصلوا اليه من حيث اخراج تصاميم ونماذج جيدة، ثم النسبة في الانتاج هل كانت كافية لخياطة ما يسد حاجة المجتمع الحجازي، ولعله لم يكن يكفي لأن المصادر تشير الى أن علية القوم من الحجازيين خلال القرون الاسلامية الأولى كانوا يعتمدون اعتمادا كبيرا على استيراد أنواع عديدة من الألبسة من البلاد الأكثر انتاجا من الحجاز، الى جانب أن خلفاء بني أمية وكذلك أمرائهم كانوا يذهبون الى الحجاز فيتصلون بالأمراء والشيوخ والأعيان فيهدونهم الألبسة المتنوعة الجاهزة[37]. ومثل هذه الملبوسات سواء كانت عن طريق التجارة أو عن طريق الهدايا لابد أن يكون قد أثر في مستوى الانتاج في الحجاز لأنه بدون شك لن يستورد الى أسواق الحجاز ولن يهدى الا نوعية جيدة من الألبسة، والتي ربما لا يقدر الخياطون. في الحجاز عمل مثلها علماً بأن هناك مصادر عديدة تذكر عددا من الألبسة التي كانت تلبس في الحجاز ولكن لم تذكر هل صنعت محلية أم تم استيرادها من خارج الحجاز[38].

الصباغة:

تسبق عملية الصباغة الخياطة وأحيانا أخرى قد تليها، وعملية التقديم أو التأخير تعود الى الأهمية فيما يراد نسجه وخياطته ثم صبغه أو العكس، الا أنه بتوافر كل من حرفتي النسيج والخياطة لابد من أن تكون قد وجدت حرفة الصباغة كذلك، ولو أننا نجد صالح العلي[39]، يشير في احدى مقالاته الى أنه بعد أن بذل جهداً جهيداً في مصادر عديدة محاولاً أن يجد إشارة تدل على وجود مكان للصباغين في المدن الحجازية لم يوفق في ذلك، بعد البحث والتقصي توصلت إلى النتيجة التي توصل إليها، فلم أجد أي مصدر يذكر أي مكان يعرف باسم سوق أو زقاق الصباغين، كما يلاحظ حول عدد من الحرف الأخرى[40].

إلا أن عدم وجود مكان، معين يسمى بحرفة الصباغة لا يعني أنه لم يكن هناك من يمارس هذه الحرفة، وانما هو على العكس من ذلك فلابد من أن تكون قد وجدت خلال القرون الاسلامية المبكرة، والدلائل على ذلك عديدة من أهمها:

إن عدداً من المصادر ذكرت العديد من الأشخاص الذين كانوا يرتدون ألبسة ذات ألوان متعددة كالأزرق، والأحمر والاصفر وغيرها، وهذه الألبسة لا يمكن أن تكون قد وردت كلها من خارج الحجاز، وانما لابد من أن يكون بعضها قد صبغ في أراضي الحجاز[41]، وتشير المصادر إلى وجود بعضا من الأشجار والنباتات

التي تستخدم في الصبغ لإعطاء ألوان متعددة مع ذكر أماكنها في منطقة الحجاز وغيرها من المناطق الأخرى في شبه الجزيرة العربية[42]. كما أن المعاجم العربية الأخرى كلسان العرب لابن منظور[43] وتاج العروس للزبيدي[44] وفقه اللغة للثعالبي[45] قد أشارت إلى بعض الألبسة الملونة والأشجار المتعددة والمستخدمة في حرفة الصباغة والتي كانت معروفة عند الحجازيين. وهناك مصادر أخرى تشير الى بعض المواد المستخدمة في الأصباغ مثل مادة العصفر[46]، والزعفران، والنيل، والورس[47] والأيداع[48] والتي عرفها أهل الحجاز فاستخدمها بعضهم بل وبيعت في أسواق مكة والمدينة، علما أن بعضها كان متوافراً في النباتات والأشجار التي توجد في الحجاز في حين أن البعض الآخر كان يتم استيراده من داخل وخارج شبه الجزيرة على حد سواء[49].

التعـدين :

قد يظهر لنا أن المصادر لم تتحدث بشكل واسع عن حرفة التعدين والحدادة، وبشكل دقيق عن منطقة الحجـاز، الا أن كتاب الهمداني[50] يعتبر من أفضل المصادر التي وصلتنا، فذكر لنا بعض المعادن المشهورة في شبه الجزيرة العربية، وكان مما أشار اليه في بلاد الحجاز، معدن بني سليم الذي كان يقع في بلاد قبيلة بني سـليم وكانت هذه القبيلة هي التي تشرف عليه، ويذكر عنـه أنه كان معادن ذهب على وجه التحديد وقد كان يستخدم قبل الاسلام وخلال العهود الاسلامية المبكرة، حتى أنه ليذكر عنه أنه كان له شأن عظيم خلال العصر الأموي، فتروى بعض المصادر بأن كان عليه في عام ١٢٨هـ أمير يدعى عبدالله بن كثير[51].

إلا أنه من الغريب أننا قد بحثنـا عن هذا الشخص فلم نجد له ترجمة في أي مصدر كان، ولهذا فإننا لا نعرف كيف تمت توليتـه أميراً على ذلك المعدن هل كان من قبل الخلافة الأموية التي كانت تحكم العالم الاسلامي في ذلك الوقت، أم كان عن طريق قبيلة بني سليم نفسها التي كانت في حقيقة الأمر تتولى الحفاظ والسيطرة على ذلك المعدن، ومع أننا لا نعرف من ولاه على هذا المعدن، الا أن أقوى الاحتمالات أنه ولى من قبل الخلافة الأموية وممثليها الاداريين في الحجـاز، والسبب الذي جعلنـا نرجح هذا الاحتمال هو ان المعادن كانت ملكاً لأصحابها وليس للسلطة الادارية أو الخلافة في تلك العهود الا أن تحصل على نصيب الزكاة من المعادن، ولهذا فليس ببعيد أن عينت الخلافة الأموية هذا الأمير لكي يشرف على المعدن فيحافظ على سير العمل ثم بالتالي يضمن نسبة الزكاة التي سوف تذهب الى بيت مال المسلمين. ومن المعادن المشهورة أيضا في منطقة الحجاز معدن القبلية[52] وهي أرض ومعادن أقطعها رسول الله ﷺ لبلال بن الحارث المزني، وكان هذا المعدن كثير الانتاج خلال القرنين الأولين من الاسـلام، ثم ان ملكيته لم تخرج من ورثة بلال بن الحارث[53]، ألا أن الشيء الذي لا يزال غامضا حول هذا المعدن هو مقادير الانتاج الذي كان يخرج منه، ثم هل كان عليه وال معين كما رأينا عبدالله بن كثير على معدن بني سليم في آخر عهد بني أمية؟ ومعادن أخرى قد ورد ذكرها في أماكن متعددة من الحجاز مثل معدن الأحسن على حدود الحجاز من جهة نجد، وكذلك معـادن في ينبع، وجبل رضوى بين مكة والمدينة[54]، إلا أن هذه المعـادن لم يرد عنها الا اشارات في بعض المصادر المبكرة دون أن توضح من كان يمتلكها وما المعادن التي كانت تستخرج منها.

الـحـدادة:

تعتمد هذه الحرفة بالدرجة الأولى على الأيدي الفنية التي تصنع الحديد، وكذلك على المواد الأولية من الخامات الحديدية التي بتوافرها يستطيع صانع الحديد أن يمارس مهنته، فقد عرفت عند

العرب من قبل الإسلام، الا أن الكتاني[55] يروى لنا قصة تواجد صناعة الحديد في شبه الجزيرة، وأنها راجعة الى أن رسـول الله ﷺ لما فتح خيبر سبى فمن سبى ثلاثين عبدا، كانوا صناعا وحـدادين، ثم جعلهم يعلمون المسلمين في المدينة حرفة صناعة الحديد؛ إلا أن القول بأن صناعة الحديد لم توجد الا في تلك الفترة التي غزا الرسول ﷺ فيها خيبر، فهذا أمر محل نظر لأن الحديد قد عرف عند عرب شبه الجزيرة في العهود السابقة لظهور الاسلام، بل قد استخدمت الأدوات الحديدية المستوردة والمصنعة محلياً في أغراض عدة ولأهداف متنوعة. وقد ذكرت المصادر نشـاط الحدادين في أسواق مكة والمدينة، وكيف كانوا يزاولون حرفتهم لصناعة أدوات حديدية متعددة الأشكال، ومختلفة في الاستخدام، بل وأشارت الى أن غالبية الأيدي العاملة في هذه الحرفة كانت من طبقتي الموالي والعبيد في حين أن العرب كانوا ينظرون الى هذه المهنة وغيرها من المهن نظرة ازدراء واحتقار[56]، علما بأن هذه النظرة لا تتفق مع الشريعة الاسلامية التي تنادى بأن يتعلم المسلم حرفة أو مهنـة يكسب من ورائها الرزق الحلال. ومن يقف على الدراسات الأثرية التي أجرتها جامعة الملك سعود في مدينة الربدة يجد أنه قد عثر على عدد من الآلات والأدوات الحديدية التي تعود الى القرون الثلاثة الاسلامية الأولى، ثم ان أغلبها كان قد صنع محليا في منطقة الحجاز[57]. ومع أن الحدادين كانوا متواجدين في أرض الحجاز الا أنه لم يكن هناك معادن حديدية تسد حاجتهم، لذا كان هناك حركة تصدير للحديد من مناطق خارج وداخل شبه الجزيرة، أمثـال اليمامة، واليمن، وبلاد فارس، والهند وغيرها[58].

الـصـيـاغـة:

ومن الحرف التي عرفها أهل الحجاز، الصياغة، فيروى لنا الطبري، وجود اليهود في المدينة قبل ظهور الاسلام وكيف كانوا يمارسون هذه المهنة بنشاط[59]. ومما لاشك فيه أن العمل في حرفة الصياغة قد تطور في العهود التالية لعصر الرسول ﷺ، اذ يذكر لنا السمهودي[60] والعصامي[61] نقلًا عن ابن زبالة الذي عاش في المدينة خلال القرن الثاني الهجري، أنه كان في احدى ضواحي المدينة ما يقارب من ثلثمائة صائغ يمارسون مهنة الصياغة، وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه، الا أنه على أية حال يدل على سعة ونشاط مزاولة هذه الحرفة في المدينة، ولم تـكن المدينة وحدها هي المشهورة بالصاغة الذين يمارسون مهنة الصياغة، ولكنهم وجدوا في أماكن متعددة من أسواق المدينة ومكة معا، فكانوا يجلسون في حوانيتهم بالأسواق لممارسة عملهم، صناعة الحلى من الذهب والفضة، كالأساور، والخلاخيل والخـواتم، والأقرطة التي تستخدمها النساء وتتزين بها ولم يكن جلب المواد الأساسية لحرفة الصياغة صـعبا، وذلك لتوفر المعادن في الحجـاز كمعدنى بنى سليم والقبيلة فكانت تنتج بالدرجة الأولى الذهب ثم الفضة، ولذا فأن انتاج تلك المعادن لابد من أن يذهب منه بعض الشيء للصاغة في الأسواق وغيرها حتى يمارسوا مهنتهم، ثم ان هناك مصدرا آخر، اذ تذكر بعض المصادر أنه كان بين أهل الحجاز عدد من الأغنياء وعلية القوم يحصلون على المجوهرات والأدوات الذهبية والفضية اما عن طريق التجـارة من خارج الحجاز، أو أن بعض خلفاء بني أمية كانوا عندما يذهبون الى الحجاز في أيام الحج يقومون بتوزيع بعض الهدايا والكساوي على بعض أفراد المجتمع، والتي كان من ضمنها بعض المجوهرات وما شابهها[62]، توافر هذه المجوهرات عن طريق التجارة أو الهدايا، لابد أن يحافظ عليها فتصان ويصلح ما خرب منها، وهذا العمل لا يقوم به إلا الصاغة أصحاب الحرفة.

صناعة الفخـــار:

ومن الحرف والصناعات التي كانت موجودة عند الحجـازيين صناعة الفخار، اذ تروى بعض الكتب التاريخية بأنه كان في بعض مدن الحجاز أماكن خاصة، يمارس فيها صناعة الفخار، ثم انه كان هناك مناطق معينة في كل من مكة والطائف يجلب منها المواد الأساسية، كالطين وغيره لصناعة الأواني الفخارية[63].

البناء ونقش الأحجار:

وحرفة البناء ونقش الأحجار كانت متوافرة في المدن الحجازية، حتى انه كن هناك من يجيـد فن النقش على الحجـارة، فيـذكر السمهودي[64] أنه كان لبنى حرام في المدينـة غلام رومي ينقـل الحجارة وينقشها، ومن يطالع التوسعات المعمارية التي حدثت في الحرم المكي، والحرم النبوي خلال القرون الاسلامية الأولى، يجد أنه كان هناك من يجيد حرفة البناء والنقش، علماً بأن من يقوم بهذه الحرف لم يكن من أهل الحجـاز فقط، وانما كان يستقدم بعض البنائين، والنقاشين، والمخططين والمهندسين المهرة الذين يقـومون بتنفيذ بعض المشاريع التي يراد عملها، فيذكر أن الوليد ابن عبدالملك الأموي، استقدم عدداً من هؤلاء الحرفيين من مصر، والشام والعراق أثناء توسعته الحرم المكي والمدني[65].

صناعة الخصف والحبال:

صناعة الخصف والحبال من المهن التي امتهنها المجتمع الحجازي، فكانوا يستخدمون أوراق الأشجار، وسعف النخـل في عمل بعض الأثاث المنزلي، كما أن صناعة الحبال والخيوط المتنوعة كانت معروفة ويمارسها بعض السكان، ومن يلقي نظرة على كتاب النبات للدينوري، يجد أنه أفرد باباً في صناعة الحبال، موضحاً نوعية الحبال التي كانت تصنع، ذاكراً الأشجار التي تستخدم لاستخراج المواد الأساسية لعمل أنواع متعـددة من الحبـال، مع التركيز على شجر الخزم الذي يوجد بكثرة في جبال وأودية الحجاز، والذي يعد من أفضل أنواع الأشجار في استخراج نوعية جيدة من الحبـال[66].

الحرف والمهن:

وجدت في مواسم الحج بعض المهن والحرف ذات العلاقة الوثيقة بفريضة الحج ومناسكه كالكراء، والحلاقة والحجامة، والجزارة، والحطابة، بالإضافة إلى مهن وحرف أخرى شاركت فيها المرأة.

الـكـراء:

كانت مهنة كراء الرواحل[67]، وهي الإبل السريعة والقوية، من المهن الرائجة في مواسم الحج، فقد كانت الراحلة هي الوسيلة المفضلة عند الحجاج لنقلهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج[68]. وقد تميزت الرواحل بتحملها للجوع والعطش خلال قطعها للمسافات الطويلة والمتباعدة. وكان من يتولى مهنة الكراء يعرف باسم المكاري، وهو الذي يؤجر دابته من الإبل وغيرها مقابل ثمن معين[69]. وتشير المصادر إلى رواج مهنة الكراء وإزدياد الطلب عليها في مواسم الحج، فقد كانت الإبل تكرى للحج إلى مكة وتدفع زكاتها بالمدينة[70]. وأيضاً تكرى لحجاج الشام عند مغادرتهم لمكة بعد إنقضاء موسم الحج[71]. وقد ترتب على إنتعاش مهنة الكراء في مواسم الحج، زيادة الطلب على شراء الإبل وإزدهار هذه التجارة في أسواق الحجاز. فقد كان تجار الإبل يتجهون لتلك الأسواق كسوق المدينة لبيع إبلهم والتكسب منها[72]. ويلاحظ أن وسيلة المواصلات هذه، وهي الإبل، قد حصل تطور في كيفية استعمالها وركوبها، فإذا كان

المسلمون في بداية الإسلام يحجون أفرادا على الرواحل والزوامل، وهي الإبل وعامة الدواب[73]، فقد تطور الأمر بعد ذلك إلى إتخاذ المحامل وهما شقان على الإبل يحمل فيهما الشخصين[74]. وكانت المحامل تؤجر إلى مكة، ويعتبر الحجاج بن يوسف أول من حج بالمحامل إلى مكة[75].

كما كانت المحامل تؤجر في الشام للحج، فعندما حج إياس بن زيد[76]، وغيلان الدمشقي[77]. من الشام، استأجر لهما المكاري محملا لحجهم[78].ومما لاشك فيه أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دور في رواج مهنة الكراء، إذ سهلت على المكارين تأدية مهنتهم في مواسم الحج حيث أجاز الإسلام حج من يكرى الرواحل إذا أدى جميع مناسك الحج[79]. ولا تفيدنا المصادر المتاحة عن أجرة الراحلة المكرية إلى مكة خلال مواسم الحج، ولكن يبدو أن السعر كان يحدده بعد أو قصر المسافة من مكة وإليها. ويلاحظ هنا أن بعض المسلمين كان لايحبذ المساومة لإنقاص الأجرة في الكراء إلى مكة لأنهم كانوا يعتبرون ما يدفعونه كأجرة مما يتقرب به إلى الله، ومن هؤلاء جابر بن زيد الذي كان لا يساوم في الكراء إلى مكة[80].

بالإضافة إلى مهنة المكاري الذي يؤجر الإبل، فقد وجد في هذه المواسم من يكري نفسه لخدمة الحجاج. وقد أجاز الإسلام حج من يكري نفسه إذا أدى جميع مناسك الحج[81]. ولا شك أن وجود هذه المهنة كان راجعاً لعجز بعض الحجاج ماليا عن تأدية فريضة الحج. ويلاحظ هنا أن الإسلام قد رفع عن المسلمين التأثم والتحرج من عدم المقدرة على الحج مالياً، وذلك بأن قيد فريضة الحج بالاستطاعة. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [82]؛ فالاستطاعة شرط من شروط هذه الفريضة، وقد فسرت الاستطاعة بالقدرة على الزاد والراحلة[83]. وهي تتحق بالقدرة البدنية والمالية التي تعين المسلم على تأدية هذا الركن الإسلامي، فمن كان عاجزا بدنيا أعفاه الإسلام من أداء هذه الفريضة. ومن لم يملك المال فإنه يكره له أن يحج بالسؤال واستجداء الناس، بل حبب له الإسلام أن يتكسب حتى يحصل على الزاد والراحلة، وذلك بأن يعمل بأي صنعة ومهنة وهو في طريقه إلى الحج، أو يكري نفسه للحجاج، بأن يقوم بإعداد طعامهم وحمل متاعهم عند نزولهم ورحيلهم، مقابل ما يقدم له من غذاء[84].

الـجـــزارة:

كانت مهنة الجزارة من المهن المزدهرة وذلك لعلاقتها بكثرة ما ينحر من الإبل والبقر والغنم في أيام الحج بمكة ومنى. وقد كان الجزارون يقومون بنحر هدي الحجاج بمنى ويأخذون عليه أجراً، ومما يدل على ذلك أنه عندما حج عبدالله بن عمر بن الخطاب أعطى أحد الجزارين الذي قام بنحر هديه دراهم أجرة له[85]. ولم تقتصر مهنة الجزارين على نحر الهدي والأضاحي، بل شملت أيضا ذبح الإبل والأغنام التي تقدم طعاما للحجاج خلال موسم الحج، فقد كان لمعاوية بن أبي سفيان دار حج بمكة فيها قدور من نحاس كانت الإبل والأغنام تذبح وتطبخ فيها ثم تقدم طعاما للحجاج[86]. ومما يدل على انتعاش مهنة الجزارة بمكة وجود مكان خاص بالجزارين يقيمون به يسمى زقاق الجزارين[87].

الحلاقة والحجامة:

كانت الحلاقة والحجامة من المهن السائدة في مواسم الحج. أما عن مهنة الحلاقة فتشير المصادر إلى إنتعاش هذه المهنة في منى بعد التحلل من الإحرام[88]، وذلك لأن حلق الشعر من مناسك الحج، يقول تعالى:

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ الآية[89]. ولهذا فقد كان الحلاقون يوجدون بكثرة في منى أيام التشريق، حيث يقومون بحلق رؤوس الحجاج[90]. وكان المتعارف عليه عند الحلاقين أن لا يساوم في سعر الحلاقة وذلك لأن حلاقة الشعر نسك من مناسك الحج يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى[91].وقد ارتبطت مهنة الحلاقة بمهنة الحجامة حيث يبدو أن الذي يقوم بالمهنتين شخص واحد[92]. والحجامة هي مص دم الرأس بآلة كانت تسمى المحجم يجمع فيها الدم[93]. وكانت هذه المهنة سائدة في منى بعد التحلل من الإحرام وذلك لأن الدم يفسد الحج. وقد كانت الحجامة وسيلة من وسائل التداوي والعلاج في تلك الفترة التاريخية[94].

الحطابة:

كانت مهنة الحطابة من المهن الرائجة بمكة. ويبدو أن هذه المهنة كانت تنتعش في مواسم الحج وذلك لكثرة الطلب على حطب الوقود لطبخ وإعداد ما ينحر من الهدي والأضاحي، وأيضا ما يذبح طعاما للحاج من إبل وغنم خلال مواسم الحج. وكان الحطابون يقومون بجلب الحطب من بعض نواحي الحجاز المشهورة بحطب الوقود[95]. ومما يؤكد إزدهار مهنة الحطابة وجود سوق لبيع الحطب بمكة[96]. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دور في رواج مهنة الحطابة. فقد أجاز الإسلام لمن لهم منفعة وحاجة تتكرر، كالحطابين، دخول مكة بدون إحرام[97]. كما أباح الإسلام للحطابين أن يبيتوا بمكة ليالي منى[98]. ويبدو أن ذلك لحاجة الحطابين إلى التنقل بين مكة ومنى لعرض ما لديهم من الحطب الذي يزداد الطلب على شرائه في أيام عيد الأضحى بمكة ومنى. ولم تكن إباحة دخول مكة بدون إحرام مقصورة على الحطابين فقط، بل شملت أيضا أصحاب المهن والحرف الأخرى، كالحمالين والرعاة وغيرهم، وذلك لارتباط مصالحهم بمصالح الناس، ولأنه يصعب عليهم كلما أرادوا دخول مكة الإحرام[99].

العطـــور والـطـيـب:

كانت العطور والطيب سلعا رائجة في مواسم الحج، ولا غرابة في ذلك فقد اشتهرت مكة بعطورها التي كانت تستورد من اليمن والهند عن طريق البحر الأحمر[100]. كما كانت العطور تستورد أيضا من الطائف التي اشتهرت بأزهارها وورودها المتنوعة والتي يستخرج ويصنع منها العطور[101].وتذكر بعض المصادر تطور و إزدهار تجارة الطيب والعطور في العصر الأموي، فقد اشترى عمر بن أبي ربيعة - عندما كان حاجاً - طيباً وحللا بألف دينار[102]. كما كانت العطور المستوردة من الطائف تباع على الحجاج في مواسم الحج[103].

كما أن بعض الحجاج كانوا يجلبون معهم الطيب للتجارة، كما كان البعض الآخر يشترونه كهدايا عند مغادرتهم لمكة والمدينة وذلك بعد قضائهم لفريضة الحج[104].ومما يدل على انتعاش تجارة العطور ما تذكره بعض المصادر من وجود سوق للعطارين بمكة[105].

كما أن تجار العطور كانوا يوجدون بأعداد كبيرة في المدينة، ففي موسم حج عام (563ه) والذي صادف وقعة الحرة[106]، كان يقيم بالمدينة أربعمائة تاجر من أهل دارين[107]. بالبحرين يمتهنون العطارة[108]. وتدل كثرة العطارين بالمدينة على رواج تجارة العطور وأزدياد الطلب عليها، وخصوصا في أشهر الحج.

والملاحظ هنا أن بعض الخلفاء كانوا يصرفون الأموال على شراء الطيب والعطور، فقد كان الخليفة معاوية بن أبي سفيان أول من أوجد وظيفة تطييب الكعبة سنويا في مواسم الحج وذلك عند كل صلاة[109]،كما كان الخليفة هشام بن عبدالملك مولعا بالعطور والإنفاق عليها[110].

الخاتمة:

الناظر لتاريخ الحجاز عموما ولفترة العصر الاموي فيه يجد إن هذه المنطقة قد شهدت تطوراً كبيراً وهمماً في مجال الحرف والمهن، وما يدل على ذلك تنوع هذه الحرف وتعددها، والتي شملت جميع نواحي الحياة، والتي أسهمت في تعريف المنطقة بصورة جيدة للقادمين للحجاز أو العابرين به.

النتائج:

من النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- تنوع الحرف وتطورها في الحجاز خلال العهد الأموي.
- أسهمت الكثير من العوامل في تطور الحرف والمهن في الحجاز خلال العهد الأموي.
- لعبت الشخصية الحجازية دوراً مهماً في تطور هذه الحرف والمهن.

التوصيات:

من التوصيات التي خرجت بها الدراسة:

- إجراء المزيد من البحوث والدراسات حول الحرف والهن في الحجاز وغيره من مناطق المملكة لتعريف الاجيال القادمة بماضي هذه الأمة.
- تشجيع وتطوير هذه الحرف لتنافس في السوق المحلي والاقليمي والدولي.

الهوامش:

(1) الجاحظ: التبصر بالتجارة، تحقيق:، حسن حسنى عبدالوهاب بيروت: 1966م، ص32؛ جواد على، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص537، 587.

(2) صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمـد الأكوع الحـوالى، الرياض: 1392هـ/ 1972م.

(3) جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك: الكويت: 1397هـ/١٩٧٧م، ص٢٧، ١٢٢.

(4) جزيرة العـرب من نزهة المشتاق للادريس » ص 511 تحقيق: ابراهيم شوكت.

(5) صفة بلاد اليمن ومكة وبلاد الحجاز المسمى تاريخ المستبصر، ج1، ليدن: 1951م، ص٢٥٠.

(6) معجم البلدان ج2، بيروت: 1957/1376م، ص9.

(7) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 5، بيروت: 1957/1376م، ص٥٠٠، ٥٢٢32؛ الأزرقي: أخبار مكة، تحقيق: رشدى ملحس، ط2، ج٢، مكة: 1203هـ/1983م، ص٢٦٣32؛ الهمداني، صفة، ص326، ٧.

(8) ابن سعد: الطبقات، جه ص٥٢232؛ الأزرقي: المصـدر السابق نفسه32؛ الهمداني: صفة، ص٢٦٠32؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧٩.

(9) الجاحظ: التبصر، ص32؛ الهمداني: صفة، ص٢٦٠، 363؛ عرام السلمي: كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، تحقيق: عبدالسلام هارون القاهرة : 1955/1372م، ص203، 231؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص79.

(10) ابن خـرذاذبه، كتاب المسالك والممالك تحقيق: دى غوى ليدن: 1306هـ/1889م، ص35؛ الأصفهاني: بلاد العرب، تحقيق: حمد خسرو: وصالح أحمد العلى الرياض: 1388هـ/1968م، ص 308؛ ابن قدامة: كتاب الخراج، ص ؛ ابن المجاور: تاريخ ج1، ص١٣، ٢، ٩٧.

(11) الدينوري: كتاب النبات، الجزء الثلاث والنصف الأول من الجـزء الخامس، تحقيق: بى ليـون: ويسبادن: 1392/1972م، ص102–١٢١.

(12) كتـاب المخصص، ج2 بولاق: 1316هـ/1898م، ص102–116.

(13) القرظ، نوع من الأشجار التي تنبت في الجبال والأودية، وله سيقان كبيرة وأوراق تشبه ورق التفاح، الدينوري: النبات، ج3، ص 105، ابن سيده: المخصص الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، حققه مجمـوعة من العلماء، ج٢٠، الكويت:(١٩٨٣م)، /٣ ص٢٥٦، ص، ج 2، ص105.

(14) الدينوري: النبات، ج3، ص105؛ عرام: أسماء جبال، ص399، 201، 203، 207، 217؛ ابن سعد: الطبقـات الكبرى، ج5 ج5، ص237، ٥٢٢؛ ابن المجـاور: تاريـخ، ج1، ص25، 32.

(15) الدينوري: النبات، ج3، ص102–١٢١؛ ابن سيده: المخصص، ج2، ص 102– 116.

(16) الأزرقي: أخبار، ج٢، ص٢٥٥-٢٦٣؛ الفاكهي: أخبار مكة: ص٣٢٣؛ الأصفهاني: كتـاب الأغـاني، ج3، القاهرة: 1383هـ/ 1963م، ص326.

(17) مصعب الزبيدي: كتـاب نسب قريش، تحقيق: ليفى بروفنسال، القاهرة: 1953م، ص١٧٨.

(18) الجاحظ: التبصر، ص32؛ الهمدانى، صفة، ص٢٦٠؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٢٨٩؛ الادريسى: جزيرة العـرب، ص٢٦؛ ابن المجاور: تاريخ، ج1، ص١٣، ٩٧، ٩٨٠

(19)الأزرقي: أخبار، ج1، ص157–158؛ ابن رسته: الاعلاق النفسية، ص٢١٥؛ جواد على: المفصل، ج٧، ص٥٤٢،٥٥٢.

(20) الأزرقي: أخبار، ج٢، ص٢٤٣؛ الحربي: المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، ص129؛ ابن عبدربه: العقد الفريد، ج6، ص233.

(21) الأزرقي: أخبار، ج٢، ص60، ٧٧، ٧٩، ١٠٣؛ الفاسى: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: لجنة من كبار العلمـاء والأدباء، ج٢، بيروت: بدون تاريخ، ص326، ابن فهد، اتحاف الورى أخبـار أم القرى، تحقيق: فهيم شلتوت ج٢، القاهرة: 1202هـ/1983م، ص192، ٢٠٦؛ طاهر العميد: «التوسعات القديمة

والحديثة في عمارة المسجد الحرام» مجلة كلية الآداب ببغـداد:1971-1970م، ج12، ص٥٢١.

(22) الدينوري: كتاب النبات، تحقيق: محمد حميد الله: ج٢، القاهرة، 1983م.

(23) عرام: أسماء، ص 396، 203، 207، 209، 213، 217؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: 1975م، ص86، 89؛ صالح أحمد العلى: «منازل الطريق بين المدينة ومكة: مجلة الداره، ١٣٩٧/١٩٧٧م، مج13، ج١، ص35.

(24) التعريفات لهذه الأنواع من الاشجار. في عرام: أسماء، ص203، 207؛ ابن منظور: لسان العرب، ج1، بيروت:1975 م، ص٢٢٢، ج ٧، ص٣٢٨، ج١١، ص١٠؛ الزبيدي: تاج، ج٢، ص55، ج19، ص201- 203.

(25) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص 237؛ الأزرقي: أخبار، ج٢، ص ٢٣٢؛ الأصفهاني: الأغاني، ج16، ص129، ج19، ص165.

(26) الدينوري: النبات، ج٢، ص٢٥؛ الازرقى: اخبار مكة، ج٢، ص223؛ الحربي: المناسك، ص352-389؛ ابن رسته: 23، 29، 51، 132؛ الأصفهاني: الأغاني، ج16، ص 129؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦-٧١.

(27) ابن خلدون: ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت808هـ)، المقدمة، القاهرة: طبعة دار الشعب، (د.ت)، ج٢؛ بيروت:(١٩٧٠م)، وهي. مصورة من طبعة باريس: 1858م، ص668، 670؛ عبدالحي الكتاني: كتاب التراتيب الادارية، بيروت: (بدون تاريـخ)، ج٢، ص58، 60، 91.

(28) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٧-٢٥٦.

(29) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص261.

(30) ابن سعد: الطبقات، جه، ص237؛ الأصفهاني الأغاني ج1، ص65، ٧٨، ج5، ص112.

(31) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص161؛ الطبـرى: تاريـخ الرسـل والملوك، ج٧، القاهرة: 1960م؛ صالح العلى: «الأنسجة في القرنين الأول والثاني» مجلة العرب، 1381هـ/1961م، ج2، ص585-590.

(32) ابن سعد: الطبقات، ج 5، ص161؛ الطبـرى: تاريـخ الرسـل والملوك، ج ٧.

(33) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٩-٢٦٠؛ الفـاكي: كتاب المنتقى في أخبار أم القرى تحقيق: وستينفلد ليبزج: 1859م، ص12، 15.

(34) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٩٢، 95، ٩٧؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص٢٣٨.

(35) الأصبحي: أبي عبدالله الإمام مالك بن أنس، المدونة الكبرى، مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٣هـ، المدونة الكبرى، ج16، ص٣؛ ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٣١٠-٣٠٩.

(36) ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص 309.

(37) الطـبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص551.

(38) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص٢١٧؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك: ج٧، ص٥٧٧-٥٨٢؛ الأصفهاني: الأغاني، ج6، ص٢٩١.

(39) ألوان الملابس العربية في العهود الاسلامية الأولى: مجلة المجمع العلمي العراقي ج٢٦، 1395هـ/1975م ، ص106.

(40) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص، الجزء الخاص بالفهرس.

(41) مالك: المدونة، ج10، ص169، ج11، 32؛ الفاكهي: كتاب أخبار مكة: ص١١٩–١٢؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج٢٧، ص٥٧٧، ٥٨٢؛ الأصفهاني: الأغاني، ج6، ص٢٩١.

(42) الدينوري: كتاب النبات، ج3، ص165 – 182

(43) ابن منظور: لسان العرب، ج 3، ص206.

(44) الزبيدي: تاج العروس، ج 9، ص٢٨٦.

(45) الثعالبي: فقه اللغة، ص50 ـ 56.

(46) العصفر نبات يوجد في بعض أجزاء شبه الجزيرة كاليمن وغيرها إلى جانب استيراده من أماكن متعددة في العالم الاسلامي، كمصر وبلاد فارس، وعندما يستخدم في الصباغة يعطى اللون الأصفر. الدينوري: النبات، ج٢، ص١٣٩.

(47) الورس شجرة تنبت في بلاد اليمن وتستخدم في الصبغ اذا تعطى اللون الأصفر إلى الحمرة، الهمداني، صفة، ص٢١٤ ٢١٥؛ الأصفهاني: الأغاني، ج٢، ص٢٨١.

(48) الايداع شجر كبير ذو أوراق تشبه أوراق العنب ويوجد بكثرة في بلاد الحجاز ويستخدم في الصباغة معطيا اللون الأحمر الدينوري: النبات، ج1، ص57–58.

(49) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص ١٨٠–١٨٩؛ مالك: المدونة، ج10، ص169؛ الأصفهاني: الأغاني، ج٢، ص٢٨١ الهمداني: صفة بلاد العرب، ص.٢١٣

(50) الهمداني: صفة بلاد العرب، ص.138

(51) الحربي: المناسك، ص335؛ الطبرى: تاريخ الرسلا والملوك، ج١، ص328؛ الأصفهانى: الأغاني، ج٣، ص٢٣٧–٢٢٨.

(52) معدن القبلية يقع إلى الجنوب الغربي من المدينـة وعلى بعد حوالي خمسة كيلو متراً، تحقيق: أبو عبيد: كتاب الأموال، تحقيق: محمد هراس، القاهرة: 1388هـ ص387 ملاحظة رقم (٢).

(53) أبو عبيد: كتاب الأموال، ص٣٨٧، 270؛ البلاذرى: أحمد بن يحيى (ت279هـ)، فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1203هـ/1983م، ص٢٢، ٢٧.

(54) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص101، الأصفهاني: بلاد، ص159؛ ياقوت: معجم، ح٢، ص232.

(55) عبدالحي الكتاني: التراتيب، ج٧، ص75.

(56) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٩ –٢٥٦؛ مالك: المدونة، ج١٢، ص٤٢؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٥٢٨، 530.

(57) الربـده تقع في الجنوب الشرقي من المدينـة، وهي تبعد عنها حوالي مائتي كيلا، وتعتبر من أنشط المحطات على طريق مكة المكرمة خلال القرون الاسلامية الأولى. حمد الجاسر: «الربده تحـديد موقعها»، مجلة العرب: 1395هـ/ 1975م، ج٢،1، ص3-١.

(58) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٢٥٤؛ الأزدي: تاريخ الموصـل، تحقيق: على حبيبه، القاهرة: 1387هـ ص29؛ صـالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة خلال القرن الأول الهجري، بغداد: 1953م، ص 19.

(59) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص281.

(60) المسهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج2، القاهرة: 1952م، ص١٢٣٠؛ الطبري: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج، القاهرة: 1380هـ ص٩٢.

(61) مالك: المـدونة، ج11، ص32، ج١٢، ص٤٢؛ ابن سعد: الطبقات، ج 5، ص290.

(62) الزبير بن البابطين: جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق: محمود محمد شاكر، بيروت: مكتبة خياط، ص١١٣– 112؛ ابن فهد: اتحاف الورى باخبار أم القرى، ج٢، ص١٧٧.

(63) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٥؛ الأصفهاني: الأغاني، جه، ص65.

(64) السمهودي: وفاء الوفاء، ج1، ص٢٠٤.

(65) الأزرقي: أخبـار مكة، ج٢، ص٧٩؛ الفـاكهي: أخبار مكة، ص336؛ الحربي: المناسك، ص399-389؛ ابن فهد: اتحاف، ج٢، ص٢١٤.

(66) الدينوري: كتاب النبات، ج3، ص231.
(67) الرواحل: جمع راحلة وهي كل بعير نجيب، سواء كان ذكرا أو أنثى. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٢٧٧.
(68) عن حج المسلمين على الرواحل، ابن حجر: فتح الباري، ج3، ص٣٨١-٣٨٠؛ ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج٧، ص372؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص 128.
(69) ابن منظور: لسان العرب، ج15، ص٢١٨؛ جواد علي: المفصل، ج٧، ص510.
(70) أبو عبيد: القاسم بن سلام، كتاب الأموال، ط3، ص323؛ السيف: الحياة الاقتصادية، ص١٧٨.
(71) الأصفهاني: الأغاني، ج٢٢، ص٣٢٨.
(72) الأصفهاني: الأغاني، ج9، ص٢٠٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 80-61هـ ص٢١٣.
(73) الزوامل: هي الإبل التي يعمل عليها الطعام والمتاع، وقيل هي الدواب عامة التي يعمل عليها من الإبل وغيرها. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٣١٠.
(74) ابن منظور: المصدر السابق، ج١١، ص١٧٨.
(75) الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص ٤٠٢. ج3، ص٢٣٤؛ الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري: الأوائل، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ط1، ص٢١٦–٢١٧؛ عبدالله بن مسلم بن قتيبة: المعارف، ت، ثروت عكاشة، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ط2، ص553.
(76) إيـــــاس بن زيد: أحد التابعين، توفي سنة ١٢٢هـ ترجمته عند: ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج٣، ص ص١٧٧- ١٨٨.
(77) غيلان الدمشقي: زعيم فرقة القدرية بالشام، وقد صلب في دمشق في خلافة هشام بن عبدالملك. عبدالقادر بن طاهر البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ط3، بيروت: دار الآفاق الجديدة، (١٩٧٨م)، ص ص193- 192. الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢٠-١٠١هـ ص221. وعن آراء غيلان ومعتقداته، حسين عطوان: الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي د.م: دار الجيل، ١٩٨٦م، ط1، ص، ص32 -20.
(78) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج3، ص١٨٠.
(79) أبو داوود: السنن، ج٢، ص ص350 – 351؛ الطبري: جامع البيان، ج٢، ص ص ٢٨٢، ٢٨٥؛ الطبري: القرى، ص٧٩. فقه السنة، ج1، ص٦٤١.
(80) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج3، ص ٢٣٧؛ الطبري: القرى، ص33.
(81) أبو داوود: السنن، ج٢، ص ؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص٣٧٩؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج٢، ص٢٥١
(82) سورة آل عمران: 97.
(83) الطبري: جامع البيان، ج2، ص15–17؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص٣٧٩.
(84) ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص ص150-122.
(85) الطبري: القرى، ص٥٧٠.
(86) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص٢٨٧، الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٧؛ الطبري: القرى، ص٤٩٣.
(87) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص٢٧٤؛ الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٨؛ الطبري: القرى، ص٢٥٨.
(88) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص ص155-152؛ السيف: الحياة الاقتصادية، ص168.
(89) سورة البقرة: 196.
(90) حلق عبدالله بن عمر رأسه على المروة. ابن سعد: الطبقات، ج2، ص ص152 – 155. وحلق معاوية بن أبي سفيان رأسه بمنى، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج٧، ص209. كما حلق الوليد بن عبدالملك رأسه بعد أن رمى الجمرة. الأصبحي: الموطأ، ج1، ص٣٢٩.

(91) الطبري: القرى، ص٤٥٤.
(92) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص155؛ الطبري: القرى، ص ص٤٥٤-455.
(93) ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص116-١١٧؛ جواد علي: المفصل، ج٧، ص ص٨٣، ٥٨٤.
(94) ما زالت مهنة الحجامة موجودة حتى اليوم كوسيلة من وسائل التداوي.
(95) جواد علي: المفصل، ج٧، ص ص86 – ٩٣.
(96) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص152؛ الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٣.
(97) الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص213، ج3، ص ص172–175؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص ٣٣٨. الطبري: القرى، ص ٢٥٩.
(98) ابن حجر: فتح الباري، ج3، ص ٥٧٨.
(99) حول إباحة دخول مكة بغير إحرام. الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص٤١٣؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص٣٥٢ -353؛ الطبري: القرى، ٢٥٩.
(100) جواد علي: المفصل، ج٧، ص٢٩٣. ص128.
(101) عبدالجبار منسي العبيدي: الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، ط، الرياض: دار الرفاعي للنشر، ١٩٨٢م، ص٥١–٥٢
(102) الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص166؛ المبرد: الكامل في اللغة والأدب،ج9، ص63؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج1، ص٣٧٥.
(103) العبيدي: الطائف، ص ص٥١-٥٢.
(104) ابن تيمية: شرح العمدة، ج٢، ص ص٨٨ –٩٠. وهنا يذكر ابن تيمية أن الإسلام اشترط لمن يحمل الطيب للتجارة وهو محرم أن يستره ولا يشمه. فإن شمه فعليه كفارة. الطبري: القرى، مقدمة المحقق مصطفى السقا، ص٨. وقد نهى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، الوليد بن عبدالملك عن استعمال الطيب قبل طواف الإفاضة. الأصبحي، الموطأ، ج1، ص٣٢٩. وعن حكم الطيب خلال الإحرام. برهان الدين إبراهيم بن فرحون، إرشاد السالك إلى أفعال المسالك، ج٢، ص ص205-202.
(105) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٠٢؛ ابن عبدربه: العقد الفريد، ج٧، ص302.
(106) الحرة: أرض ذات حجارة سوداء، وفي المدينة حرتان، إحداهما حرة واقم والتي كانت فيها وقعة الحرة المشهورة. بطوطة: معجم البلدان، ج٢، ص ص٢٤٥-٢٤٩؛ وقد كانت وقعة الحرة في شهر ذي الحجة سنة 63هـ وذلك عندما قام أهالي المدينة بطرد عامل الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، والخروج عن بيعة يزيد، مما ترتب عليه مهاجمة جيش الشام للمدينة وإباحتها وقتل كثير من أهلها، ومن ثم إخضاعها للخلافة الأموية. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص ٤٨٢-٤٩٥.
(107) دارين: محطة للسفن وميناء بالبحرين وكان يجلب إليها المسك من الهند، بطوطة: معجم البلدان، ج٢ ص٤٣٢.
(108) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق: ماكس سكلوسنجر، القدس: ١٩٣٨م، ج2، قسم ٢، ص23؛ الأصفهاني: الأغاني، ج٢٢، ص٣٨.
(109) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص٢٥٤. الطبري: القرى، ص٥٢٢. ويذكر الفاكهي أن عبدالله بن الزبير هو أول من طيب الكعبة بالطيب، الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص٢٢١.
(110) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج 5، ص ١٩٢.

الحجاز في الربع الأول من القرن العشرين

أ.عبد العزيز بن حماد الحماد

قسم التاريخ والآثار- كلية الآداب والعلوم الانسانية-
جامعة الملك عبد العزيز – المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على أوضاع الحجاز السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية في الربع الأول من القرن العشرين وهي الفترة التي تكالبت فيها العديد من القوى العظمى من أجل بسط سيطرتها على منطقة الحجاز ،تنبع أهمية الدراسة من كونها تسعى إلى تسليط الضوء على منطقة مهمة واستراتيجية في شبه الجزيرة العربية وما شهدته من تطورات وأحداث خلال فترة الدراسة، أتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي بغية الوصول لعدد من النتائج والتي من أهمها: كانت منطقة الحجاز خلال الربع الأول من القرن العشرين مسرحاً للعديد من الأحداث السياسية المهمة مثل الصراع الداخلي بين الاشراف حول شرافة مكة، وكذلك الرغبة العثمانية الجامحة للعودة للحجاز والسيطرة عليه مرة أخرى ، أصبح الحجاز يفتقد الاستقرار الحقيقي في السنوات الأولى من القرن العشرين الأمر الذي يدل على هشاشة الأوضاع الداخلية في الإقليم في تلك الفترة وذلك بسبب السياسة التركية وغيرها من الأسباب والعوامل التي أسهمت في تعميق تلك الهشاشة، وكذلك زيادة حدة التنافس الدولي والمتمثل في الصراع البريطاني الفرنسي على الحجاز الرامي لإيجاد موطئ قدم لهما في المنطقة.

الكلمات المفتاحية: الحجاز، الربع الأول من القرن العشرين، الاوضاع السياسية، الأوضاع الاقتصادية. الأوضاع الاجتماعي.

Hejaz in the first quarter the twentieth century

A.bdulasis Hammad Sultan Alhammad

Abstract:

This study aims to identify the political, economic, social and health conditions of Hejaz in the first quarter of the twentieth century, a period in which many great powers struggled to extend their control over the Hejaz region. The importance of the study stems from the fact that it seeks to shed light on an important and strategic region in the region. Al JazeeraArabic language and the developments and events it witnessed during the study period. The study followed the historical, descriptive, and analytical approach in order to reach a number of results, the most important of which are: During the first quarter of the twentieth century, the Hejaz region was the scene of many important political events, such as the internal conflict between the nobles over the seeship of Mecca, as well as the desireThe unbridled Ottoman Em-

pire returned to the Hijaz and controlled it once again. The Hijaz began to lack real stability in the first years of the twentieth century, which indicates the fragility of the internal conditions in the region at that period due to Turkish policy and other reasons and factors that contributed to deepening that fragility, as well as increasing the severity of The international competition, represented by the British-French conflict over the Hijaz, aimed at finding a foothold for them in the region.
Keywords: Al-Hijaz, the first quarter of the twentieth century, political conditions, economic conditions. Social conditions.

مقدمة:

الأوضاع السياسية في الحجاز بين التنافس والتكامل من خلال إدارة الولاة العثمانيين ونفوذ أشراف مكة المكرمة :

تميز الربع الأول من القرن العشرين من تاريخ الحجاز بتنافس الاستراتيجيات وكثافة الأحداث السياسية والعسكرية. فعلى المستوى المحلي كان صراع فرعي الأشراف حول شرافة مكة المكرمة من ناحية وتنافس القوى المحلية في نجد وعسير والحجاز، وعلى المستوى الإقليمي برزت ترتيبات العودة العثمانية خاصة بعد صعود الاتحاديين للحكم وتولي الشريف حسين إمارة مكة المكرمة، أما على المستوى الدولي فلئن كان لبريطانيا ما يشبه الاحتكار السياسي للمنطقة فإنها لم تكن لتنفرد بذلك أمام محاولات فرنسا للتواجد، وإن بشكل محدود في الحجاز، كما تجلّى ذلك في الحضور القنصلي منذ 1839م وفي ميدان تطبيب الحج والدعم العسكري للشريف حسين عقب إعلانه الثورة. ولعلّ أهم أحداث هذه الفترة المحورية في تاريخ المنطقة نستحضر الثورة العربية سنة 1916م وسقوط الإمبراطورية العثمانية وتداعياتها بنهاية الحرب العالمية الأولى، وهزيمة عائلة الشريف حسين ومغادرتها للحجاز أمام السعوديين سنة 1925م، بعد أن كان ذلك الإقليم مجالًا حيويًّا للشرافة منذ قرون.

المهام السياسية والاشراف الإداري للولاة والأشراف قبل إدارة الشريف حسين:

بعد انتهاء فترة الحكم العثماني/المصري أصبح الحجاز تحت تأثير اتجاهين سياسيين يعبران عن دخول الإقليم مرحلة جديدة. فقد توجه العثمانيين إلى إدارة الحجاز بشكل مباشر عن طريق تسمية والٍ ومعاونين له في رتبة قائمقام في جدة ثم المدينة المنورة، وتعزيز حضورهم الإداري به من ناحية. وقد حاول العثمانيون تدريجيًا وضع اليد بشكل مطلق على الحجاز، لكن طبيعة المجتمع القبلي ونفوذ الأشراف حدّ بشكل كبير من تلك الطموحات الجامحة. أما أمر الأشراف فقد تميز بتواصل التنافس بين سلالتي الأشراف من بني عون وبني زيد حول إمارة مكة، التي كانت تسمح لمن يفوز بها التمتع بنفوذ كبير على مناطق الحجاز الحضرية والقبلية ومداخيلها. وقد ميّز ذلك التنافس بين هذين الطرفين ما تبقى من تاريخ الحجاز حتى نهاية أحداث الحرب الأولى التي كان من نتائجها المباشرة تفكيك الدولة العثمانية.

كانت التسمية الشرعية لأمير مكة ستكمل بصدور الفرمان السلطاني، وهو يمكنه من نفوذ واسع لا يتوقف عن الاشراف المباشر عن إدارة مواسم الحج الذي يتطلب السهر على مختلف خدماته ومنها جزارة

الأضاحي وسقاية ماء زمزم والجمالة الذين ينقلون الحجاج من مكة إلى عرفات وغيرها من الخدمات الكثيفة. لقد شملت سلطة أمير مكة الاشراف على مدن الحجاز وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة ورعاية علاقاته مع التجمعات القبلية بالإقليم وخاصة قبيلتي عتيبة وحرب، التي يطلب ودهم ولتمتين صلاته بشيوخهم حتى يضمن الأمن لموسم الحج وقوافله، ويدعم مكانته السياسية إلى جانب دوره الديني. وبالإضافة إلى تلك المهام الإدارية والأمنية فإن شريف مكة كان يعين محتسب الأسواق ويتمتع بالتصرف في موارد مالية مهمة سواء كانت متأتّية من ممتلكات الأشراف بوادي فاطمة قرب مكة المكرمة أو من بساتين الطائف، كما كان يتصرف في المنح التي يبعث بها الباب العالي والتي قدرها سنة 1903م رفعت باشا ب 150 ألف جنيه استرليني[1].

أما ولاة الحجاز الذين يسميهم الباب العالي فكانوا غالبًا وفق التقليد الإداري العثماني من كبار ضباط الجند، وقد تلخصت مهماتهم في المحافظة على صورة السلطان كحامي الحرمين وذلك من خلال السهر على الأمن العام في الولاية وخاصة مدنها خدمات الادارة المحلية ومنها مراكز الشرطة المحلية والمطبعة الرسمية، كما تتضمن اهتمامات الوالي العثماني، الاشراف على فرق الجند التركي ومراقبة الحركة الملاحية في ميناء جدة ومركز جمركها. ومع أن الحضور العسكري للعثمانيين ما انفك يتزايد لاسيما أثناء المواجهات مع ابن عايض في عسير أو الحرب في اليمن، إلا أن عدد جنود تلك الفرق بالحجاز ظل ضعيفًا، لم يتجاوز 7 ألاف جندي بين 1870 و1910م نصفهم كان مقيمًا بمكة المكرمة التي لم تكن لها أسوار تحميها من الهجومات. لم يكن ذلك العدد يحقق سيطرة الإدارة العثمانية على الولاية بشكل كامل، وبالتالي فقد انحصر النفوذ العثماني في الأماكن التي تواجدت فيها فرق الجيش وهي المدن الكبرى بالحجاز وبعض مراكز سواحل البحر الأحمر أو في بعض النقاط على طريق قافلة حج الشام المعروفة بهجومات البادية عليها. وقد تميز هذين الطرفين خلال العقود القليلة المتأخرة من الوجود العثماني في ولاية الحجاز بالتنافس والريبة خاصة منذ أن تولّى الشريف حسين إمارة الشرافة سنة 1908م. لقد كانت تلك الظاهرة التي شملت أيضا ميدان القضاء[2] متجلية خاصة في المدن الحجازية الكبرى وبشكل شبه مستمر. وقد كانت إسطنبول تدعم واليها في الحجاز بشكل شبه دائم، أما أمير مكة الي فقد الدعم الخفي لخديوي مصر له بعد الاحتلال البريطاني فقد زادت تبعيته هو الأخر للسلطان [3] ، وهو ما دعّم صعوبة بروز فكرة استقلاله عنها قبل انتهاء القرن 19م. ورغم ذلك الوجود العثماني المستقر وإن ظاهريًا في الحجاز حتى اندلاع الحرب الأولى، إذ حافظت السلطنة على مكانة الأشراف السياسية لا سيما وقد أصبح العثمانيون يحتاجون هدوء الحجاز وتواصل خدماته الدينية للمسلمين بشكل منتظم مما يرمم صورتهم التي اهتزت في العالم الإسلامي بعد أن فشلت في إبعاد الاستعمار الأوروبي عن الجزائر وتونس ثم مصر وطرابلس الغرب. غير أنه من الجدير الإشارة إلى أن سياسة السلطان عبد الحميد الثاني تجاه الحجاز كانت تعمل على إبقاء القوى المحلية لهذه الولاية في وضع تتنافس مع ممثلي السلطان منعًا لبروز طرف قوي قد ينجح في السيطرة عليها[4]. وقد أجبرت تلك التوازنات السياسية شريف مكة قبل وصل حسين بن علي إلى الامارة على تقليص طموحاته وخدماته مثل الفصل في النزاعات واكتفى بدوره الشعبي ومقابلة زواره في أيام الجمعة. ومن الطبيعي ألا ترضي تلك الوضعية وجهاء الحجاز وعلمائه فبرز رفضهم للوجود العثماني[5] وذلك قبل أن يسيطر الاتحاديون على حكمها ومساندة أميرهم بشكل واسع

قبيل اندلاع الحرب العالمية. ويبدو أن العثمانيين كانوا يخشون عودة انتفاضة بعض القبائل الحجازية بقيادة شيوخها كما حصل سنة 1883م، تلك الانتفاضة التي عوقب فيها مثلا الشيخ عمر ناصيف وكيل أمير مكة بالسجن خمسة عشر سنة كما نفي عدد من الوجهاء والعلماء، أما شيوخ حرب فقد منعوا من الهبات التي كانوا يحصلون عليها سنويا بينما تمتع بها نظرائهم من قبيلة عتيبة[6]. ومع حلول القرن 20م كان شبه الجزيرة العربية تتقاسمه قوى سياسية محلية محدودة النفوذ والموارد ولكنها متنافسة إلى حد الحرب داخل ذلك المجال الشاسع. فإلى جانب ولاية الحجاز العثمانية كان هناك إمارة الادريسي في الجنوب بعسير وفي نجد برزت الحركة السعودية المعاصرة وفي حائل امتد نفوذ أل رشيد وبين هذه وتلك من الوحدات كانت مواقف الجماعات القبلية متأرجحة بين هذا الطرف أو ذاك، فقبائل غامد وزهران مثلًا كانت تميل تارة إلى الإدريسي في عسير وطورًا إلى إمارة الحجاز، وفي نجد كانت جماعات من قبيلة عتيبة تتأرجح بين نفوذ ابن سعود ونفوذ الشريف حسين وكان ذلك الوضع سببًا في توتر علاقات السلطتين النجدية والحجازية في أكثر من مناسبة. والملاحظ أن هذه المواقف القبلية المتأرجحة كانت وليدة ضغط مطالب الأمراء المالية (الزكاة) عنوان التبعية السياسية ولم تكن مجرد مواقف عشوائية غير محسوبة.

أنضاف إلى ذلك الوضع، خلال العقود الأخيرة من القرن 19م، اشتداد التنافس بين أشراف مكة على الامارة بعد وفاة الشريف عون الرفيق سنة 1905م إلى حدّ الاقتتال[7]. ولئن كان الشريف عون يخشى من تطور نفوذ القوى الأوروبية فقد فرض نفوذه على ولاة العثمانيين[8] ، إذ دفعهم إلى منظومة الفساد المالي وسوء التصرف. وقد تمكن هذا الشريف وخلفه على ابن عبد الله بأن يستأثر بمعظم موارد الحج ما دفع أحد قناصل فرنسا إلى القول: "في الحجاز تسيطر المصلحة التجارية على المصلحة الدينية»[9] . والمؤكد أن السلطة العثمانية لم تكن غير متورطة في تدهور تلك الحالة السياسية للأشراف بمكة، وعليه فليس من الغريب القول بأن الحجاز دخل العشرية الأولى من القرن 20م وقد ازدادت قواه المحلية تدهورًا إذ فقد منصب الشرافة في مكة المكرمة مكانته السياسية التي كان عليها في القرن 19م، إذ أصبحت إدارة الحجاز الفعلية تقوم على أوامر السلطان المباشرة و إرادة واليه في الحجاز التي أمعنت في محاصرة مكانة الشريف أمير مكة ومراقبة علاقاته المحلية والاقليمية، بينما كانت مشاريع الأوروبيين وأطماعهم تزداد قوةً واصرارًا على مزيد توسيع نفوذها في الإقليم في الوقت نفسه.

الأوضاع السياسية في الحجاز أثناء إدارة الشريف حسين:

لن نتوقف طويلا عند شخصية الشريف حسين، الذي اختاره السلطان عبد الحميد الثاني في مركز الشرافة في مكة المكرمة في شهر ديسمبر 1908م مقابل نظيره مرشح الاتحاديين الشريف علي حيدر. لقد تناولتها بحوث عديدة يصعب حصرها، لكننا نرى من الضروري الإشارة إلى بعض محطات حياته التي أهلته لإمارة الشرافة ثم لبقية الأحداث السياسية الكبري في الربع الأول من القرن 20م لتاريخ الحجاز. ولد الشريف حسين في إسطنبول، منفى جده الشريف محمد ابن عون، سنة 1853م، وقد عاد إلى مكة المكرمة بعودة عائلته من إسطنبول وإسناد الشرافة إلى جده ثانية[10]. ثم عاد إلى إسطنبول ليقضي فيها سنوات عديدة حتى وفاة والده بها سنة 1870م[11]. هناك قد يكون استوعب العديد من صفات رجل السياسة من خلال وظائف والده الذي شغلها في الإدارة العثمانية ومنها عضوية المجلس الأعلى ومجلس الشورى، ثم حظي الحسين

بالرعاية السياسية من طرف عمه الشريف عبد الله ابن محمد ابن عون، فكانت خطة تعرفه على مناطق شبه الجزيرة العربية إذ زار نجد وشرق الحجاز وتعرّف على جماعاتها القبلية ونمط عيشها وتقاليدها وعلاقاتها فيما بينها وأهم شيوخها. قد يكون ذلك الاعداد الاجتماعي والسياسي وقبله الثقافي سببًا في تشكل شخصيته الغامضة التي اختلفت حولها الروايات والوصفات، لكن أبرز قول عنها ربما هو ما أورده أمين الريحاني بكونه:» تتجلّى فيه روحانية شرقية قرنت بالتأدب الغربي»[12]. وقد كان ذلك الاعداد في سياق توتر متصاعد حول شرافة مكة المكرمة وما يتبعها من التزامات ومزايا، فشهد مقتل عمه الشريف حسين بن محمد علي، وشارك في الوفد الذي توجه لإسطنبول سنة 1881م للمطالبة بعودة الشرافة لأسرته وقد جاءت المساعي بعد سنة بتكليف عمه عون الرفيق بها حتى وفاته سنة 1905م.

عايش الشريف حسين فترة تدهور الشؤون السياسية والاقتصادية العامة للحجاز في العشرية الأولى من القرن 20م عن بعد، إذ كان قد دعي سنة 1893م إلى إسطنبول حيث تقررت إقامته الجبرية فيها حتى سنة توليته الامارة في 1908م، جراء تقارير الإدارة العثمانية التي رأت في تحركاته خطرًا على الوجود العثماني وبقية الأشراف المتعاونين معها. وقد كان من بين أسباب تدهور أوضاع الحجاز السياسة غير الحكيمة لعمه المذكور، ولم يكتف أن توجه له مع غيره من وجهاء الحجاز أصابع الاتهام بالظلم والمحاباة وتحالفه في ذلك مع أعوان الإدارة العثمانية، بل عارضه معلّلا ذلك بخطر سياسته على الحجاز[13].

كان تكوين الشريف حسين السياسي قد فتح عينيه على أهمية الحاضنة الاجتماعية للحجاز وهي مدنها وقبائلها ولذلك عمل على كسب رضاها وتعاونها ضد القضايا الصغرى التي يتسابق حولها بعض الأشراف والخطر الأكبر الذي تمثل في محاولات العثمانيين المتكررة وضع اليد بشكل كلّي على الحجاز. ولا شك أن تلك المدة الطويلة لإقامته في إسطنبول قبل العفو عنه وتوليته شرافة مكة المكرمة، وقد يكون ذلك اختيار سلطاني لا مفرّ منه لترميم أوضاع الحجاز وصورة العثمانيين به بعد ما لحقه من تدهور وسلوكيات منحرفة لأعوان الإدارة والشرافة والتي كان منها ابتزاز الأموال من الحجيج[14]. كما كانت تلك الإقامة قرب دوائر الحكم العثماني فرصة لاطلاعه على التحديات التي كانت تواجه السلطان عبد الحميد الثاني وحكومته سواء من الداخل أو من الخارج وكيفية التفاعل معها ومواجهتها وبالتالي تعرفه المباشر على أساليب السياسة العثمانية[15] وهو سياق لم يتوفر للعديد من الأشراف قبله. وقد أهّله هذا الاعداد السياسي حتى لدى القوى الأوروبية لتقلّد شؤون الحجاز في تلك الفترة الصعبة من تاريخه.

الحجاز حلبة صراع بين الشريف حسين وإدارة الاتحاديين:

لقد اتبع الاتحاديون، منذ وصولهم إلى الحكم في إسطنبول، مع تلك الفسيفساء السياسية في شبه جزيرة العرب بعض مبادئ السياسة البريطانية، إذ شجعوا نوازع التوتر وانعدام الثقة بين أمراء العرب، فقد اتصلوا على سبيل المثال بالسيد الإدريسي في عسير وشجعوه على عدم التفريط في أمن إمارته إزاء التهديد الحجازي، بينما أوعزوا للشريف حسين بضرورة ضم عسير والاجهاز على إمارتها وهو ما فشل في تحقيه فعلًا. لقد كانت تلك الاختيارات الاتحادية لمواجهة روح الشريف حسين التواقة إلى تقوية نفوذه في الحجاز ومعارضته للسياسة المركزية التي بدأ الاتحاديون في انتهاجها. لقد اعتزم حسين بن علي إعادة تنظيم خدمات الحج التي كانت تعاني الكثير من التجاوزات المالية وضعف الرقابة برغبة من الولاة وأمراء مكة الذين سبقوه

مثل الشريف عون، وقد كان يهدف من وراء مثل تلك الترتيبات توسيع وتقوية شعبيته لدى سكان الحجاز أولًا والمجتمعات الإسلامية ثانيًا. وفي هذا السياق كلّف ابنيه عبد الله وفيصل برعاية قوافل الحج سنة 1909م وفرض النظام. والجدير بالملاحظة أن أسلوب الاتحاديين السياسي في الحكم قد بلغ تأثيره ولاية الحجاز بسرعة. قد يكون ذلك للتضييق على الشريف حسين الذي لم يكن مرشحهم لإمارة مكة، كما يمكن أن يكون دعمًا له بمجرد وصولهم للحكم اختيارًا اتحاديًا[16] يساعده على ابعاد المحافظين من أتباع السلطان عبد الحميد الثاني[17] الذي ظلّ يخشى طموحات الشريف حسين الاستقلالية. وقد ضبط الفرمان السلطاني الذي عين الشريف حسين أميرًا لمكة مهامه الرئيسية وهي الإشراف على الحج وضمان سلامة الموسم وحجاجه بمكة وسلامة عودة حجيج الشام الذي يضم العناصر التركية، وفضلًا عن ذلك كلف الشريف بالإشراف على «الصرة الهمايونية» ودفاترها التي تثبت توزيعها العادل وأن يبدي التعاون الضروري مع الوالي التركي[18]. إلا أن الأحداث تشير إلى ان الشريف حسين قد كان مسكونًا بنهم سياسي ساهم في توتر علاقاته بالاتحاديين الذين كانوا مصممين على سياستهم المركزية، إذ سارع إلى تجديد علاقته بقبائل الحجاز والنظر في نزاعاتهم الداخلية بما قلّص من نفوذ الوالي التركي وأعوان إدارته[19]. ويمكن اعتبار عودة قافلة حجيج الشام لسنة 1909م تحديًا مباشرًا لسلطة الشريف حسين، فقد ادعى أمير القافلة التركي عبد الرحمن باشا اليوسف أن الطريق البري غير آمن بين المدينة ودمشق واقترح العودة عن طريق البحر، إلا أن الشريف حسين رفض ذلك باعتبار أن الادعاء إشارة على عجزه عن تامين ذلك الطريق كما جاء في فرمان التسمية، وكلّف أخوه الشريف ناصر وابنه عبد الله بقيادة القافلة عبر طريقها البري المعهود الذي لم تهدده قبيلتا عتيبة وحرب كعادتهما، بينما عاد أميرها المذكور بالبحر[20]. ومواصلة لتحجيم مسؤولية الشريف حسين والحد من نفوذه على البقاع المقدسة أقدمت الصدارة العظمى على فصل المدينة المنورة عن أمير مكة المكرمة بحجة أن اتصالها قد أصبح مضمونا مع إسطنبول بعد مدّ خطوط التلغراف وسكة الحديد، لتصبح تابعة مباشرة بالداخلية العثمانية، مما يؤكد أولوية الهواجس الأمنية السياسية والخشية المتنامية من نوازع الاستقلال لدى الشريف حسين. وقد تواصل التنافس بين ولاة الحجاز وفي مقدمتهم فؤاد باشا الذي وصل الحجاز سنة 1909م وأمير مكة حول النفوذ السياسي في الإقليم كما واجه الطرف الأخير وشايات عيون الإدارة العثمانية واتهاماتها بالإعداد للتخلص من الوجود العثماني. وقد ظلت وظائف الإدارة التركية كما أرادتها المركزية العثمانية شاملة لشؤون الجند والقضاء والأحوال الشخصية وهو ما يجعلها حاضرة في حياة سكان الولاية باستمرار، بينما كان نفوذ الشريف حسين يضيق وتختنق طموحاته السياسية. ويبدو أن إقدام الشريف حسين سنة 1910م على التوجه لنجد ومواجهة أبن سعود واسترجاع نفوذه على بعض عشائر عتيبة[21]، لم يكن عملًا فرديًا من جانبه، والباحث يميل إلى أن ترتيب ذلك الحدث قد تم بموافقة السلطنة، أما الشريف حسين فقد قصد من ورائه ولا شكّ تأكيد وفاءه السياسي لها وتكذيب مختلف الاشاعات التي روج لها ولاة الحجاز وعيون إسطنبول. وإذا أضفنا جهود الشريف حسين في التسوية بين أمير عسير ابن عايض وحربه مع العثمانيين وبلوغ معاهدة 1911م، تبدو أهداف مساعيه بائنة وتهدف إلى تشكيل صورته كأمير فاعل في سياسة الحجاز ومجاوريه وصاحب رؤية سياسية من شأنها ان تطمئن العثمانيين على الولاية وتحدّ من ميلهم المفرط لولاتهم الذي يفقد إدارة الحجاز ثنائية الرأس (الوالي والأمير) التوازن والاستقرار.

لقد كان وصول الاتحاديين إلى الحكم واعتمادهم السياسة المركزية فيما تبقى من أملاك الإمبراطورية تأثيرات سلبية على إدارة الحجاز وسكانه كما هو شأن الولايات العربية الأخرى. فقد شهدت مجتمعات المشرق العربي مستجدات مهمة لاسيما في مستوى انتشار الطباعة وتطور الصحافة وسهولة السفر والانتقال مما يسّر التواصل وانتقال الأفكار الجديدة ومنها أفكار التحرر والسيادة السياسية[22]. وجراء ذلك برزت نخبة عربية منذ منتصف القرن 19م ثم جمعياتها في القرن الموالي، حملت تلك الأفكار وروجت لها في داخل البلاد العربية وخارجها. وقد كان الحجاز أحد مسارح تلك الحركة التي عرفت لاحقًا بحركة النهضة العربية، حيث نقلها الحجيج إلى مدنهم التي كانت تعج بالتجار والوسطاء، ما جعل ريبة المجتمع الحجازي الحضري ترتفع تجاه الإدارة التركية الاتحادية التي كانت تصلها أخبارها المؤلمة على يد جمال باشا السفاح في بلاد الشام مثلًا.

وفي ذات السياق أصبح الحجاز يفتقد الاستقرار الحقيقي مع العشرية الأولى من القرن 20م، سواء بفعل السياسة الاتحادية التركية التي كانت تعمل على ربطه المباشر بإسطنبول ومنع رجالاته وأعيانه وشيوخه من المساهمة الفعلية في إدارة شؤونه المحلية، أو بفعل الطموحات الفردية لبعض أشراف مكة المكرمة، كما تكثفت فيه، مثلما سنرى لاحقًا، تأثيرات القوى الأوروبية ونمت تحالفاتها مع بعض قواه السياسية والاجتماعية. ولذلك راهن الباب العالي على دور الشريف حسين في تخفيف مظاهر التوتر الاجتماعي والسياسي رغم شكوكه المتواصلة في طموحاته الاستقلالية بالإقليم، والذي ازداد الاقتناع بها منذ 1913م كما عبرت عنه رسالته إلى أخيه الشريف ناصر عضو الأعيان بإسطنبول[23]. والحقيقة أن هذا التطور في الرؤية السياسية التي تضمنت الإشارة إلى دور العرب ومكانتهم في الإمبراطورية كان منسجمًا مع ما بلغه الوعي السياسي لدى زعماء النهضة العربية التي عقدت مؤتمرها اللافت في باريس سنة 1913م. ولا نستبعد أن الشريف حسين كان مطلعًا وإن بشكل غير مباشر على بعض أفكار النهضة وخاصة فكرة اللامركزية واحترام العنصر العربي وتمكينه من المشاركة في إدارة بلاده في شكل حكم ذاتي، وهو ما كان يعمل على تحقيقه في الحجاز أولًا.

لقد دخل الوضع السياسي في الحجاز منذ هذا التاريخ مرحلة حرجة تكاثرت فيها الشائعات حول طموحات الشريف حسين في تكوين مملكة عربية أو خلافة إسلامية أدت إلى ازدياد شكوك الإمبراطورية في وفائه لها، مما جعل الباب العالي يعدّ لعزله من الامارة. لقد فكر الاتحاديون وخاصة أنور باشا وجمال باشا إلغاء نظام الشرافة[24] ، الذي أصبح يمثل بمكانته الدينية الرمزية مصدر قلق سياسي للباب العالي، كما أصبح مصدر طموحات أمرائها في الاستقلال أو على أقل تقدير الحكم الذاتي الذي لم يكن ينسجم مع مبدأ المركزية الاتحادي. كما حاول الاتحاديون تطبيق قانون الولايات الجديد لسنة 1913م على الحجاز لمنع أية معارضة للإدارة التركية. وإذا كان الشريف حسين، الذي ظلّ يذكر بوفائه لراية السلطان العثماني وأوامره لمواجهة مختلف الشائعات حول معارضته للسياسة الاتحادية في الحجاز، قد وجد الفرصة سانحة في تلك الظروف السياسية الثقيلة لجسّ نبض الطرف البريطاني فأرسل الأمير عبد الله لمقابلة اللورد كتشنر المندوب السامي البريطاني في مصر[25] للتداول في الوضع السياسي في الحجاز، وهو ما يفترض أن حسين بن على كان يجهل الأطماع الأوروبية والبريطانية خاصة في الإقليم أو كان يتظاهر بذلك بشيء من السذاجة السياسية. والباحث لا يميل إلى هذا الافتراض، إذ من غير المبرر أن يغيب على شريف مثل الحسين اقترب من كواليس الحكم

العثماني في إسطنبول، ما واجهه الحجاز منذ القرن 19م في هذا المجال، وعليه فإن التجاءه للطرف البريطاني قد ذهب فيه على دراية. وقد بلغ ثقل الإدارة العثمانية من خلال التحدي الذي واجهه الحجاز بقرار الاتحاديين تسمية الضابط الألباني وهيب باشا على الولاية بصلاحيات واسعة منها قيادة الفرق العسكرية التي أضافوا لها فرقا جديدة من المشاة والمدفعية ودمج السلطتين التنفيذية والإدارية. وكانت خطة الوالي الجديد تقضي بتحقيق مهام كبرى ومستجدة على المجتمع الحجازي وهي: إلغاء الاعفاء الجبائي الذب كان يتمتع به سكان الحجاز ومساواتهم بسكان بقية الولايات بمقتضى قانون 1913م، واعتماد التجنيد الاجباري لأبناء الاقليم واستكمال سكة الحديد بين المدينة المنورة ومكة المكرمة[26]، وبطبيعة الحال العمل على الحد من نفوذ الشريف حسين وتنقلاته، بل إن الموقف الاتحادي العثماني قد تخلّ عن فكرة إلغاء نظام الشرافة المشار إليه أعلاه، ولكنه بلغ درجة التخطيط للتخلص من الشريف حسين الذي أضاع منهم الحجاز كما ورد في إحدى رسائلهم[27].

أثارت هذه الخطة الاتحادية حالة من الرفض والفوضى في مختلف جهات الحجاز، إذ هاجمت بعض القبائل القوات التركية وحاصرت مراكزهم العسكرية بين المدينة المنورة وجدة، كما رفض مزارعي منطقة مكة المكرمة تزويد أسواق المدينة بمنتجاتهم التي تعودوا بيعها، ولقي تمديد سكة الحديد معارضة قبلية شديدة. ولم يجد تردّي الأوضاع الحلول الملائمة نتيجة اختلاف وجعات النظر داخل الحكومة العثمانية، فالاتحاديون ظلوا يعملون على عزل الشريف حسين، بينما كان رأي الصدر الأعظم سعيد حليم غير ذلك، ونبه إلى أن العزل قد يدفع فرنسا لسحب موافقتها على القرض المتفق عليه لإسطنبول[28]، وفي ذلك إحالة على أن القوى الأوروبية لم تكن قد أهملت أمر الحجاز وتطوره السياسي. وكان مشروع سكة حديد الحجاز محكًّا آخر لمكانة الشريف حسين من ناحية وحدثا أخذ من عدد من قبائل الإقليم ونمط حياتها القديم المرتبط بنقل الحجيج والبضائع بين مدن الإقليم. وقد وافقت السلطنة على بناء هذا الخط لأغراض عسكرية وسياسية بالأساس، إذ كانت الغاية المباشرة منه دعم إدارتها في الحجاز وسرعة نقل جنودها من وإلى الإقليم. أما قبائل الحجاز وخاصة قبيلتي حرب وعتيبة فقد رأت في إقامته تهديدًا لمصالحها وفي مقدمتها مداخيل نقل الحجاج والمسافرين وأمتعتهم بين المدينة ومكة أو جدة أو ينبع[29]. لقد تعود شيوخ حرب، القبيلة التي كانت سيدة الحجاز وفق رأي الرحالة بوركهارت، التفاوض مع أمراء قافلتي مصر والشام حول مقدار ما يمنح لهم مقابل سلامة مرور تلك القوافل نحو البقاع المقدسة. وقد قدرت تلك المنح ب 70 ألف « جنيه» عثماني في نهاية القرن 19م، وفي سنة 1909م بلغت حقوق مرور القافلة المصرية لأداء الحج 2511 جنيه مصري، و4248 جنيه كراء جمال النقل، و22500 جنيه قيمة حبوب القمح لفائدة مكة المكرمة والمدينة المنورة[30] وقد نجح الشريف حسين في تهدئة تلك القبائل ووافقت على انهاء مهاجماتها للخط الحديدي نحو المدينة المنورة وذلك حتى سنة 1916م. أما مواصلة الخط نحو مكة المكرمة فقد فشلت السلطنة في إنشاءه لأسباب مالية فيما يبدو أكثر منها أمنية.

مشاريع سياسية هشة: المملكة -الخلافة واضطراب السياسات:

هل كان لمشاريع حسين بن علي الظروف الملائمة والاعدادات المناسبات لنجاح الشريف حسين في مشروعه السياسي؟ وهل كان الحجاز بمدنه وقبائله قد كان مستعدا لمثل تلك المشاريع؟ مثلت شرافة مكة

قوة سياسية طمحت دوما للتوسع خاصة في عهد الشريف حسين واكتساب الشرعية الاجتماعية الواسعة إلى جانب شرعيتها الدينية الرمزية. كما شملت مسؤولياتها الدينية التاريخية ميادين مختلفة في حياة الحجازيين وكان منها الاشراف على تنظيم مواسم الحج ومراقبة إنجازها في الأماكن المقدسة، والمسؤوليات السياسية التي اهتمت بضمان أمن المجتمع الحجازي بقسميه الحضري والبدوي وجمع التزاماته المالية من زكاة وعشر وأداءات جمركية في الأسواق والتصرف فيما يبلغ الحجاز من أموال أوقاف الحرمين من العالم الإسلامي والفصل في الخصومات بين المتنازعين[31]، فضلا عن الاشراف عن توزيع حصص الصّرة العثمانية السنوية وذلك قبل أن تحضر الإدارة العثمانية في القرن 19م وتنافسهم في هذا الميدان. ومن بين مظاهر الأوضاع السياسية والاجتماعية التي طبعت تاريخ الحجاز الحديث ظاهرة التنافس على منصب الشرافة، وهي وضعية اتسمت بها الفترات المتتالية في العصر الحديث كصراعات القرن 17م بين الأشراف من بني عبد المطلب والأشراف من بني محسن، وفي منتصف القرن 18م برز التنافس بين بني بركات وبني زيد[32]، ثم اندلع التنافس في القرن 19م، بعد رد الهجوم السعودي على الحجاز في سنة 1813م، بين بني زيد وبني عون. ومع ذلك أضفى وجود الشرافة على تاريخ الحجاز الحديث طابعًا أقرب إلى الحكم الذاتي رغم مظاهر تبعيته لولاية مصر قبل أحداث الهجوم السعودي الأول على الحجاز. وكان العثمانيون مهتمين بأوضاع الشرافة وعملوا على حصر نفوذها ومهامها في المجال الديني وفي المدن المقدسة لا غير، ولم يتركوا لأمرائها إدارة الحجاز دون منافس، بل اختاروا مدينة جدة مركزًا لنائبهم برتبة سنجق، ثم حولوا الحجاز إلى ولاية عند استرجاع نفوذهم من إدارة محمد علي وأنهوا تبعية الحجاز للإدارة المصرية. وقد كان السلطان العثماني يصدر فرمانات شرافة مكة التي بواسطتها تُستكمل شرعية إمارة مكة، وبيده أيضًا عزلهم كما حصل مع الشريف عبد المطلب بعد انتفاضة سنة 1855[33]. وكثيرا ما دسوا أعوانهم وأرسلوا أوامرهم لتبقى المنافسة على ذلك المنصب متواصلة وتساعد السلاطين على التمتع بسيطرتهم السياسية ونفوذهم الرمزي، لاسيما وأن الأشراف وحتى بداية الحرب العالمية الأولى لم يعلنوا مطالبتهم بحقوق سلطوية تنتهي إلى الاستقلال عن السلطنة العثمانية[34]. وعندما قَوِيَ تسرّب الأوروبيين بمصالحهم التجارية والقنصلية في القرن 19م انضاف تأثيرهم على مؤسسة الشرافة إذ كانوا يرونها مؤسسة قادرة على مواجهة الادارة التركية في الحجاز والحد من احتكارها إدارة هذا الإقليم من ناحية، كما لمسوا نمو الطموح السياسي لدى أمرائها حتى بلغ مع الشريف حسين تصور مستقبل العرب السياسي خارج دائرة النفوذ العثماني المديد، وذلك ما يمكن أن يشكل إدارة ضعيفة تسمح للأوروبيين بالتأثير السهل والمفيد على قادتها. وضمن هذه الرؤية شُجِّعَ حسين بن علي على تقوية علاقته بالقوى الأوروبية ومحاورة البعض منها ومفاوضتها وعقد الصفقات السياسية إلى جانب العثمانيين يعقد الصفقات السياسية من أجل تحقيق طموحه السياسي الذي تبلور في مرحلته الأولى قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى في تأسيس مملكة بالحجاز. ويبدو أن رؤية الشريف حسين السياسية كانت أقرب إلى الطموح الشخصي أو العائلي منه استجابة لحالة اجتماعية واقتصادية وتاريخية مشجعة. كما أن تقدير صاحبها لأوضاع الإقليم الذي ظل يعتمد إن كثيرا أو قليلا عل الموارد والهبات الخارجية لاسيما بالنسبة لمؤسسة الشرافة ومنتسبيها لم يكن واقعيًّا، وهو ما جعل الشريف حسين قائدًا حالمًا. ووفق ما أوردته جريدة القبلة[35]، التي كانت أبرز صحف الحجاز التي تنشر ما تعلق بسياسة الشريف حسين، فإن المملكة التي كان يعمل على تأسيسها هي من النمط الاتحادي، وقد

يكون هذا التصور مستوحى من النمط الامبراطوري العثماني أو من نمط الدولة الفدرالية التي وجدت في أوروبا مثل ألمانيا أو بريطانيا، حيث يتمتع كل إقليم منها بإدارته المحلية بينما تكون الشؤون الخارجية والعسكرية مركزية. هل كان الشريف حسين يعلم أن الأوضاع السياسية الموروثة في شبه الجزيرة العربية لا تتلاءم مع الدولة المندمجة أو أن قدرته العسكرية لم تكن تسمح له بالمغامرة في تأسيس ذلك النمط أو أنه استشف من الأطراف الأجنبية وخاصة العثمانيين والبريطانيين عدم مساعدتهم على بناء ذلك المشروع؟ لقد خشي الشريف حسين ردود فعل العثمانيين والقوى الأوروبية عرقلة مشروعه السياسي فتبنى المثال الأقل استفزازًا والذي يؤكد على أنه سيكون مشروعه تحت المظلة العثمانية بما يشبه الحكم الذاتي للحجاز. هذه الصعوبات كلها لم تمنعه من مواصلة مغازلة تلك القوى واختار مرحليًّا صورة الدولة التي نشرتها جريدة القبلة.

أوضاع المجتمع الحجازي الاقتصادية والاجتماعية:

المجتمع الحجازي:

قد لا توجد منطقة في العالم القديم عرفت خلال تاريخها الطويل اختلاطًا بشريًّا مستمرًا مثل الحجاز، وذلك نتيجة التوافد المتواصل للمسلمين واختيار الكثير منهم الاستقرار بالبقاع المقدسة رغم سعي السلطات الحجازية التضييق على هذه الظاهرة خاصة منذ القرن 19م. وقد عرف هؤلاء بالمجاورين واستطاع الكثير منهم الاندماج في المجتمع الحجازي دون أن تتزعزع مكانة العنصر العربي في هذا المجال. ولعلّ من نتائج هذه الظاهرة الاجتماعية التاريخية تأثيراتها الثقافية المتنوعة لا سيما منها في ميادين اللباس والمأكولات وحتى اللغوية التي ساهمت في دخول عدة ألفاظ في اللسان العربي الحجازي وخاصة في المدن وفي مقدمتها جدة. وتحيل هذه الظاهرة أيضا على حالة التعايش التي تميز بها المجتمع الحجازي وانفتاحه على مختلف التأثرات المرتبطة بها وذاك ما أصبحت تعِدّه بحوث العلوم الإنسانية الحديثة من علامات الثراء والتوازن الاجتماعي[36]. وهذا النسيج الاجتماعي قد تميز فيه الأقليات الوافدة بخدماتها الحرفية المختلفة كالنجارة والسباكة والبناء ونقل الماء فضلًا عن امتهان التجارة والحراسة والحمالة بل وحتى الشحاتة[37].

كانت استقرار الأوروبيين في الحجاز خاضعا لضوابط قديمة مرعية تمنعهم مثلا من دخول الأماكن المقدسة إلا في صور استثنائية أو خلسة أو بتقدمهم بوصفهم من مسلمي البلاد العربية التي خضعت للاستعمار، على غرار فرنسيي الجزائر أو تونس وخاصة أثناء مواسم الحج. كما كان وجودهم محدودا في بقية مناطق الحجاز، خاصة إثر حادثة القناصل سنة 1858م، ومهما كان الأمر فمركزهم الأساسي كانت مدينة جدة لارتباطهم بالشأن القنصلي أو بالتجارة. لقد أحصى نائب القنصل الفرنسي سنة 1890م عدد الأوروبيين بجدة كما يلي: 9 إيطاليين و6 إنجليز و5 فرنسيين (ليسوا مسلمين من سكان المستعمرات) و3 مالطيين وهولندي واحد واسباني واحد وخمسون يوناني. وفي سنة 1906 تراجع عدد الأوروبيين إلى 3 أفراد هم أعوان لشركات بحرية، وفي سنة 1912م فقد كان عددهم 6 قناصل و14 يوناني[38]. ويبدو أن الوجود الضعيف للعناصر الأوروبية في جدة لم يؤثر في تجارة الحجاز نظرًا إلى أن العناصر العربية المحلية أصبحت متدربة على الاتصال القيام بشؤون التجارة عبر البحر. ولا تحيل وضعية ذلك التعايش بين تلك الجماعات (الهندية-الجاوية-التركية-المغاربة-المصرية-الشوام – التكرور وغيرها) والمجتمع الحجازي الحضري أو البدوي على

درجة ما من الاندماج، فالتنظيم الاجتماعي، الذي ظل مرعيًّا حتى قيام الدولة المركزية وأنظمتها الجديدة مع تأسيس المملكة العربية السعودية، كان يتكون من مشايخ أو كبراء تلك الأقليات التي كانت تشرف على شؤون جماعتها بما يشبه التنظيم الطائفي اجتماعيًّا وليس دينيًّا.

أما بدو الحجاز فقد قدرهم البعض ب 400 ألف نسمة مع غروب القرن 19م وبداية القرن 20م[39]، وهو ما كان يمثل ثلث سكان الإقليم. والحقيقة أننا مازلنا نفتقر إلى بحوث معمقة حول تاريخ القبائل العربية في العصر العثماني بالحجاز وأن ما أنجز، على أهميته وقلته، قد ساهم في إنتاج أغلبه الرحالة الأجانب. ولا نعتقد مجانبة الصواب إذا قلنا إن تلك الروايات حول القبائل الحجازية وبقية قبائل شبه الجزيرة العربية تندرج ضمن الرؤية الاستشراقية التي تركز على الملامح التي رآها الرحالة غريبة عنهم مثل عدم انضباط البدوي لسلطة الدولة وظاهرة الغزو المتبادل بين بعض القبائل التي تعد خروجا عن النظام، فضلًا عن تهرب تلك الجماعات من دفع الضرائب. وقد عرفت ببعض جماعات حرب وعتيبة ممارسات غزو قوافل الحج الشامية، كما ارتبطت حياة جماعات كثيرة أخرى بمواسم الحج، يوفرون جمال النقل والمنتجات الحيوانية التي يقبل عليها الحجاج وخاصة عند سفرهم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

أوضاع الحجاز الاقتصادية:

كان لافتتاح قناة السويس تأثيرات متداخلة على أوضاع الحجاز وميناء جدة خاصة، فمن ناحية شهد الوضع التجاري العام في إقليم الحجاز نشاطا أوسع وذلك إثر تطور استعمال السفن البخارية مع تطور التجارة بين موانئ البحر المتوسط والمحيط الهندي، حيث ازدادت أهمية جدة كميناء تخزين وإعادة توزيع للبضائع التي يستقبلها من الشمال والجنوب. ورغم هذا الدور المركزي في البحر الأحمر إلا أن العلاقة بين صادرات المدينة وارداتها ظلّت لصالح الأخيرة التي كان جزؤها الأكبر هو إعادة تصدير للبضائع الموردة. ومن بين البضائع الموردة التي أعيد بيعها في الحجاز وفي بقية مراكز البحر الحمر نذكر المنسوجات البريطانية والأرز الهندي والقمح المصري، وهي المواد التي احتلت المكانة الأولى في تلك العمليات التجارية[40]. إن ميناء الحجاز الرئيسي-جدة- قد شهد، على غرار معظم موانئ الدولة العثمانية، ارتفاعًا سريعًا في قيمة الواردات، إذ ما بين 1840 و1914م تضاعفت قيمة الصادرات العثمانية تسع مرات. وقد تضاعف المتوسط السنوي لواردات جدة ما بين سنتي 1850 و1900م حيث سجل نموًا بحوالي 112 % في حين تراجعت نسبة الصادرات بنسبة 90 %، وقد كان هذا التراجع محسوسا منذ سنوات 1870م[41] ولم يتجه نحو الارتفاع إلا في سنة 1890. ووفق ملاحظات نائب القنصل الفرنسي في جدة فإنه منذ 1881م أصبحت تجارة جدة بيد التجار العرب، الذين أصبح اتصالهم بالعالم الأوروبي أيسر بعد أن تطور استعمال الملاحة البخارية وفتحت خطوط تجارية جديدة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط. ومن ناحية ثانية فإن الميناء قد استعاد حيويته بعد مرحلة تراجع في وارداته حتى 1893م، فمنذ ذلك التاريخ بدأ تسارع الواردات خاصة بعد 1903م، ليتجاوز في 1908م مستواه في 1876م، أما الصادرات فكانت ضعيفة على امتداد تلك الفترة[42].

لقد كان لقناة السويس تأثير سلبي على دور ميناء جدة والذي تراجعت فيه الحركة التجارية على امتداد النصف الثاني من القرن 19م، وقد بدت تلك الحركة في استعادة جانب من نشاطها مع بداية القرن 20م. كما كان لنظام الحجر الصحي الذي فرضته فرنسا بالأساس في البحر الأحمر وخاصة على السفن

الهندية القادمة للحجاز، فضلًا عن تأثير حروب السودان ضد مشاريع الاستعمار الأوروبي المبكر في الساحل الغربي للبحر الأحمر التي أعاقت الملاحة بين ضفتي البحر مما ألحق ضررًا بمصادر تزود الحجاز التقليدية بالمواد الغذائية والرقيق[43]. ولقيت الصادرات للأسباب ذاتها، التي ضمّت عدة منتجات بحرية مثل الملح واللؤلؤ وأصداف البحر الأحمر فضلًا عن منتجات الحيوانات وخاصة الجلود والعسل والحناء، ذات الصعوبات. لقد جعلت تلك الأوضاع من الحجاز منطقة اعتمدت في حاجياتها الأساسية على الواردات، فبين 1892 و1895م كان نصف واردات الحجاز، التي تضمنت الدقيق والأرز والقمح تأتي من الهند (لبريطانية)، ومن مصر يأتي أساسًا القمح والسكر والمنتوجات الحرفية[44]. وهذه الواردات من المستعمرات البريطانية فضلًا عن المنسوجات القطنية من مصانع مانشستر توضح دور ومكانة بريطانيا في الحجاز وحضور أسطولها البحري في البحر الأحمر وذلك منذ النصف الثاني من القرن 19م وخاصة إثر تأسيس قنصليتها في جدة سنة 1837م. لقد كانت تجارة البحر الأحمر مع العالم الهندي من الأسباب القوية التي دفعت القوى الأوروبية قبل نهاية ثلاثينيات القرن المذكور إلى تأسيس قنصلياتها في جدة حيث كان المشرفون عليها ممثلين للتوسع التجاري الأوروبي.

لقد تعود الباحثون ترديد بعض المعطيات حول فقر موارد الحجاز وأهله واعتماد أغلبهم على الصرة العثمانية وبعض الإعانات الموسمية الأخرى، وهي معطيات لم تخضع لإعادة النظر والمراجعة التاريخية حتى كادت أن تصبح حقائق مسلمة لا تخضع لنسبية المعارف التاريخية. في هذا السياق نشير إلى أن الباب العالي قد كان يعتمد في الربع الأخير من القرن 19م وبداية القرن الذي يليه على بعض تجار جدة في توفير حاجيات أعوان الإدارة والجيش في ولاية الحجاز فضلا عن تزويد مخازن الولاية بالحبوب وبضائع أخرى يستهلكها أهل الحجاز عند الحاجة. فقد كان بعض أعيان جدة مثل عمر نصيف وعلي باعشن يقرضون إدارة الحجاز لإقامة بعض البناءات والمراكز الإدارية وتغطية سير أعمالها العادية التي لم تكن ميزانية الحجاز تكفي لها، فضلا عن دفع معاشات الجند والموظفين وتزويد مخازن الحكومة بما تحتاجه تلك العناصر[45]. ويبدو أن الإدارة العثمانية المركزية لم تكن توفي بالتزاماتها المالية بشكل منتظم لتجار الذين يساعدونها في الحجاز، إذ لم تدفع مثلا لمن ارتبط معها بعقود تجارية من هؤلاء التجار، فعبد الله ابن يوسف باناجه الذي التزم بتزويد فرق الجيش التركي في الحجاز بالقمح، ظلّ ينتظر أكثر من أربع سنوات دون صرف مستحقاته التي بلغت 516000 ريال (ما يعادل تقريبا 3000جنيه إسترليني آنذاك) ، واضطر سنة 1910م تقديم شكواه للإدارة[46]. ومهما يكن من أمر أنه يصعب القول بأن الربع الأول من القرن 20م كان فسحة زمنية مواتية للنشاط التجاري بشكل عام، لقد كانت تلك المدة بمثابة حاضنة تصارعت فيها نظام التبادل التجاري القديم من حيث رجالاته (الحضارم) والمستفيدين منه وخاصة الإدارة العثمانية ووسائل نقله (المراكب الشراعية أو البخارية القديمة) ونظام تجاري جديد تقلّصت فيه المصالح العثمانية وازدادت المصالح الأوروبية والهندية فضلًا عن تأرجح مدينة جدة بين وضعها القديم وبروز ضرورة انفتاحها. ولذلك شهد العديد من تجار جدة وخاصة منهم الحضارم في هذا الربع الأول عدة أزمات متتالية. ففي خلال هذه المدة القصيرة توالت أحداث كبرى منها ثورة الشباب التركي أو الاتحاديين والتي أطاحت بنظام السلطان عبدالحميد بين 1909-1908م ثم كان سير القوى العظمى نحو الحرب الكبرى واندلاعها في 1914م، وقد كان من أبرز تأثيراتها على الحجاز انطلاق الثورة

العربية سنة 1916 م والتي أنهت الوجود المباشر في الحجاز. كما ساهمت تلك الأحداث المهمة في تدهور مناخ الوجود العثماني الذي كان يمثل ضمانًا لتواصل نشاط أبرز الفئات التجارية في جدة بشكل خاص والحجاز بشكل عام.

أما عن عودة الشريف حسين إلى الحجاز بعد غياب دام ما يقارب 15 سنة فيمكن أن نتساءل عن كيفية تفاعل بعض أعيان جدة مع هذا الأمر؟ لم يتخلّ الشريف عن علاقاته العائلية مع أعيان الحجاز مثل وجهاء جدة عائلات عمر نصيف وعلي رضا وباناجه، وكان يزورها أثناء تحوله إلى جدة، كما ظلت هي في حاجة إلى رعايته لضمان استقرارها الاقتصادي والاجتماعي. وقد وجد الشريف حسين في مثل تلك العائلات الدعم السياسي والمعنوي حتى عندما أعلن الثورة وتأسيس مملكة الحجاز.

لقد شهد الوضع التجاري في الحجاز انتعاشًا مع بداية القرن 20م، فقد تطورت الواردات نحو ميناء جدة، كما تزايد عدد الحجيج بشكل ملموس وذلك حتى بداية الحرب العالمية الأولى. ومن المفيد الإشارة إلى أن هذا الوضع لم يتأثر كثيرا بوصول الاتحاديين إلى الحكم في إسطنبول، حتى وإن حاولت بعض العناصر من الإدارة التركية في الحجاز تكوين لجان اتحادية خاصة في مكة المكرمة وجدة، وعملت على دفع الوالي للقسم على الوفاء لدستور السلطنة، لقد اختار كبار التجار في جدة موقف الحياد من تلك الحركة الاتحادية لسنة 1908م، وهو ما جنب أسواق جدة ومبادلاتها مع الخارج الاضطراب أو التدهور. والجدير بالملاحظة أن الحرب العالمية الأولى قد أثرت على الحياة الاقتصادية في الحجاز وهو الإقليم الذي كانت مخزوناته من المواد الضرورية لحياة السكان صغيرة. فكما أشرنا في موضع أخر من هذا البحث واجهت التجارة مشكلة الحصار البحري الذي ضربته القوات البريطاني على الموانئ. وإثر إغلاق قناة السويس ومنع السلطات الاستعمارية كفرنسا الحج على رعاياها في الجزائر وتونس وغيرها مثلًا منذ 1915م تراجع عدد الحجيج إلى ما دون العشرة ألاف حاج في موسم 1916م، واستمرّ دون هذا المستوى حتى نهاية الحرب، وبذلك فقد اقتصاد الحجاز أحد موارده المالية الأساسية[47]. لقد مرّت التجارة في الحجاز زمن الحرب بمظاهر أزمة غير معلنة، فإلى جانب تأثيرات الحصار البحري كان إحجام الإدارة المركزية العثمانية عن الوفاء بتعهداتها المالية الموروثة لفائدة الحجاز، وانضاف إلى ذلك نقص المعادن الثمينة كنتيجة مباشرة لتقلص عدد الحجيج، مما كان وراء عدة مناوشات وتوترات بين الأهالي وفئات التجار وأعوان السلطة العثمانية، وكان من بين نتائج هذا الوضع الصعب إقدام متصرف جدة على تحديد أسعار المواد الغذائية وخاصة الأرز والقمح. وقد عبر تجار جدة عن تذمرهم في شهر أبريل 1916م من نقص عملات الدفع المعتادة، خاصة وأن الحكومة العثمانية أصبحت تسدد التزاماتها في الحجاز بالعملة الورقية العثمانية والتي كانت قد فقدت 20% من قيمتها الاسمية واتي لم يكن يقبل بها لا التجار الحجازيين ولا أعوان الإدارة العثمانية[48]. كانت هذه وراء بروز مظاهر غير شرعية مثل التحيّل وتهريب السلع وغش العملة، وهي تعابير عن أزمة اقتصاد الحجاز زمن الحرب الكبرى.

قام اقتصاد الحجاز منذ أقدم العصور على ثلاث قواعد متكاملة وهي التجارة ومواسم الحج واقتصاد البادية بما كان يوفره من منتجات حيوانية متنوعة. ولم تكن هذه الموارد تغطي حاجيات السكان أو تمكنهم من إقامة مخزونات معتبرة كما يحدث في جهات أخرى من المحيط الحجازي، إلا أن مكانة الحجاز الدينية

جعلته يتمتع بإعانات مالية معتبرة وبشكل دوري وعلى رأسها موارد «الصرة» وأوقاف الحرمين التي انتشرت في مختلف جهات العالم الإسلامي. ومع سيطرة المناخ الصحراوي في أغلب جهات هذا الإقليم فإن ذلك لم يمنع من بروز جيوب زراعية متناثرة في شكل واحات في بطون الأودية والأحواض كواحات منطقة المدينة المنورة. لقد وفرت هذه المراكز الزراعية التمور الحجازية التي كانت كميات منها تبلغ أسواق مكة المكرمة وجدة بينما ستهلك كمياتها الأخرى في القرى والبوادي المحيطة بمراكز إنتاجها. أما منطقة الطائف فهي عالم زراعي فريد بمناخها الرطب نسبيا وتنوع منتجاتها وخاصة منها غلال الصيف مثل أنواع من العنب والتين، مما جعلها مصيفًا للكثير من عائلات مكة المكرمة وجدة وبقية مدن الحجاز. وإذا كانت التجارة من أقدم الأنشطة التي عرفها إقليم الحجاز بنوعيها الداخلي والخارجي، وكانت الأقلية الهندية من أكثر الجماعات نشاطًا في هذا الميدان في مدن الحجاز وذلك بفضل المواد التقليدية التي تخصصت في جلبها لأسواق الحجاز ومنها التوابل والطيب والمنسوجات القطنية والتي كانت تحتلّ مكانة مهمة في هذا النشاط، وقد تمكن بعضهم من تأسيس علاقات تجارية متينة مع تجار جدة والمدن المقدسة وخاصة منهم التجار ذوي الأصل الحضرمي والذين استقروا بأكبر مدن الحجاز منذ نهاية القرن 18م ونشطوا في تجارتهم مع بداية القرن الموالي[49]. والحقيقة أن النجاح التجاري ومراكمة الأرباح في الحجاز وخاصة لدى التجار الهنود لم يخل دائما من العيوب التي نتجت عن ممارسة حيل فقهية مثل المرابحة، كانت معروفة في مختلف أسواق العالم بما فيها العالم الإسلامي[50]. لقد كانت تلك الحيل تغطّي شبهات الربا الذي بلغ حسب تقديرات البعض وفي مركز إسلامي كمكة المكرمة 50%[51].

أما فئة التجار الحضارم في جدة فقد شكلت جماعة لها صيتها التجاري منذ منتصف القرن 19م وحتى منتصف القرن 20م. لقد أشار الوالي العثماني على أن التجار الحضارمة قد شكلوا أغلبية التجار أصحاب الصيت الذائع في جدة ومكة المكرمة، نظرًا لأهمية ثرواتهم واتساع تجارتهم[52]، بعد أن جاؤوا من منطقة يمنية نائية وعرفت بفقر سكانها.

أما الحجازيون الذين ارتضوا ترك البادية واستقروا قرب مدن الحجاز كجدة والطائف والمدينتين المقدستين فكان مورد عيشهم من تأجير إبلهم للنقل بين تلك المدن، كما نشطوا في جلب منتجات الحليب والزبدة والعسل والتمور واللحوم والصوف، خاصة في موسم الحج، من البوادي التي ظلّوا مرتبطين بها بتلك الوساطة المفيدة مع أسواق المدن المذكورة.

لقد أثرت الحرب الأولى وخاصة سنواتها الأولى في اقتصاد الحجاز الذي كان يعتمد في تزوده بحاجياته الغذائية المتنوعة على استيرادها من بلاد الساحل الغربي للبحر الأحمر (لحوم) ومن مصر والشام (حبوب وغلال) ومن الهند بقية الحاجيات وخاصة الأرز الذي تحول تدريجيا منذ القرن 19م إلى صدارة الاستهلاك الغذائي خاصة في حواضر الحجاز. أقامت بريطانيا عند اندلاع الحرب، ودخول الاتحاديين إلى جانب معسكر ألمانيا والنمسا، حصارًا على موانئ الإمبراطورية في المتوسط كما في البحر الأحمر[53]. وقد كادت حركة السفن تتوقف في مناء جدة أهم موانئ الحجاز، والحقيقة أن الاتحاديين لم يستشرفوا هذا الوضع الخطير سواء بتوفير الكميات الضرورية للمجتمع الحجازي من الأغذية وخاصة الحبوب وتخزينها تحسّبا للحصار، أو باتخاذ موقف الحياد في الحرب، بل ظلّوا يدفعون الشريف حسين لإعلان الجهاد وإدخال الحجاز في أتون تلك

الحرب. أما بريطانيا فقد كانت تخشى إثارة مشاعر المسلمين وخاصة في مصر والهند عندما توقفت سفرات الحج أو كادت، لذلك أعلنت في شهر ديسمبر 1916م، أي بعد أن تحققت ثورة الشريف حين ضد الأتراك ودخوله الحرب إلى جانب الحلفاء، استثناء ميناء جدة رغم أنه ميناء في ولاية عثمانية من الحضر العسكري مبررة ذلك بقربه من الأماكن المقدسة، وبالتالي سمحت للسفن التجارية بالرسو فيه وعودة تزويد الحجاز بما كان يحتاجه من بضائع[54]. والباحث يلتقي في الرأي مع من يذهب إلى أن الشريف حسين كان وراء ضرب ذلك الحصار البريطاني على ساحل اليمن والحجاز حتى ميناء جدة ومنع وصول المراكب الهندية الافريقية من التعامل معه بهدف إثارة السكان ضد الدولة العثمانية[55]. وقد عادت الحركة التجارية إلى جدة والحجيج إلى البقاع المقدسة، إلا أن تدفقها كان ضعيفا لتواصل الماليات العسكرية في البحر المتوسط والمخيط الهندي ولارتفاع أسعار النقل جراء تلك الأحداث. وقد لعبت جريدة القبلة دورا بارزا في دعوة التجار والحرفين لمقاومة الكساد الاقتصادي الذي فرضته الحرب على البلاد، كما كثفت دعايتها للنهضة العربية والاستقلال الذاتي عن الأتراك[56]. وكانت إدارة الحجاز تدرك، من خلال تاريخ الإقليم، مكانة النشاط التجاري وأهميته لا لمدينة جدة فقط بل لمختلف فئات سكان الحجاز، فأقدمت على تأسيس غرفة للتجارة في أكتوبر من سنة 1916م بمدينة جدة كان برنامجها تشجيع وتنظيم النشاط التجاري ودفع التجار إلى تأسيس الشركات التجارية. وقد حاول تجار جدة إعادة الحيوية لأنشطتهم وعلاقاتهم مع وكلائهم في مصر واليمن والهند وغيرها من المناطق التي كانت تنشط في وارداتها لأسواق الحجاز. وفي هذا السياق تأسست الشركة الوطنية سنة 1916م وأصبحت شركة مساهمة تحقق أسهمها أرباحًا مغرية في زمن محدود. وقد عادت أسواق جدة ومكة المكرمة قبل انتهاء الحرب العالمية تعج بالسلع المستوردة مثل القهوة والتوابل والطيب الأقمشة القطنية والأدوية ومعدات المنازل فضلًا عن المنتجات الزراعية مثل العسل والسمن والحبوب وخاصة الأرز. وقد ضمنت تلك الواردات حاجيات سكان الحجاز والحجيج الوافدين إلى البقاع المقدسة، بعد أن عاد نسق الاستيراد لا سيما من الهند ومصر[57] إلى سالف وضعه قبل اندلاع الحرب والحصار. والملاحظ أن السفن الناقلة لمعظم تلك البضائع كانت ترفع العلم البريطاني مما يؤكد أن البحر الأحمر أصبح بموجب سير أحداث الحرب تحت السيطرة البريطانية وأن تسيير السفن بين مصر والهند هو مظهر ملاحي احتكاري بين مستعمرتين بريطانيتين، كما ظلّت مراكب الحجازين الصغيرة وخاصة السنابك على سالف نشاطها التجاري بين موانئ الحجاز مثل رابغ والليث وضبا وجيزان وغيرها لكن نسقها كان ضعيفا[58]. ويمكن تفسير استعادة الوضع التجاري بالحجاز بعض نشاطه بعد 1915م بسيطرة حكومة الحجاز على أهم موانئ الإقليم وضمان بريطانيا الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي في سنوات الحرب.

السير نحو القطيعة مع العثمانيين:

كانت العشرية الأولى من القرن 20م سنوات إنهاك الإمبراطورية العثمانية ثم الاجهاز عليها في الحرب العالية الأولى. لقد تخللتها داخليا ثورة يوليو 1908م ثم صعود الاتحاديين إلى الحكم واعتمادهم سياسات قهرية فيما بقي من الولايات العربية مما أذكى روح العداء لدى العرب ضد الإدارة التركية وقوانينها الجديدة. غير أن هذا الوضع لم ير فيه الاتحاديون أمرًا نهائيًّا ولا يمكن التسلل إليه، ذلك أن إحدى الرسائل التي وقعت تحت يد الشريف من بين محتويات المحفظة المفقودة للوالي وهيب وهو في طريقه إلى المدينة المنورة، كانت

تتضمن عرض طلعت باشا وزير الداخلية التركي ارسال ما يحتاجه من نقود لشراء ذمم بعض شيوخ القبائل[59]. أما خارجيًا تصاعدت ضغوطات القوى الأوروبية ودعمها لبلوغ حركات الانفصال أهدافها الاستقلالية. لم تكن الولايات العربية الشرقية بمعزل عن تأثير تلك الأحداث، فالقوى الأوروبية أولت اهتمامها إلى تفاهمات التقسيم السري لبلاد المشرق قبل الإعلان عن ذلك سنة 1916، كما انطلقت في مباحثاتها مع حكومة الحجاز لسحب القاعدة الرمزية الثمينة-حماية الحرمين الشريفين- من تحت أقدام السلطان العثماني بإعلان الانضمام إلى معسكر تحالف فرنسا وبريطانيا في يونيو من ذات السنة. والحقيقة أن إدارة الحجاز خلال سنوات -1909 1915م كانت مليئة بالتوتر السياسي بين الإدارة المركزية العثمانية وخاصة عناصرها الاتحادية وفي مقدمتها طلعت باشا وزير الداخلية وأنور باشا وزير الحربية، وبين الشريف حسين الذي كان يجيد المراوغة والغموض في التعبير عن طموحاته السياسية. وكان من أبرز قواعد الاختلاف في هذه الفترة أن الاتحاديين كانوا يريدون الخروج بالدولة العثمانية إلى دائرة القومية التركية تأثرًا بالأفكار الأوروبية في هذا الميدان، فدول أوروبا مثل فرنسا وألمانيا وايطاليا أنشأت دولها الحديثة على قاعدة القومية، بينما كان الشريف حسين يريد أن يجعل من الحجاز نواة لدولة إسلامية تضم العرب أولا وبقية الأقليات بما يحيل عل مملكة متعددة الأعراق. وكان يجد في دعوة الجامعة الإسلامية وإعادة إحياء الخلافة وفق المبادئ السياسية التي قد تسهم في تجميع الناس حول مثل ذلك المشروع، لكنه لم يقدر كفاية الوضع الاجتماعي في الحجاز الذي كان يضم جماعات قبلية قوية مثل حرب وعتيبة وغيرها وحواضر تعج بأصناف الوافدين من مختلف أصقاع الدنيا تشدها إلى بلاد الحجاز التجارة وزيارة الأماكن المقدسة. لم يتمكن الاتحاديون من فرض سياستهم في الحجاز وخاصة منها قانون سنة 1913م والتي وجدت معارضة شعبية واسعة من البدو كما الحضر بدت ظاهريًا بانها مساندة لرفض الشريف حسين لها أيضًا، والحقيقة يبقى التساؤل قائمًا حول من ساند من؟ لكن ما يجب الإشارة إليه هو أن غيوم الحرب وطبولها والسير الحثيث نحوها في صيف 1914م كان قد خفف ضغوط الاتحاديين عن الحجاز وأشرافه نظرًا لالتزاماته الدولية وقرار حكومة الاتحاديين السريع الدخول فيها إلى جانب معسكر المحور بقيادة ألمانيا. وتعترف فرنسا قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى أن المناطق التي لا تحاذي البحر الأحمر كانت غير خاضعة للنفوذ العثماني، وأنها من المناطق التي شملتها الحماية البريطانية[60]. أما المناطق التي ظلّت تابعة للنفوذ العثماني فهي بلاد الحجاز والجزء الجنوبي من تهامة، أما اليمن فإن أوضاعها السياسية وخاصة في القرن 19 لا تسمح بتأكيد تبعيتها المستقرة والمتواصلة للإدارة العثمانية. ففي أقصى جنوبها توجد شبه جزيرة عدن التي أصبحت من ممتلكات بريطانيا وقبالتها وراء مضيق باب المندب تمتدّ جيبوتي والتي تحولت لتبعية فرنسا منذ سنة 1868[61]. وتمسح هذه المناطق المحاذية للبحر الأحمر تقريبا 500 ألف كم2 ويسكنها ما يقارب المليون فرد.

أهداف السياسات الصحية الأوروبية: تطبيب الحج أداة خفية للنفوذ الأجنبي في الحجاز بعد مؤتمر باريس 1903:

في القرن 19م لم تعد استعدادات الحج ومجرياته شأنا مخصوصا بيد الإدارة الإسلامية في مختلف مراكزها مثل إسطنبول والقاهرة ودمشق وجدة وغيرها. لقد غيرت الحركة الاستعمارية والملاحة البخارية والعناية الصحية بشكل عميق ظروف الرحلة نحو مكة المكرمة للقيام بهذا الركن الديني. فأصبحت

استعدادات السفر لهذا الغرض والقيام به يخضع لأجهزة إدارية تسير نحو استعمال الأساليب الحديثة من ذلك مراقبة التدفقات البشرية على الحجاز من مختلف الجهات وخاصة منها عبر البحر الأحمر، وإحصاء تلك التدفقات والعمل على ضبط هويات القادمين لأداء هذه الفريضة باعتماد جواز الحج، والأكثر أهمية ربما كانت إجراءات الحجر الصحي وتوفير المراكز الصحية وخاصة في مدينتي جدة ومكة المكرمة ومتابعة أوضاع الحج العامة عبر المؤتمرات الصحية[62]، وذلك لتطويق أوبئة الطاعون والكوليرا. وما إن حلّ القر 20م حتى تغيرت بشكل محسوس ظروف الحج.

استمرت مسألة الصحة في الحجاز وخاصة في مواسم الحج تمثل موضوعًا متداولًا بين القوى الأوروبية وميدانًا للتنافس والمزايدات والاتهامات، لكن جانبها الأكثر غموضا هي أنها شكلت مدخلا لنفوذ التأثيرات الاوروبية وإملاءاتها على الإدارة العثمانية المحلية والمركزية. وذهب بعض البحوث إلى أن السياسة الصحية الأوروبية الصارمة الخاصة بمواسم الحج، والتي حولت الحجاز إلى «محمية صحية جديدة»[63] والتي كان من أبرز دوافعها حماية أوطانها من انتقال الأمراض المعدية من الحجاز، أنها قد بدأت تحقق نتائج إيجابية. لقد قدرت الجهات الطبية الفرنسية المختصة استبعاد خطر الطاعون سنة 1903م في الأماكن المقدسة بالحجاز، وكانت فرنسا تؤكد من خلال قنصلها بجدة أن تلك النجاحات تعود إلى احتياطات النقاط الصحية في جزيرة كمران التي كانت قد اعتمدت كحاجز أساسي في المدخل الجنوبي للبحر ألأحمر[64]، نظرًا لأن الاتفاق قد حصل بين مختلف الأطراف وخاصة منها الأوروبية بأن مصدر الأمراض المعدية هي الهند وجزرها التي كانت تحت الاحتلال البريطاني. أما بريطانيا فقد ظلت حتى بداية العالمية الأولى وتحت ضغط رعاياها الهنود لا تثق في جدوى الإجراءات الصحية في محطتي طور في شمل البحر الأحمر وكمران في جنوبه التي تدافع عنها فرنسا. وفي الأرض الحجازية تعرض الباب العالي لنقد قناصل فرنسا بسبب غياب محطات الحجر الصحي وضعف التجهيزات والطاقم الصحي التركي بالأساس ومحدودية الأماكن المخصصة للمصابين، تتغير ولم تشهد تلك الوضعية تغيرا ملموسا حتى افتتاح سكة حديد الحجاز، وفي سواحل جدة وزعت محطات الحجر على جزر أبو علي وأبو سعد والوسطى والتي كان ينتظر منها أن تكون الحاجز النهائي للكوليرا قبل وصول الحجيج إلى جدة، وفي الاتجاه العودة كان عدد الحجيج الكبير يؤدي غالبًا إلى السماح للمصابين بصعود المراكب والمغادرة كما حصل سنة 1908[65]. ولم يكن العثمانيون يجهلون ما وراء ذلك الإصرار الأوروبي على الإجراءات الصحية واستغلال ركنًا أساسيًّا لدين المسلمين من أجل أغراض توسعية، فلم يدخروا جهدا في تحسين الظروف البيئية خاصة بجدة ومكة. فخلال النصف الثاني من القرن 19م وإثر وباء 1865م أُنشأ في منى حفر ضخمة لطمر بقايا الأضاحي وخزانات للماء في مكة، وفي سنة 1878م أنشأت في منى مسالخ جديدة للأضاحي كما موّل قصر يلدز عمليات تنظيف شوارع مكة وجدة، غير أن تلك الجهود لم تكن كافية لمواجهة خطر تجدد ظهور وتفشي الأوبئة في 1893م. أما الاهتمام العثماني بتشييد المستوصفات والمستشفيات فقد كان شبه غائب إذ لم يكن في مكة في بداية القرن20م غير مستشفى يسع 20 سريرًا ومقرًا صغيرًا آخرًا مخصص للمصابين بالكوليرا[66]. ولئن أنشأت حكومة الشباب التركي، في سياق توجههم لإعادة مركزية النفوذ العثماني في الولايات العربية، مجلسًا صحيًّا بالحجاز سنة 1910م لإعادة السيطرة على الإدارة الصحية بمدن الإقليم لكنها خطوة أعوزتها الموارد والاستمرار. ولا يجب أن يتواصل عرض هذه اللوحة القاتمة، دون الإشارة إلى بعض الشهادات

التي نوهت بنظافة جدة ومكة المكرمة في فترات متتالية. فقد أشاد الرحالة دي كورتالمون عند زيارته سنة 1894م لمكة بنظافة شوارعها[67]، وفي سنة 1904 عبر السيد جيوت (Gillotte)عون إدارة بادية عين تموشنت (الجزائر) عن دهشته لنظافة جدة وأناقتها[68]. ورغم الأحداث السياسية المتتالية والمناورات الأوروبية المعقدة فإن القوى الأوروبية لم تبلغ حدّ بسط الحماية السياسية على الحجاز لأكثر من اعتبار، لكنها حولت هذا الإقليم حتى نهاية حكم العثمانيين والأشراف إلى ما يشبه المحمية الصحية بما فرضته من قوانين للحجر الصحي والمراقبة المتواصلة ومتابعة القناصل لتلك الإجراءات فضلًا على الانتقادات الدائمة لتقصير الإدارة التركية في الحجاز في هذا الميدان سواء حقا أم اتهاما وضغط الحكومات الأوروبية المركزية على إدارة الباب العالي للمساهمة في تطويق أوبئة الأمراض المعدية وخاصة الكوليرا والطاعون. ومن ناحية ثانية كي تمنع مدن الحجاز وخاصة جدة من إعادة توزيع تلك الأمراض نحو مستعمرات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ومن ثم إلى المجتمعات الأم لتلك الدول. ورغم ذلك الاهتمام الأوروبي بالمسألة الصحية في مواسم الحج فإن كل من فرنسا وبريطانيا ظلت في حيرة حول المدة الوجيزة التي كان يقضيها الحاج الهندي والجزائري والتونسي وغيرهم في الحجاز وهو لا يخضع لمراقبتها الأمنية والسياسية، ذلك أن إقليم الحجاز لم يكن يوفر لها تلك الخدمات، فضلا عن أن سلطاته لم تكن تمتلك إمكانيات رقابة الحجاج السياسية. وكان على قناصل تلك الدول أن تتحول إلى محطة ضرورية للنظام الاستعماري في ظل ذلك الوضع، بل قد كانت على تلك الدول والعثمانيين أيضا (القناصل والوالي العثماني) أن يتصرفوا بمرونة كبيرة مع القوى المحلية وخاصة شريف مكة وشيوخ قبائل الحجاز التي عرفت بقلة انضباطها لنظام إداري يحدّ من حرية حركتها ومنعها من التمتع بموارد خدمات الحج التي كانت تمثل لبعض عشائر قبيلة حرب أهم مداخيلها السنوية[69].

الحجاز والحرب الكبرى:

أصبح الحجاز بإعلان الدولة العثمانية دخولها الحرب في شهر نوفمبر 1914 م من الجانب القانوني منطقة معادية لفرنسا وبريطانيا، ولذلك بدأت هذه القوى سياسة التدخل المباشر وتستأثر من مزايا الدولة العثمانية في الحجاز، ومنها تنظيم محمل الحج برعاية بريطانيا وفرنسا، وتقديم المساعدات للحجاج الذين افتقروا إلى تغطية مصاريف عودتهم لبلدانهم. وقد كانت فترة حكم الشريف حسين بمثابة زمن انتقالي لوضع جديد في الحجاز خاصة وأن الشريف حسين قد أبدى نوازع سياسية لم نكن القوى الكبرى وفي مقدمتها بريطانيا تأخذها في الحسبان.

أن الوضعية العسكرية التي كانت عليها فرق الجند العثماني في الحجاز واليمن وعسير وغيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية كانت تفتقر إلى التجهيزات العصرية المناسبة والعدد المطلوب من العساكر فضلًا عن استمرار مستويات التدريب والتخطيط العسكري التي يصعب مقارنتها بأوضاع الجيوش الأوروبية. لقد كانت تلك فرق الجند العثماني في الحجاز أقرب إلى الفرق الأمنية التي كانت أبرز مهامها تتلخص في فرض النظام التركي ومساعدة الوالي على أداء مهامه المدنية، إما إمارة الأشراف فلم تحتكم على فرق أهلية عسكرية بالمعنى الدقيق قادرة على الحرب ومواجهة الجيوش الحقيقية. وفضلًا عن ذلك فإن أوضاع الحجاز الاقتصادية آنذاك لم تكن تسمح له بإعداد مخزونات من المؤن والماء والعتاد الحربي لحروب دولية كتلك التي نشبت في 1914م. هل كانت هذه الأوضاع غائبة عن التفكير الاستراتيجي العثماني؟ أم تكن الإدارة المركزية وخاصة منذ

أن أصبحت اتحادية تقدر المكانة الجغرافية الاستراتيجية لولاية الحجاز؟ ألم تكن تستخلص الدروس من احتلال القوى الأوروبية لبعض ولاياتها العربية حتى ذلك التاريخ وهي الجزائر وتونس ومصر وطرابلس الغرب، تلك الولايات التي كانت تفتقر إلى التجهيز العسكري الضروري للدفاع عن مجالها ومجتمعها؟ لن نسترسل في إثارة الأسئلة التي وإن حاول البعض تناولها بالبحث إلا أنها تبقى في حاجة إلى زيارة جديدة تسلّط عليها الأضواء الضرورية، لكننا وبشكل اختزالي نعتبر أن الحجاز لم يكن مستعدّا للمشاركة في حرب قوى استمرت تتصارع على اقتسام ما تبقّى من مجالات في العالم ومنها بلاد المشرق العربي وشبه جزيرة العرب.

بعد أشهر قليلة من بداية الحرب أعلن الاتحاديون دخولها إلى جانب حليفهم الاقتصادي والعسكري ألمانيا في بداية نوفمبر 1914م، والباحث لا يتفق مع من ذهب إلى أن هذا الحدث دفع بريطانيا لفتح باب التفاوض مع الشريف حسين[70]، إذ أن كتشنر وزير الحرب البريطاني الذي أذن في أكتوبر 1914م بالتقصّي عن موقف الشريف حسين من الحرب كان قد استقبل الأمير عبد الله عنما كان مندوبا ساميا في مصر للتشاور حول وضع الحجاز والاتحاديين. كان وعود بريطانيا للشريف حسين سخية فقد تضمنت مراسلتها السرية له الوقوف إلى جانبه في تأمين مستقبله السياسي ومساندها في رد أي عدوان على بلاد العرب وكان بذلك المقصود (بلاد الحجاز) كما تضمنت الرسالة عدم تدخل بريطانيا في شؤون الحجاز الداخلية وهي أيضا تدعمه إذا ما بويع بالخلافة[71]. تكشف هذه الرؤى أن سواء بين ممثلي بريطانيا أو الاتحاديين أو فرنسا تركزت حول ضمان المصالح السياسية الشخصية لشريف مكة وعائلته بينما بدا عالم قبائل الحجاز وحواضره غائبًا أو في أفضل الحالات مهمشًا، وهو ما يؤشّر إلى أن شؤون الحكم والسياسة ظلّت من اختصاص النخبة في زمن تجاوزت فيه تجارب دول عديدة هذه المرحلة. بل إن الشريف حسين اعتمد مصالح الحجاز في السلم والاستقرار وكولاية عثمانية لتبرير موقفه بعدم إصدار إعلان بالجهاد لعموم المسلمين ضد بريطانيا وحلفائها، إذ تذرّع بأن ذلك قد يثير بريطانيا و»سيملأ أسطولها سواحل الحجاز ويحاصرها وقد يقصفها بمدفعيته، فيدفع أهل البلاد عن طريق الخوف والمجاعة إلى الثورة ضده»[72].وه نا نتساءل هل تعرض شريف مكة إلى ضغوطات قاسية تعلّقت بتزوّد الحجاز على العادة بحاجياته الغذائية الأساسية والملحة في السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى؟ كانت الخطة البريطانية في هذه الفترة قد تضمنت محاصرة سواحل الدولة العثمانية في البحرين المتوسط والأحمر مستثنية منها سواحل الحجاز، ليس رأفة بسكانه ولكن تأكيدا للمسلمين صداقة بريطانيا التي لا تسمح بالتلاعب بمصالحهم وخاصة استمرار مواسم الحج وتواصل تدفق الحبوب من مصر والشام والسودان والهند. لم يكن إعلان العثمانيين الدخول إلى الحرب ضد معسكر التحالف الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية) ودعم وجودها العسكري في الحجاز الدافع الوحيد والأساسي للضغط على شريف مكة للتخلي عن «حياده» والالتحاق بالمعسكر المذكور. كانت السياسة البريطانية الحجازية مثلما سنتناول ذلك لاحقا قد أعدّت منذ سنوات ما قبل الحرب صياغة علاقتها «الودّية» مع شريف مكة دون استفزاز الإدارة العثمانية في إسطنبول، ولم تكن وضعية الحصار ودخول الشريف إلى الحرب غير الخطوة الأخيرة في ذلك المسار، الذي كانت معظم محطّاته سرية كمراسلات حسين/ مكماهون سنة 1915م ومعاهدة سايكس بيكو سنة 1916م. ويحب ألا نسهو في هذا السياق عن تأثيرات سياسة الاتحاديين في الحجاز حيث حاولت

إذكاء التنافس السياسي بين أمراء الأشراف إذ استقدموا الشريف على حيدر من إسطنبول ليحل على رأس الشرافة محل ابن عمه الشريف حسين بن علي وهو أمر غذى ريبة هذا الأخير في الطرف التركي[73].

الثورة العربية الكبرى (ثورة الشريف حسين) 1916م:

منشور الثورة: «إن الاتحاديين خرجوا على العهد الأخوي بين الشعبين، رغم المعونة الصادقة التي بذلها العرب في ظل الخلافة، وخرجوا عن الشريعة فبدّلوا الأحكام، وشنقوا أحرار العرب جماعات وفرادى، وشرّدوا أسرهم ونفوها من أرضها، وصادروا الأموال، وقد نصحنا فلم ينفع النصح، وقد وفقنا الله لأخذ الاستقلال فضربنا على أيدي الاتحاديين، وانفصلت بلادنا عن المملكة العثمانية انفصالًا تامًا، وأعلنا استقلالًا، لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية، ولا تحكم خارجي، جاعلين الغاية نصر دين الإسلام، وإعلاء شأن المسلمين، مستندين في كل أعمالنا على الأحكام والقضاء»[74].

سوف نكتفي ببعض ما تناقلته الصحافة الفرنسية من أخبار ثورة الشريف حسين وخاصة مساهمة القبائل المساندة له في ذلك الحدث. ولا يفوت الباحث أن يشير إلى أنه تلك الأخبار وإن كانت مصادرها الصحافة المحلية وخاصة القبلة أو مراسلات أعوان القنصلية الفرنسية إلا أنها قد تكون كيفت من الناحية العسكرية لتنشر أجواء إيجابية عن حالة الجيش التركي في الحجاز.

شكلت قبيلة حرب القوة الداعمة للفرق العسكرية للشريف حسين عند إعلانه الحرب على الجيش العثماني في الحجاز. كانت القبيلة تعد 35 ألف خيمة و175 ألف فرد. وقد تطورت مع عشائرها العديدة داخل المجال الذي تقع فيه المدينتان المقدستان وهذا المجال هو الذي كان المسرح الرئيسي للحرب»[75]. ونقلت ذات الصحيفة، المهتمة التوسع الفرنسي وبالسياسة الخارجية، أن الأخبار من مكة المكرمة إلى أن « حرب القبيلة العربية الكبرى، التي كانت قد التحقت بحركة الشريف حسين، قد حققت العديد من الانتصارات على الأتراك وفي آخرها فرّ الأتراك في حالة فوضى مخلفين وراءهم العديد من الأسرى... كما تعرضت قافلة تركية عسكرية بقيادة أشرف باي إلى هجوم البدو الكاسح شمال المدينة المنورة حيث استحوذ المهاجمون على عدد كبير من الجمال والخيول وكميات ضخمة من المؤن والذخيرة ومدفع ومقدار معتبر من الأموال كما بلغ عدد أسرى الأتراك 34 أسيرًا... لقد نجحت القبائل العربية التي ساندت الثورة في مهاجمة الأتراك من جهات متعددة وأربكت اتصالاتهم إلى درجة يصعب استحالتها»[76].

لا شك أن إعلان حدث مثل ذلك الحدث قد أخذ الكثير من المشاورات، لكنها مشاورات وفق ما يتوفر من معلومات وأخبار إلى حدّ الآن عن هذا الحدث ذات اتجاه أحادي. وحتى لا نسقط في تكرار معطيات معروفة فنشير إلى أن بريطانيا كانت الطرف الأساسي الذي تداول مع الشريف حسين حول الخروج عن العثمانيين. لقد كانت بريطانيا تفاوض الشريف حسين مستهدفة غايتين الأولى دفع الشريف حسين دخول الحرب بجانبها وحلفائها وبالتالي إثارة مزيد من الصعوبات أما القوات العثمانية في المنطقة الحجازية والعربية من ناحية، والاستفراد ببرنامجه السياسي حتى لا يتحقق في شكل مملكة ولا خلافة خارج مجال الحجاز وإن بشكل مؤقت في انتظار ما يستجدّ من أحداث. وما يهمنا الإشارة إليه أن إعلان الثورة لم تغير في وضع الحجاز السياسي عدا أنها حولته من ولاية عثمانية إلى حليف دول التحالف. وقد اكتشف الشريف حسين وأبناءه في مؤتمر السلم بباريس سنة 1919م من التخطيط الخفي لأولئك الحلفاء في المشرق العربي، بينما ذهبت أهداف ثورة الشريف أدراج

الرياح. والحقيقة أن جيش الحجاز قد أبلى وكبد الفرق العثمانية الكثير من الخسائر وأجبرها على التراجع في اتجاه شمال الحجاز ثم خارجه. فوفق الصحيفة الفرنسية رسائل الشرق في إحدى نشراتها التي اعتمدت في أخبارها على ما كانت تنشره جريدة القبلة الحجازية فإن القوات الحجازية «دحرت قوات العدو التي استولت على المويلح وأوقعت بها عددا كبيرا من الأسرى...واستحوذت على ضبا. أما العدو فقد تراجع في اتجاه تبوك على خط الحجاز. كما كان لقواتنا مواجهة مع العدو في المنجور، وقد ظل التفوق لقواتنا التي أوقعت بعض الأسرى واستحوذت على 100جمل»[77] . ونقلًا عن صحيفة القاهرة تحدثت رسائل الشرق الفرنسية عن سيطرة الجيش الحجازي على المدينة المنورة وابطال سير خط الحديد بينها وبين دمشق، «وكانت قبائل الشمال (الحجازي) التي كان بحوزتها القنابل قد فجرت جسرًا به 32 عقدة ودمرت 5 كلم من قضبان السكة...وكانت تلك الخطة ضرورية لإضعاف مقاومة المدينة التي يمثل استرجاعها مسألة حيوية لمملكة الحجاز»[78]. وقد لعبت قبيلة حرب دورًا رئيسيًّا في «حرب الاستقلال».

انتصار ابن سعود وضم الحجاز:

لم يكن الصراع بين ابن سعود في نجد وأشراف الحجاز مستجدًا في القرن 20م بل تذهب جذوره في الزمن الحديث بعيدا، وكانت السيطرة على البقاع المقدسة والوصول إلى واجهة البحر من دوافع اتجاهات التوسع السعودي نحو الحجاز، لذا كان عليهم مواجهة العثمانيين والأشراف والبحث المتواصل عن الحلفاء في صفوف القبائل الحجازية وأمراء عسير وحائل وغيرها من القوى المحلية في شبه الجزيرة العربية. وقد شكلت المسألة النجدية وصراعات الأخوين أبناء فيصل بن تركي الأمام عبد الله والأمير سعود ثم أبناءه حتى سقوط الدولة السعودية الثانية سنة 1890م هاجسًا للإدارة المركزية العثمانية فتابعت تطوراتها عن كثب ضمانًا لتواصل نفوذها في الحجاز[0]. ويمكن تقسيم علاقة الأشراف وولاية الحجاز مع ابن سعود في نجد إلى ثلاث مراحل، الأولى قبل الحرب العالمية الأولى والثانية أثناء تلك الحرب والمرحلة الثالثة ما بعد الحرب الي أجهزت على الدولة العثمانية.

لقد لخص المؤرخ علي الوردي جانبًا من الصورة السياسية والاجتماعية لشخصيتي الشريف حسين وعبد العزيز ابن سعود بشكل يسلط الضوء عن تباينهما السياسي بقوله: "إن نزاع الحسين وابن سعود يمثل صراعا بين شخصيتين متضادتين، على ضوء ما صوره برنارد شو في مسرحياته، فإحداهما مثالية مليئة بالأحلام والمبادئ، والثانية واقعية لا تميل إلى الأحلام والمثل، بل تريد النجاح في الدنيا ولا تبالي بغيره»[79].

نحت عبد العزيز ابن سعود شخصية القائد العسكري والسياسي بتدرج ثابت بدا بطيئًا، ولكنه كان طويل النفس، وقد كان وراء هذا القائد تجارب سياسية سابقة منذ التحام العائلة مع شيوخ الحركة الثقافية الوهابية التي شكلت القاعدة الثقافية للحركة السعودية في تجاربها المتتالية. قد تكون تلك البداية لعبد العزيز غامضة في برنامجها السياسي وشديدة المحلية بما أنها اهتمت بمواجهات داخلية بنجد ونواحيها بعيدة عن تأثير القوى السياسية الأوروبية والعثمانية معًا. لقد ضمنت تلك البداية الغارقة في محليتها، حتى السيطرة على إقليم الأحساء سنة 1913م، فرصة لعبد العزيز أن يشكل صورة السياسي الناجح وسط قبائل نجد القوية والمناهضة للانقياد من ناحية، وأن ينجو من أضواء القوى الأجنبية وتسرب تأثيراتها لمجال تأثيره وانتصاراته. ولا يعني هذا الوضع أن بريطانيا مثلًا لم تكن تعلم بالحركة السعودية منذ انطلاقها في شرق شبه الجزيرة العربية، فحضورها

في الخليج العربي كان يتدعّم يوما بعد يوم عبر مفاوضاتها ومعاهداتها مع مشيخات الساحل. ولكنها فيما يبدو لم تكن متسرعة في ربط الصلات الداعمة لعبد العزيز قبل الحرب العالمية الأولى[80]. وقد كان انتصار ابن رشيد في معركة جراب بمساعدة عثمانية على قوات ابن سعود في شهر يناير سنة 1915م من الأسباب التي عجلت باتفاق على غاية من الأهمية لابن سعود مع بريطانيا[81]. وفي الحجاز كان العون القنصلي الفرنسي كسافيه ديهوتكلوك (Xavier de Haute Cloque) يرسل إلى إدارته بعض الأخبار عن تلك البدايات السعودية كما هو شأن عوني بريطانيا فلبي في شرق شبه الجزيرة العربية ولورانس في شرق الأردن أما الدولة العثمانية والتي خبرت خطورة حركة السعوديين في بداية القرن 19م، فقد كانت تعلم أيضًا بتحركات ابن سعود بواسطة عيونها في البصرة والكويت خاصة.

أما الشريف حسين فلئن كان يعبر عن وفائه السياسي الدولة العثمانية وسلطانها، إلا أنه كان على دراية بوزن بريطانيا أولا ثم فرنسا في المشرق العربي والبحر الأحمر. ومع أنه لم يكن يعلم جيدا بمشاريع بريطانيا الاستراتيجية في المنطقة إلا أنه كان يصوغ مواقفه السياسية باتزان مراعيًا تبعيته لسلطة الباب العالي وأواصر التواصل مع بريطانيا. فمنذ 1914م يمكن اعتبار اتصالاته بهذا الطرف قد أصبحت جدية حول مستقبله السياسي في الحجاز[82]. لقد مثل الأمير عبد الله بن الحسين أثناء زيارته في شهر فبراير 1914م لخديوي إسماعيل رسول والده للمندوب السامي البريطاني اللورد هربرت كوتشنر فهل كان لقاؤه مع هذا الأخير للتداول حول علاقة الشريف مع الاتحاديين لا غير؟

في تقدير الباحث فإن الشريف حسين كان قلقًا من ضبابية اللوحة السياسية في المنطقة، وكان يبحث مع من يعتقد أنه صاحب نفوذ بها عن استجلاء الأفق السياسي لبلده، ففضلا عن البحث عن حلول لمشاكل الحجاج الهنود الذين تكاثر عددهم واستجلاء موقف بريطانيا من سياسة الاتحاديين. لقد أدرك الاتحاديون أن الشريف حسين لا يقيم اعتبارا لتبعيته للدولة العثمانية عند تنظيم لقاء ابنه عبد الله بالمندوب البريطاني (أكثر من لقاء) لقد كن يعتمد سياسة ترك الأبواب مفتوحة أمام جملة من الاختيارات منها احتمال قبوله حماية القوى الأوروبية لحكمه.

لقد نبه الأشراف الإدارة العثمانية إلى استفحال أمر عبد العزيز ابن سعود بعد استرجاع الرياض سنة 1902م، لكن كثافة أحداث العشرية الأولى من القرن 20م وخاصة منها وصول الاتحاديين للحكم واستمرار الصراع على الشرافة بعد وفاة الشريف عون الرفيق سنة 1905م صرف مؤقتا نظر الحجازيين عن تطور حركة ابن سعود حتى 1915م داخليًّا ودوليًّا، إذ استفاد الأخير من ظروف الحرب العالمية وعدّلت بريطانيا موقفها منه دعما لمناهضته للوجود العثماني بشبه الجزيرة. ومنذ بداية العقد الثاني للقرن 20م سارت العلاقة بين الشريف حسين وعبد العزيز ابن سعود نحو المواجهة، إذ كانت السياقات الإقليمية تميل إلى تنوع التوترات والثورات من ذلك ثورة الادريسي في صبيا والامام يحي حميد الدين في اليمن فضلا عن اضطراب أوضاع ولاية بغداد، مما زاد في الضغوطات السياسية والعسكرية العثمانية وأملى عليها خطوات جديدة في شبه الجزيرة. وقد تضمنت الخطة العثمانية دعم الشريف حسين في الحجاز مع رقابة نفوذه وتحركاته المحلية والإقليمية وإنجاز خط سكة الحديد الحجاز لأهمية دوره في نقل الجنود والعتاد والمؤن والأخبار، فضلًا عن دعم وجودها العسكري والإداري إذ حولت المدينة المنورة من سنجق إلى محافظة شبه مستقلة عن إدارة الحجاز سنة 1910م.

في تلك السنة انطلق جيش الشريف حسين نحو نجد، حيث فيما يبدو التقى طموحه السياسي مع أهداف الباب العالي في مواجهة تلك الأوضاع السياسية والعسكرية المضطربة في شبه الجزيرة[83]. ولم تلق هذه الحملة دعمًا ماديًّا من الباب العالي رغم موقفها المناهض لحركة ابن سعود. ومهما كان أمر هذه الحملة التي لا مجال لتتبع أحداثها وتفاصيلها ، فقد واجه الشريف حسين عدة صعوبات منها تخلي بعض أنصاره عنه مثل قبيلة عنزة وافتقاره للمؤن الكافية لجنده، أما ابن سعود فنظرًا للمواجهات الأخرى التي كانت تشغله منها مع الهزازنة ومع ابن رشيد وغيرهما، فضلًا عن أن الحرب لم تكن تستهوي الطرفين فاتجها للصلح الذي سجّل فيه الشريف حسين بعض النقاط كما وردت في رسالة ابن سعود، أهم تلك النقاط اعترافه بتبعيته للعثمانيين، حتى وإن كان ذلك مراوغة سياسية تمكنه من فسحة ثمينة من الوقت، ودفع ما قدره 6 ألاف مجيدي لخزينة الدولة والسماح لشيوخ القصيم باختيار من يتبعون بحرية، فضلا عن الاعتراف بتبعية قبيلة عتيبة لولاية الحجاز ومكة المكرمة[84]. في حين التزم الشريف حسين بألا يتعرض لنجد وقبائلها، وإطلاق سراح الأمير سعد أخ عبد العزيز الذي وقع في أسر الشريف[85]، وفي هذا الالتزام يكون الشريف حسين نظريًّا قد قبل بنفوذ ابن سعود بنجد وخروجها من طموحه السياسي.

غير أن مسار العلاقات بين الطرفين لم تكن تنبئ بانتهاء الصراع بين أصحاب نجد والحجاز، ففي سنة 1911م بدأ الشريف حسين منع النجديين من التجارة مع الحجاز، لكن المشكلة الأساسية بين الحجاز ونجد كانت تنقل قبائل الحدود بين الإقليمين ومهاجمة ثم تواتر الأحداث من هنا وهناك كمنع أهل نجد من الحج سنة 1913م، وانضاف إلى ذلك ضم ابن سعود الأحساء سنة 1913م وطرد القوات العثمانية منها. وقد انتهت هذه المرحلة الأولى بفشل الشريف حسين كسب نفوذ جديد خارج الحجاز كما اتسمت علاقته ببعض الجماعات القبلية كعنزة وعتيبة بعد الاستقرار والخضوع الهش. أما ابن سعود فقد قبل العثمانيون به سيدًا على نجد والأحساء بعد أن اعترف بتبعيته لدولة في طريق الانقراض، فضلا عن تحول بعض قبائل نجد إلى مساندته.

بدخول الإمبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا في خريف 1914م، التقت الرؤية البريطانية مع نظيرتها الفرنسية حول تفكيك بقية الولايات العربية العثمانية، والنظر في مستقبلها السياسي لاحقًا، خاصة وأن فتح جبهة عربية أو حتى بث الاضطرابات السياسية ضد الوجود العثماني يساهم في تشتيت القوة العثمانية التي تمكنت مع حلفائها من إلحاق الهزيمة في فاليبولي في البلقان ببريطانيا وحلفائها. وفي شبه الجزيرة العربية خضعت معظم القوى المحلية وخاصة منها الشريف حسين وابن سعود إلى دعوات معسكري الحرب بالمساندة، فالعثمانيون دعوا تلك الأطراف إلى مساندتها ضد بريطانيا وسياساتها المتلاعبة بمصير العرب والعثمانيين على حد السواء وبريطانيا كانت قد دعت هي الأخرى دعم دول التحالف والثورة ضد الوجود العثماني في البلاد العربية. لقد تذرع ابن سعود للعثمانيين بعدم إمكانية التدخل في البصرة ومواجهة الفرق العسكرية البريطانية بها لما في ذلك من خطر مؤكد على حدوده الشرقية بالأحساء من طرف البريطانيين. أما الشريف حسين فقد تخلّى عن دعم أبناء عم ابن سعود بطلب من العثمانيين. وبصفة عامة فإن العلاقة بين الطرفين النجدي والحجازي قد ظلّت نسبيًّا هادئة أثناء الحرب، خاصة وأن ابن سعود قد انشغل في حروبه مع ابن رشيد والعجمان الذين كانوا يتلقون الدعم من الكويت وشرق شبه الجزيرة، كما

كان مفتقرًا للأموال الي يدير بها الحرب وهداياها. ويبدو أن ابن سعود كان شديد الحذر أثناء الحرب لا مع العثمانيين فحسب، بل أيضا مع الشريف حسين، فقد لزم الحياد وظلّ يراقب الأحداث خاصة إثر قيام الثورة في الحجاز سنة 1916م وإعلان الشريف حسين نفسه ملكًا للعرب. ويبدو أن ابن سعود قد اطمأن لتلك الأحداث بعد مقابلته السر برسي كوكس الذي أكد له أن بريطانيا متمسكة بمعاهدة 1915م التي نصت بعض بنودها على اعتراف بريطانيا بابن سعود وضماتها حمايته من الاعتداءات الخارجية[86].وقد ازداد ابن سعود اطمئنانًا بعد مؤتمر الكويت الذي عقد في شهر نفمبر1916م مع برسي كوكس وبقية الزعمات العربية حيث أكد المندوب البريطاني أن حقوق كل الأطراف ترعاها بريطانيا وفي مقدمتها سلطنة نجد. وقد استمرت علاقات الزعيمين حتى نهاية هذه المرحلة دون توتر يذكر وعبر وسائل دبلوماسية في مقدمتها الرسائل والمبعوثين من الأقارب وتبادل الهدايا، بل ذهب البعض إلى الإشارة إلى التصاهر بين الأسرتين حيث تزوج زيد ابن الحسين بأحد بنات أسرة ابن سعود، ولكن كل ذلك لم يسمح لتأسيس ثقة مطلقة بينهما، وتلك هي أحوال السياسة خاصة عندما يكون عرابها بريطانيا[87].

أما المرحلة الثالثة في مسار هذه العلاقات فيمكن اعتبار بدايتها مع أحداث الخرمة، هذه المنطقة التي تميزت بموقعها كملتقى لطرق القوافل الرابطة بين ساحل البحر الأحمر والمناطق الداخلية نحو نجد، وينتشر بها فضلًا عن قبيلة سبيع بعض عائلات الأشراف التي تمتلك بها البساتين. إن أهمية المنطقة الاقتصادية والبشرية أكسبتها أهمية سياسية سواء للحجاز أو لنجد. وقد انطلقت أزمة الخرمة بتحول بعض تحالفات أعيان الخرمة وفي مقدمتهم خالد بن منصور بن لؤي السلفي لصالح ابن سعود، وقد قدّر فلبي، لمعرفته بالأوضاع الداخلية لنجد وطموحات كل من الشريف حسين وابن سعود، أن «الخرمة ليست إلا حادثة في صراع أكبر لا محالة من حدوثه»[88]. وقد حفزت أحداث الخرمة الجماعة السلفية التي ظلت إلى ذلك الوقت إلى جانب عبد العزيز، وربما كان تأثيرها الفكري والسياسي بدأ يتوسع في بعض المناطق الحجازية[89]، وقد دفعت مساهمتهم في مواجهة جيش الشريف حسين إلى هزيمته في أربع جولات متتالية كان أخرها في شهر أغسطس سنة 1918م. وإزاء هذا الوضع المتوتر خشي ابن سعود انحياز بريطانيا كليًّا للشريف حسين فطلب من فلبي عرض ترسيم الحدود عليها مع الشريف حسين أي بين نجد والحجاز، وقد انتهت الحرب ولم يحدث شيء من ذلك. وفي هذه الأثناء تصاعدت الحملة الإعلامية بين الطرفين ووصف أصحاب الشريف لؤي بالسلفية الوهابية وبتلقيهم الدعم من نظرائهم في إقليم نجد ومن ابن سعود.

كانت نتائج الحرب على الحجاز ثقيلة فمع أنها أنهت الوجود التركي به، فقد فتحت الاستراتيجيات البريطانية والفرنسية على مصراعيها. وبدا الحجاز، بخلاف نجد، منهكًا سواء بمشاركته في الحرب مع الحلفاء أو بحملاته الفاشلة على الخرمة، كما تبخرت أمال الشريف حسين في تأسيس مملكة عربية بعد نشر معادات الحرب وخاصة سايكس بيكو ووعد بلفور ومقررات مؤتمر الصلح في باريس سنة 1919م والذي تجاهل مطالب العرب التحررية إذ عاد فيصل ابن الشريف حسين بخيبة سياسية ثقيلة. ولا يسمح المجال لنا من تتبع علاقات الشريف مع ابن سعود بعد الحرب، وسنكتفي بالإشارة إلى ملامحها الكبرى. لقد سارت هذه العلاقات نحو الاحتراب غير المباشر أولا كما في حالة مواجهات الخرمة سنة 1918م وتربة 1919م التي كان النصر فيها بمساعدة الاخوان لابن سعود وفتحت الطريق أمامه نحو الحجاز ومدنه الكبرى. لقد حاول كل

طرف تجييش عدة فروع من القبائل الخاضعة لسلطته إلى جانب فرق الجند والخيالة، وكانت الحملات منهكة لاسيما للطرف الحجازي بشكل أكبر. كما يتبين انطلاقا من هذه الفترة أن الصراع الحقيقي في شبه الجزيرة قد قاده الشريف حسين وأتباعه من جهة وابن سعود ومن معه من جهة ثانية، أما ابن رشيد في حائل وابن عايض في عسير فقد مثلا قوة هامشية على طرفي ذلك الصراع. لقد كان صراعًا منهكًا ودمويًّا في بعض محطاته بين الحجاز ونجد، ترعاه المناورات البريطانية، بما في ذلك مسألة حج أهل نجد سنة 1922م وما بعدها، تلك المناورات المزدوجة بين مدرستيها السياسية الهندية والعربية، وهو بالنسبة لابن سعود والشريف صراع من أجل الانتصار النهائي والانفراد بكامل المجال الموحد. ومنذ سنة 1920م أصبح ابن سعود أكثر هجومية وتصلبًا باعتماده على قوة الاخوان مع الحجاز خاصة بعد انتصاره على إماراتي عسير في 1920م وحائل في 1921م. ويبدو أن استراتيجيته قد تكاملت وتبلورت في هذه السنوات القليلة بعد ان اتضح له كل من الموقف البريطاني وحالة الشريف حسين في الحجاز وقد برز ذلك خاصة في رمزية موقفه السياسي من تلقب الشريف بالخلافة سنة 1924م معتبرًا ذلك تحديًّا له ولمجموعة الاخوان معه[90].

أما في الميدان فقد حقق ابن سعود توسيع نفوذه المتواصل طيلة العقد 1915-1925م وذلك في المستوى العسكري والسياسي وكذلك الاصلاحي السلفي، حتى غدا على مشارف الحجاز الذي شهد بالمقابل تراجع نفوذ الشريف وأتباعه وتفاقم أزمته الاقتصادية خاصة بعد نهاية العثمانيين وحملاته العسكرية المكلفة والفاشلة وتراجع المساعدات البريطانية له بعد نهاية الحرب الكبرى. كما كان لفشل مشاريعه السياسية كملك للحجاز ثم للعرب ثم خليفة للمسلمين أثرًا سيئًا على وضعه السياسي في العالمين العربي والإسلامي وفي علاقاته مع بريطانيا وفرنسا التي طردت ابنه فيصل من سوريا سنة 1921م. لقد بدأت المواجهة المحتومة بين نجد والحجاز سنة 1924م، فقد تقرر في مؤتمر الرياض الذي عبر عن مشاغل علماء نجد وإخوانه واتخاذ مبرر الحج إعلان المواجهة مع الشريف حسين. دخلت قوات الاخوان الطائف في سبتمبر 1924م وفتكوا بالكثير من سكانها[91]. وجراء هذا الانهيار الحجازي في الطائف تداول جمع من أعيان مكة في وضع بلادهم في شهر أكتوبر سنة 1924م وأجمعوا على تخلّي الشريف حسين عن الحكم لابنه على ملكًا على الحجاز دونها[92]، وكان ذلك في نهاية الأمر بموافقة الحزب الوطني الحجازي الذي تشكل في غضون تلك الأحداث[93]، ومغادرة الشريف حسين الحجاز دون عودة في أكتوبر 1924م. أصبح المجال مفتوحا أمام ابن سعود فأكمل ضم الحجاز مستفيدا من الاخوان باستكمال أخذ مكة المكرمة التي دخلوها في أكتوبر 1924م، أما عبد العزيز فقد حلّ بها في ديسمبر من نفس السنة. واستكمالًا لوضع اليد على الحجاز توجه المنتصرون لحصار جدة في يناير 1925م وتم رميها بالمدفعية التي لحقت أضرارها بعض أحياء المدينة ومراكز قنصليتي فرنسا وبريطانيا[94] حتى تسليمها في 17 ديسمبر من نفس السنة[95].

مضى ما يزيد عن العقدين من بداية القرن 20م من تاريخ الحجاز بين صراع طموحات العودة العثمانية وهواجس الزعامات ومناورات بريطانيا، ولم يهدأ إلا بنشأة سلطة مركزية وحدت أغلب مجال شبه الجزيرة العربية تحت رايتها.

أين موقف فرنسا من هذه المرحلة الحاسمة في أوضاع الحجاز؟ لقد بدا وكأن بريطانيا هي اللاعب الأوحد في هذا الميدان وهذا الزمان، وإن كان ذلك لا يجانب الصواب فإن ترتيبات الدولة البريطانية مع

فرنسا زمن الحرب كان يقتضي أن تهتم الأخيرة بمجرى الأحداث في أوروبا الشرقية وبقية الممتلكات العثمانية فيها بينما ترعى بريطانيا مسار الحرب في منطقة المشرق العربي وتلتزم بضمان مصالح فرنسا هناك والمتعلقة بالمجال الشامي وفق تقسيم سايكس/بيكو.

خلال الربع الأول من القرن 20م تميزت ولاية الحجاز بالأحداث الكثيفة المتسارعة وبتعدد الأطراف المتدخلة في هذا الإقليم. فمن جهة العثمانيون أصحاب الشرعية التاريخية في تبعيته للباب العالي ومن جهة أخرة مؤسسة الأشراف التي مضى على وجودها بالحجاز قرون متتالية، وانضاف لهذه اللوحة السياسية أطماع القوى الأوروبية وخاصة بريطانيا وفرنسا التي وإن لم تعلن عن رغبتها في احتلال الحجاز إلا أنها عملت على وضع يدها على محيطه القريب في بلاد الشام ومصر والساحل الغربي للبحر الأحمر. أما من كان له الكلمة الأخيرة في مسار الأحداث ومستقبل الحجاز في نهاية فترة الدراسة فهي الحركة السعودية بقيادة عبد العزيز ابن سعود.

الخاتمة:

شهدت الجزيرة العربية بصورة عامة والحجاز على وجه الخصوص في مطلع القرن العشرين العديد من التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاقتصادية والصحية ،والتي انعكست على إنسان المنطقة بصورة كبيرة، حيث شهدت المنطقة العديد من الصراعات و التنافس الداخلي بين قوى محلية وإقليمية كانت تهدف لبسط سيطرتها على الاقليم.

النتائج:

من النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- اعتماد اقتصاد الحجاز منذ القدم على ثلاث عناصر مهمة هي التجارة، الحج، اقتصاد أهل البادية لما يوفره من منتجات مختلفة.
- تأثير الحرب العالمية الاولى بصورة كبيرة على الأوضاع في الحجاز.
- شكلت العشرية الأولى من القرن العشرين بداية النهاية للدولة العثمانية.

التوصيات:

من أهم التوصيات التي خرجت بها الدراسة:

إجراء المزيد من الدراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للحجاز في مختلف الحقب التاريخية.

الهوامش:

(1) Al-Amr. S. M. The Hedjaz under the Ottoman Rule. Univ. of Leeds. 1974, p 113.

(2) Ochsenwald. W. Religion. Society and the State in Arabia, 1840,1908. Columbus, Ohio state University Press. 1984, p 94.

(3) الشناوي، محمد عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج2، ط2، القاهرة 1986، ص1013.

(4) الصواف، فائق بكر، العلاقات بين الدولة العثمانية...، نفس المرجع، ص 84.

(5) Abu-Manneh. Butrus. Sultan Abdulhamid and the Sharif of Mecca. 1850-1900. Asian and African Studies. Vol. G, n 1. P13.

(6) Abu-Manneh. Butrus. Sultan Abdulhamid…Op…, cit, p 14-15.

(7) صايغ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى، بيروت 1966. ص 24.

(8) لقد وصفه السفير بول كامبون (Paul Cambon) في إسطنبول سنة 1894م بما يلي:» كان هذا الشخص القوي جدا يقوم أو يتحدى الولاة كما كان يحلو له، كان يبتزهم، إذا عملوا على اطرائه، وكان يحطمهم إذا اشتم لديهم مقاومة ما. ولم يكن للسلطان غير تأثير بسيط عليه أما الباب العالي فلم يكن يدعي أي جانب من ذلك(التأثير). أنظر:

Chantre. L. Le pèlerinage à la Mecque à l` époque coloniale (1866-1940) : France, Grande Bretagne, Italie. Thèse Univ, de Poitier, 2012. Copie en ligne, p261, note 950.

(9) مراسلة قنصل فرنسا بجدة بتاريخ 20 ديسمبر 1901م. أنظر: Chantre. L. Le pèlerinage à la Mecque. Op…, cit, p 261, note 951.

(10) فرحان، حكمت عبد الكريم، الثورة العربية الكبرى وقضايا العرب المعاصرة، عمان 1990، ص 56.

(11) موسى، سليمان، الحسين ابن علي والثورة العربية، ط2، عمان، 1992، ص 17.

(12) الريحاني، أمين، ملوك العرب، بيروت 1929. ص 27.

(13) رجب، حراز، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية، 1840-1909، القاهرة 1970، ص 116.

(14) الحسين، عبد الله، مذكراتي، عمان 1989، ص 19

(15) Philby. H. St. J. Arabia. London. 1930. P214

(16) أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط6، دار العلم للملاين، بيروت 1980. يرى أنطونيوس أن الاتحاديين كانوا وراء عودة الشريف حسين أميرا في مكة المكرمة نظرا «لشخصيته البارزة الموقرة فضلا عن مكانته في المجتمع وسمو نسبه... وفضلا عما "كان معروفا من كره السلطان له»، ص 178.

(17) George. Still. A Prince of Arabia. London. 1948. P 86.

(18) موسى، سليمان، الحسين ابن علي والثورة العربية، ط2، عمان، 1992، ص 27-26.

(19) موسى، سليمان، الحركة العربية، سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1924-1908م، بيروت 1977. ص52-50.

(20) سعيد، أمين، الثورة العربية الكبرى، القاهرة 1934، ص 105-104. موسى، سليمان، الحركة العربية...، نفس المرجع، ص 51.

(21) Haworth. D. The desert King. London, 1964. P 22.

(22) عديدة هي المؤلفات حول النهضة العربية في بداية القرن 20م، على سبيل المثال، زين، نور الدين زين، نشوء القومية العربية، دار النهار، بيروت 1968.

(23) موسى، سليمان، الحركة العربية...، نفس المرجع، ص 56.

(24) الصواف، فائق بكر، العلاقات بين الدولة العثمانية...، نفس المرجع، ص 158.

(25) موسى، سليمان، الحركة العربية...، نفس المرجع، ص 73-66.

(26) سعيد، أمين، الثورة العربية الكبرى، القاهرة 1934، ص 55-52,

(27) موسى، سليمان، الحسين ابن علي والثورة العربية، ط2، عمان، 1992، ص 52. «إننا نعلم أن الشريف حسين عمل بكل قواه في سبيل استقلال العرب وسلخ هذه البلاد عن السلطة العثمانية، ولهذا اعتزمنا عزله وتولية الشريف على حيدر (من آل زيد) بدلا عنه فعليك حين وصولك إلى مكة أن توجد خلافا بين مقامي الولاية والامارة لنتمكن من تحقيق هذا الهدف». من تعليمات الفريق غالب باشا إلى الوالي الجديد للحجاز وهيب باشا.

(28) وهيم، مجمد طالب، مملكة الحجاز1916- 1925، دراسة في الأوضاع السياسية، البصرة 1982، ص 41.

(29) Chantre. L. Pèlerinages d`Empire, une histoire européenne du pèlerinage à La Mecque. Paris 2019,

(30) Ibidem.

(31) سيار، جميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، من أجل بحث رؤيوي معاصر، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1989، ص 481.

(32) موسى، سليمان، الحسين ابن علي والثورة العربية، ط2، عمان، 1992، ص 19.

(33) الصواف، فائق بكر، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين 1334-1293هـ/ 1916-1876م، مكة المكرمة، ص، 80-79

(34) سيار، جميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث...، نفس المرجع، ص 469.

(35) جريدة القبلة، عدد737، مكة 6 ربيع الأخر سنة 1342هـ بيان اللجنة التنفيذية لمؤتمر الجزيرة وفق رواية محمد ابن علوي على لسان الشريف حسين حول صورة الوحدة العربية التي يسعى لتأسيسها: «وحدة البلاد واستقلالها بحيث تكون خارجيتها وعسكريتها وسياستها العامة واحدة، أما

داخليتها فالإمارات العربية المعروفة بجزيرة العرب تكون على ما كانت عليه قبل الحرب، وأن كل أمير في أي إمارة من هذه الامارات الموروثة لهم من آبائهم وأجدادهم يستقل بداخليته ضمن الحدود التي كانت عليه إمارته قبل الحرب بشرط أن يرتبط مع المجموع الذي كل من خرج عنه منهم أو شذّ بالخروج عن الجامعة العربية يحكم عليه المجموع بمقتضى قوله تعالى: (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيْ إلى أمر الله) الحجرات 9، وأما ما كان خارجا عن حدود تلك الإمارات سواء كانت تلك الامارات قائمة بذاتها ضمن حدودها أو طرأ عليها الاغتصاب كعسير قبل الحرب وابن رشيد بعد الهدنة فلا بدّ من عودتهم إلى ما كانوا عليه كعودة الامام يحي إلى صنعاء».

(36) لا يجب أن يذهب الظن إلى أننا نتحدث عن مجتمع مستقر ومثالي يخلو من مظاهر غير ودية، فالنكات والقصص المختلفة حول سلوك بعض الجماعات الوافدة يمثل شكلا قدحيا وإن كان لا يرقى للتمييز.

(37) هيرجرونجي، سي سينوك، مكة في أواخر القرن 19م، ترجمة محمد صبري حسن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2007، ص 43.

(38) Petriat. Ph. Le negoce des Lieux Saints : Negociants Hadramis de Djedda, 1850-1950. Paris 2016. P189.

(39) 39 () وفق ما قدمه الرحالة بيركهارت كانت قبيلتا حرب بمنطقة المدين وعتيبة بمكة والطائف بالحجاز تعد ما بين 30 و40 ألف فرد. أنظر: Notes on the Bedouins and Wahabys. Vol. II, Reading Garnet 1992, p30.

(40) Pétriat. Philippe. Le négoce des Lieux Saints : Négociants Hadramis de Djedda, 1850-1950. Paris 2016. P 152.

(41) كتب نائب قنصل فرنسا في جدة عن وضعية التجارة في جدة والحجاز بشكل عام ما يلي: «إن فتح قناة السويس وقد ساهم في نمو تجارة التوريد نحو جدة، فإنه في الآن-إذا جاز القول-خرّب التصدير من هذا الميناء. وبالفعل سيدي الوزير، فإن جدة كان من الممكن اعتبارها، قبل فتح قناة السويس مخزنا واسعا . Pétriat. Philippe. Le négoce des Lieux Saints…Op…, ct, p 1 52

(42) Ochsenwald. W. Religion. Society and the State in Arabia, 1840,1908. Columbus, Ohio state University Press. 1984, p 94.

(43) Chantre. L. Chanter. Luc. Le pèlerinage à la Mecque à l`époque coloniale (1866-1940): France- Grande Bretagne- Italie. Pars, 2012. P 233.

(44) Ibidem.

(45) Pétriat. Philippe. Le négoce des Lieux . ..OP…, cit. P 169.

(46) Pétriat. Philippe. Le négoce des Lieux Saints…Op…, ct, p 170.

(47) Pétriat. Philippe. Le négoce des Lieux Saints : Négociants Hadramis de Djedda, 1850-1950. Paris 2016. P 209.

(48) Ibidem

(49) Pétriat. Philippe. Le négoce des Lieux Saints ...Op…,cit

(50) الباهي، المبروك، الديون والربا في إيالة تونس في القرن 19م. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية صفاقس. تونس 2003.

(51) هيرجرونجي، سي سينوك، مكة في أواخر القرن 19م...، نفس المرجع، ص 45-44.

(52) Pétriat. Philippe. Le négoce des Lieux Saints. Op…, cit, p 11.

(53) السيد، عاطف، البحر الأحمر والعالم المعاصر، دراسة تاريخية استراتيجية، القاهرة 1983، ص 47- 48.

(54) المومني، نضال داود، علاقة مصر بالحجاز على عهد الشريف حسين وموقفها من ثورته وصراعه مع عبد العزيز، 1925-1908م، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، 20خ، ص50.

(55) موسى، سليمان، المراسلات التاريخية، ج1، 19118-1914م، عمان، 1973، ص 58-57. السيد، عاطف، البحر الأحمر...، المرجع السابق، ص 48.

(56) جوارنه، أحمد والخطيب، جبر، النهضة العربية، دراسة في القومية العربية من خلال جريدة القبلة 1924-1916م، مجلة اتحاد الجامعات العربية للأهداب، المجلد التاسع، عدد 1ب، 2012، ص 350-335. ومما ورد في هذه الجريدة: «أصبح معلوما على الخاص والعام أن من أهم أسباب ارتقاء تجارة العالم في هذا العصر، ومن أكبر البواعث على تأسيس المعامل الصناعية الضخمة، والاستفادة من المخترعات العجيبة، اعتماد أصحاب الأموال على فكرة التعاون التجاري، وضم رؤوس الأموال بعضها إلى بعض، ليتمكن الناس بمجموعهم من إقامة الأعمال الكبرى التي لا يمكن إتمامها وهم منفردون، فأسسوا من رؤوس أموال صغيرة ثروات كبيرة، وأجدوا لحمايتها والتفكير في نجاحها نقابات مؤلفة من أناس واسعي الاطلاع، وبما يرشدنا إليه التاريخ أن قريشا كانت من أقدم الأمم انتباها إلى فائدة هذا التعاون، فكانت ايلافها رحلة الشتاء والصيف تقوي تجارتها». القبلة، عدد 5، الاثنين 29 شوال1334هـ/29 أغسطس 1916م، ص 1.

(57) الخطيب، جبر،» التجارة في ميناء جدة من خلال جريدة القبلة 1917-1916م». مجلة جامعة النجاح (العلوم الإنسانية)، مجلد 29، (3)، 2015، ص 469.

(58) الخطيب، جبر،» التجارة في ميناء جدة...»، المرجع السابق، ص 274.

(59) مصطفى، عبد المنعم، لورانس قصة حياته وحقيقة موقعه من الثورة العربية، بغداد 1990، ص118.

(60) BNF. Les Cahiers de la guerre : Pourquoi nous serons vainqueurs », no 9, 1914. p 299.

(61) Les Cahiers de la guerre…, op.cit., p 299

(62) تتالت المؤتمرات الصحية منذ النصف الثاني من القرن 19م والربع الأول من القرن الموالي، ومنها: مؤتمر إسطنبول (1866م)، مؤتمر فيانا (1874م)، مؤتمر روما (1885م)، مؤتمر البندقية (1892م)، مؤتمر باريس 1 (1894)، مؤتمر باريس2 (1903م).

(63) Chanter. Luc. Le pèlerinage à la Mecque à l`époque coloniale (1866-1940) : France- Grande Bretagne- Italie. Pars, 2012. P 54.

(64) Chantre. Luc. Le pèlerinage à la Mecque…, op, cit, p 172.

(65) Chantre. Luc. Le pèlerinage à la Mecque…, op, cit, p 174.

(66) Chantre. Luc. Le pèlerinage à la Mecque…, op, cit, p 175.

(67) Gervais. De Courtellemont. Jules. Mon Voyage à la Mecque. Paris. Librairie Hachette, 1897. P 114.

(68) Chantre. Luc. Le pèlerinage à la Mecque…, op, cit, p 176.

(69) Chantre. Luc. Le pèlerinage à la Mecque…, op, cit, p 230.

(70) سليمان، موسى، المراسلات التاريخية، 1917-1914، مج1، عمان ـ 1973، ص-25-23.

(71) زين، نورالدين زين، الصراع الدولي على الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار، بيروت 1971، ص 327.

(72) أنطونيوس، جورج يقظة العرب... المصدر السابق، ص 225-224. موريس، جيمس، الملوك الهاشميون، المكتب العالمي للترجمة والنشر، بيروت، د تـ ص 38.

(73) الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط5، ج4، دار العلم للملايين، بيروت 2002، ص 284.

(74) المصدر مجلة المنار ع 22/ص 442.

(75) Gallica. B. N. P. Correspondance d`Orient. 10 avril 1917, p 218.

(76) Gallica. B. N. P. Correspondance d`Orient : Journal d`expansion française et de politique extérieure. No 161 10 mars 1917, p 147.

(77) Ibidem.

(78) Ibidem.

(79) الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، ملحق قصة الأشراف وابن سعود، ج6، بغداد، د ت، ص 4.

(80) Macoupin. Leslie. Ibn Saud Founder of Kingdom. New York. 1993, p 45.

(81) Ibid, p 47

(82) فاسيليف، تاريخ البلاد العربية السعودية، خيري الضامن وجلال الماشطة، بيروت 2011، ص287.

(83) السعدون، خالد، أضواء على حملة شريف مكة على القصيم 1910م، الدارة عدد1السنة 10،

الرياض، 1984.، ص 69-68. والحقيقة أن أسباب هذا التحرك العسكري عديدة منها نجدة بعض من قبائل نجد وشيوخ القصيم كابن مهنا والبسام، كما يضاف إلى ذلك تلبيته لبعض شيوخ عتيبة الحجازية التي كانت تجبر أحيانا على دفع ضرائب إلى ابن سعود. أنظر موسى، سليمان، الحركة العربية، المرحلة الأولى النهضة العربية الحديثة 1901- 1924م، ط3، بيروت1986، ص 170-169.

(84) مجلة المنار المصرية، مج 13 ج10، ص 798-793.

(85) الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث، دار الجيل بيروت، 1988، ص 192.

(86) الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز، اختيار وترجمة نجدة، فتحي صفوة، ج 2، ص 761.

(87) سليمان، موسى، الحركة العربية...، المرجع السابق، ص 605.

(88) فلبي، سانت جون، بعثة إلى نجد، ص 195.

(89) فلبي، سانت جون، الجزيرة العربية، ص 102.

(90) انطوتيوس، جورج، يقظة العرب...، المصدر نفسه، ص 454.

(91) عبد الله، غازي، إفادة الأنام، ج4، ص 33.

(92) الذكير، حوادث نجد، ص 149. الوردي، علي، ...، مرجع سابق، ص 231.

(93) نصيف، محمد حسين، ماضي الحجاز وحاضره، الحسين ابن علي، ج1، القاهرة 1349هـ ص 134-133.

(94) الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث...، المصدر السابق، ص 409.

(95) الريحاني، أمين، المصدر السابق، ص 422.

المــدارس التعليـمية في مكة المكرمة
(القرن العاشر الهجري/الخامس عشر ميلادي)
(دراسة تاريخية وصفية)

أ.أمــنيه بنت حسن بن علي يماني

قسم التاريخ والآثار - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تناولت هذه الدراسة المــدارس التعليمية في مكة المكرمة (القرن العاشر الهجري/الخامس عشر ميلادي)، ان مكة المكرمة لها مكانة خاصة في قلوب المسلمين، فهي مهوى افئدتهم، وقبلتهم، ومهبط الوحي، وفيها المسجد الحرام، وهي مقصد للمعتمرين، والحجاج، والزائرين، هذا في الجانب الديني، اما العلمي فقد كان في مكة المكرمة وبالأخص في المسجد الحرام بداية شرارة العلم، والتعلم فقد حث الدين الإسلامي على العلم ورفع من منزلة أصحاب العلم درجات لهذا حرص العديد من السلاطين، والخلفاء على تطوير اماكن التعليم من كتاتيب الى مدارس الى جامعات، وبعد ظهور المدارس شهدت مكة تطور كبير من الناحية العلمية، ومن اهم المدارس التي تم انشائها في مكة والتي سوف تكون محور هذه الدراسة هي (المدرسة السليمانية والمدرسة الصولتية) وتهدف هذه الدراسة الى معرفة الحياة العلمية في مكة المكرمة في العصر الحديث، والتعرف عليها ايضًا من خلال كتابات الرحالة، وتتجلى أهمية البحث في العديد من النقاط التي يستوجب ذكرها مثل وصف المباني المدرسية والمذاهب المعتمدة للمدارس وطريقة اختيار موقع بناء المدارس، وقد تم استخدام المنهج التاريخي الوصفي لهذه الدراسة، وقد تبين للباحثة ان الحياة العلمية في مكة مرت بمراحل عديدة حيث بدأت بحلقات تعليم بالمسجد الحرام وتطورت بشكل ملحوظ عند نشأة المدارس الذي زادت من نسب المتعلمين في المنطقة وشجع على العلم والمعرفة.

الكلمات المفتاحية: مدارس مكة، المدرسة السليمانية، المدرسة الصولتية، الرحالة، المسجد الحرام.

Educational schools in Makkah
(Tenth century AH / fifteenth century AD)
(Descriptive historical study)

A.Omnia Bint Hassan Bin Ali Yamani

Abstract:

This study dealt with the educational schools in Mecca (the tenth century AH/fifteenth century AD). Mecca has a special place in the hearts of Muslims, as it is the cradle of their hearts, their qibla, and the landing place of revelation. It contains the Grand Mosque, and it is a destination for Umrah pilgrims, pilgrims, and visitors. On the religious side, as for the scientific aspect, it was in Mecca, especially in the Sacred Mosque, that the spark of knowledge and learning began. The Is-

lamic religion encouraged knowledge and raised the status of those with knowledge by degrees. This is why many sultans and caliphs were keen to develop places of education, from libraries to schools to universities. After the emergence of schools, Mecca witnessed great development from a scientific standpoint. Among the most important schools that were established in Mecca, which will be the focus of this study, are (the Sulaymaniyah School and the Sawliyya School). This study aims to know the scientific life in Mecca in the modern era, and also to learn about it from Throughout the traveler's writings, the importance of research is evident in many points that need to be mentioned, such as the description of school buildings, the doctrines adopted for schools, and the method of choosing the site for building schools. The descriptive historical approach was used for this study, and it became clear to the researcher that scientific life in Mecca went through many stages, as it began with episodes Education at the Grand Mosque developed significantly with the establishment of schools, which increased the proportion of learners in the region and encouraged science and knowledge.
Keywords: Mecca schools, Al-Sulamaniyah school, Al-Sawliyya school, Travelers, the Grand Mosque.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين اما بعد.

لمكة المكرمة مكانة عظيمة عند المسلمين، فهي مهبط الوحي ومهد الرسالة، وبها المسجد الحرام والكعبة المشرفة قبلة المسلمين، وفي كل عام يأتي أليها المسلمين من كل بقاع الارض لأداء فريضة الحج. وقد حظيت مكة المكرمة باهتمام بالغ من قِبل السلاطين والامراء واصحاب النفوذ على مر عصورها، وأنفقوا من أجلها الاموال في سبيل تطويرها وتقديم كل ما تحتاجه من خدمات، فقد اهتموا بالعلم والتعليم، وبذلوا الغالي والنفيس من اجل تطوير الجانب العلمي فيها، فأسسوا المدارس والمكتبات المتعددة التي اضافة الشي الكثير لسكان المدينة، وكانت شي جديد على هذه المنطقة، فشهدت مكة تطور كبير من الناحية العلمية بعد ظهور المدارس. وتَبرز اهمية هذه الدراسة في معرفة أشهر مدارس مكة في القرن العاشر الهجري/ الخامس عشر ميلادي (المدارس السليمانية والمدرسة الصولتية) من حيث مبناها والمذاهب الفقهية التي تُدرس بها.

اهتم الإسلام بالعلم والحث عليه، وبين فضله، ومما يظهر اهتمام الاسلام بالعلم والتعليم قول الله تعالى:(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[1]. ولقد ضرب الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم مثل لتنفيذ اوامر الله عز وجل في الاهتمام بالعلم والتعليم والحث عليه، ففرض على أسرى بدر تعلم القراءة والكتابة[2]، كذلك حث الصحابة

على تعلم اللغات الأجنبية، فطلب من زيد بن ثابت رضي الله عنه[3] ان يتعلم كتابة اليهود؛ لأنه لا يأمن جانبهم، وسار حكام الدولة الإسلامية على هذا النهج فهم قادتها وقدوتها وحماة الشريعة، وديننا الحنيف يحث على العلم وطلبه وبخاصه العلوم الشرعية الغراء، ويفضل فيمن يلي امر المسلمين ان يكون على علم وفهم بعلوم الشريعة التي يكون تطبيقها في الرعية من اوجب واجباته[4]. ولئن كان هذا الاهتمام العلمي امرًا طبيعيًا في حكام المسلمين، ان الاهتمام بالحياة العلمية في الحرمين الشريفين اشد وابين لما لمكة المكرمة[5] والمدينة المنورة[6] من المكانة الدينية العالية في النفوس، ويتبع ذلك اهتمام الاهالي لوجودهم في رحاب البلاد المقدسة التي تضفي على ساكنيها حبًا للعلم واستشعار لأهميته والحاجة اليه[7].

المبحث الاول: الحياة العلمية في مكة المكرمة في العصر الحديث:

المطلب الأول: التعريف بمدارس مكة.

كان لمدارس مكة اهمية تعليمية حضارية، فهي مبنى لتلقي العلم هُيئ بطريقة تلائم التعلم، وزود بما ييسر على الطالب طلب العلم، بهدف إيجاد مناخ دراسي مشجع يجذب نحوه الطلاب، وقد شهدت مكة اول مدرسة في الإسلام، وهي دار الأرقم بن ابي الأرقم[8]، وقد انتشرت في مكة المكرمة ثلاثة انواع من المدارس:

1. مدارس ملحقة بالمسجد الحرام وبمحيطة.
2. مدارس حكومية نظامية حديثة.
3. مدارس اهلية نظامية حديثة.

وكان لكل نوع من المدارس اسباب ادت الى انشائها، واهداف تربوية وتعليمية يطمح إليها[9].

أولاً: المدارس الملحقة بالمسجد الحرام ومحيطة:

وهي مدارس أنشأها السلاطين والوزراء، وكان التعليم فيها يعتمد على العلوم الدينية، كتفسير القرآن وعلوم القراءات والفقه وأصوله والحديث وعلومه، واللغة العربية بصرفها ونحوها، مع الاهتمام بعلوم البلاغة والفلك والحساب، وما يميزها أن أصحابها اوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، وبخاصة مدارس السلاطين و الأمراء، التي وقف عليها أوقاف كثيرة بمصر من قرى وضياع؛ بل أقاليم برمتها، كفلت بقاءها واستمراريتها، وكانت هذه المدارس بالمسجد الحرام أو محيطه، وألحق بها خلوات لسكن المعلمين مثل المدارس السليمانية، ومدرسة داود باشا[10]. ومما لا شك فيه أن مثل هذه الخلوات تحقق عدة أهداف للمدرس والطالب والمدرسة، فهي من جهة تزيح عن المعلم عناء البحث عن سكن قريب من المدرسة، وفي الوقت نفسه توفر مقاربة علمية بين المدرس والطالب للتجاور في المسكن، وهذا يتيح للطالب التعلم في حياته اليومية بعيدًا عن قاعة الدرس[11].

كما ان كثيرًا من المدارس ألحقت بها أربطة لكي يسكن فيها الطلبة، وبكل تأكيد تأمين السكن للطالب يجعله في غنى عن العمل من أجل توفير أجرة مسكن له أو لعائلته إن كان متزوجاً، وبخاصة الطلبة القادمون إلى مكة المكرمة من أقطار العالم الإسلامي طلباً للعلم فحين يجد الطالب أن هذه المدارس وفرت له السكن، فإنه يتفرغ لطلب العلم بنفس مستقرة وذهن صاف وبتركيز أكبر، ومن ثم يؤدي المهمة التي قدم من أجلها بنجاح.

ثانياً: المدارس الحكومية النظامية الحديثة:

وينقسم التعليم فيها إلى مراحل:

- المرحلة الأولى: وتشمل التعليم الابتدائي، وهي مقسمة ثلاثة مستويات على النحو الآتي: المدارس الصبيانية (الكتاتيب)[12]، الابتدائية (الابتدائي المنخفض)، الرشدية (الابتدائي العالي).
- المرحلة الثانية: وتشمل التعليم الثانوي، وهي مقسمة ثلاثة مستويات على النحو الآتي: الإعدادية أو «المتوسطة»، (الثانوي المنخفض)، السلطانية (الثانوي العالي).
- المرحلة الثالثة: وتسمى مدارسها (المدارس العلية)، وكانت مختصة بتعليم الفنون والحرف والعلوم.
- المرحلة الرابعة: الجامعة، وكانت تسمى (دار الفنون).
- وهذا الترقي في نوعية المدارس يعد نقلة نوعية في التعليم، فهو وإن أعطى الطلاب مساحة ثقافية واسعه، إلا أنه في المقابل شتت كثيراً من قوى الطالب التي كانت ترمي إلى نوع واحد من العلوم، وهو العلوم الشرعية[13].

ثالثاً: المدارس الأهلية النظامية الحديثة:

عرفت مكة المكرمة المدارس الأهلية منذ الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فتذكر لنا المصادر التاريخية أن أحد تجار مصر[14] الأثرياء ويدعى العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفي[15] أنشأ سنة 571هـ/1175م بمكة المكرمة قريباً من باب العمرة مدرسة عرفت بمدرسة الأرسوفي. وقد توالى فتح كثير من المدارس الأهلية بمكة المكرمة لاحقاً، وتعددت الأسباب والأهداف التي من أجلها أنشئت مثل هذه المدارس، وتنوعت طرائق الإنفاق عليها والخدمات التي تقدمها إلى طلابها، والمميزات التي تجعلها منفردة عن غيرها، شهدت مكة المكرمة عدداً من المدارس الأهلية، إذ تضافرت عدة سباب دفعت الأهالي بمكة المكرمة إلى إنشاء مثل هذه المدارس التي تعلم العلوم الدينية والعربية، بجانب العلوم الحديثة بعدما لمس ضعف المدارس العثمانية وقلة فائدتها، ونتيجة لذلك سارع الاهالي إلى فتح مدارس أهلية نظامية بمكة المكرمة بعد أن حصلوا على رخصة من قبل الدولة، فمنذ أن وضعت الحكومة العثمانية قانون التعليم سنة ١٢٨٦هـ /١٨٦٩م الذي صنف المدارس إلى صنفين: حكومية (عامة)، ومدارس أهلية (خاصة)، تشرف عليها الدولة مباشرة، كان لا بد على الراغبين من الأهالي في فتح مدارس أهلية من الحصول على ترخيص من الدولة العثمانية[16].

المطلب الثاني: المدارس من خلال كتب الرحالة.

إن تاريخ القطبي يفيد أن أول مدرسة بنيت في الدنيا مدرسة نظام الملك في بغداد وهي مدرسة نظامية إسلامية شيدها الوزير نظام الملك[17] ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥م، فبلغ علماء ما وراء النهر هذا الخبر فاتخذوا للعلم مأتماً، وحزنوا على سقوط حرمة العلم، فسئلوا عن ذلك فقالوا: إن العلم ملكة شريفة فاضلة لا تطلبها إلا النفوس الشريفة الفاضلة، لجاذب الشرف الذاتي والمناسبة الطبيعية ولما حصل عليه أجرة، تتطلبه النفوس الرذيلة وتجعله مكسباً لحطام الدنيا، وتتزاحم عليه لا لتحصيل شرف العلم، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية، فيرذل العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه، ألا ترى إلى علم الطب فإنه مع كونه علماً شريفاً

تعاطته أراذل اليهود بشرف علم الطب، وهذا حال أكثر طلبة العلم في هذا الزمان الفاسد، وهذا شأن طلاب هذه العلوم المتداولة الآن في هذا السوق الكاسد، ويضيف قطب الدين الحنفي أن مخاوف هؤلاء العلماء لها ما يسوغها، لأن هذه المدارس إن لم تكن نتيجة انحطاط الحركة العلمية، فإنها على الأقل مؤشر لمثل هذا الانحطاط[18].

إن هذه المدرسة التي تحوي الكثير من قاعات المحاضرات بالإضافة إلى مكتبة عامة، لم يكن الهدف من إنشائها زيادة وسائل المعرفة، بل كانت تهدف إلى تشجيع الناس على طلب العلم، وذلك عن طريق تأمين المأكل والمسكن لهم، إن طلب العلم هو فرض عين على مجموع الأمة، وعلى الحكام أن يجدوا الوسائل الكفيلة لتحقيق ذلك، إذا لم يوجد المتطوعون لطلب العلم، كما أن على الأغنياء الإسهام بأموالهم لتحقيق ذلك أيضاً، لقد أقام نظام الملك هذه المدرسة الكبيرة التي تحوي الكثير من الحجرات الصغيرة لسكن الطلاب والمدرسين، وكذلك بعض قاعات التدريس، ولقد وضع بمساعدة الكثير من أصدقائه العلماء ومشورتهم الحلول لعدد من الموضوعات: مثل عدد المدرسين، وعدد الطلبة، ونوع الموضوعات التي يجب تدريسها، وعدد ساعات الدراسة، والشروط الواجب توافرها في المتقدمين، والأشخاص الذين سيتولون إدارة الوقف المخصص لهذه الدراسة، والدخل ومدى كفايته لصيانة المدرسة والإنفاق على متطلباتها.

في مكة لا توجد حاجة ماسة إلى قاعات للمحاضرات؛ لأن مكان المحاضرات هو صحن المسجد في ساعات النهار الباردة، وفي الأروقة عندما يشتد الحر، والمحاضرات من النادر أن تتوقف نتيجة هطول الأمطار، ومع هذا فإن لكل مدرسة من مدارس مكة قاعات للمحاضرات وجدت نتيجة للعادة أو لأغراض الاستعمال الإداري. ويحدثنا قطب الدين عن مدرسة بنيت وكانت تحوي مكتبة كبيرة بناها أحد خدم الخليفة المستنصر[19] بجوار باب السلام، كما يحدثنا عن مدرسة أخرى بجانب باب السلام أيضاً بناها السلطان المملوكي قايتباي[20]، وكانت تحوي قاعة محاضرات جميلة واثنتين وسبعين خلوة (غرفة معيشة صغيرة) ومكتبة تحوي كتباً على المذاهب الأربعة[21]. وهناك مدرسة ثالثة بناها السلطان العثماني سليمان القانوني[22] إلى الجنوب من المسجد الحرام. ولقد كان قطب الدين نفسه مدرساً بهذه المدرسة. وبجانب هذه المؤسسات الكبيرة هناك الكثير من المدارس الصغيرة التي أنشأها أمراء من الهند[23] أو من مصر أو بعض الحجاج الأثرياء، ولقد كان هؤلاء المتبرعون يرصدون أموالاً للإنفاق على هذه الدروس من طلبة ومدرسين بالإضافة إلى تخصيص بعض المبالغ التي ترصد لقراءة القرآن في أوقات معينة بهدف زيادة الثواب، وإن الإدارة السيئة وعدم استغلال الأموال في المناحي المخصصة لها ساعد على اضمحلال هذه المدارس، إذ لم تنقض سنوات قليلة على إنشائها حتى بدأ الخراب يتسرب إلى هذه المؤسسات، فسوء الإدارة ساعد على تقليص دخل هذه المؤسسات، لدرجة أصبحت معها عاجزة عن دفع مرتبات المدرسين ومجريات الطلبة، وحتى عن صيانة البناء نفسه، وحينذاك يعد المسؤولون هذه المؤسسات من الأماكن المهجورة، وربما يتخذها بعضهم سكناً له، أو يقوم بتأجيرها للحجاج الأثرياء، أو لأهل مكة الذين يفضلونها على غيرها لقربها من الحرم الشريف، ويقول قطب الدين بهذا الصدد: «لقد أصبحت هذه المؤسسات بأيدي هؤلاء الأشرار يديرونها ولم يبق إلا بعض الغرف القليلة التي يستوطنها بعض المدرسين والطلبة، أما باقي الغرف فيتصرف بها المالك الثري الذي آلت إليه، والذي يقوم بين الحين والآخر بترتيب إقامة بعض المحاضرات في القاعة تخليداً لذكرى المؤسس، لقد

وصل الحال إلى أن كلمة مدرسة أصبحت تعني داراً جميلة بجوار الحرم، دون أن يتكون لدى الغالبية العظمى من السكان فكرة واضحة عن المعنى الأساسي لهذا التعبير[24].

المبحث الثاني: المدارس في القرن العاشر الهجري:

المطلب الأول: المدارس السليمانية.

تعد المدارس السليمانية أول آثار العثمانيين العلمية في مكة المكرمة، بل إن بعض المؤرخين عدوها من أهم أعمال السلطان سليمان، وقال الغزي في ترجمته للسلطان سليمان: «وله المدارس العظيمة بمكة المشرفة، وقد أورد المؤرخون سبب إنشائها فمن ذلك ما ذكره النهروالي حيث قال: وسبب ذلك أن الأمير إبراهيم أمين[25] إجراء عين عرفات عرض على الأبواب الشريفة السليمانية، وأنهى للأعتاب العلية الخاقانية أن المناسب للشأن الشريف السلطاني أن يكون لحضرة السلطان بمكة المشرفة أربع مدارس على المذاهب الأربعة يدرس فيها علماء مكة المشرفة علم الفقه ليكون سببًا لانشغالهم بعلم الشرع ويسطر ذلك في الصحائف حسنات للسلطنة؛ فأجابه السلطان سليمان المرحوم إلى ذلك، وذكر الطاهر أن ذلك كان في سنة 970هـ/ 1562م.

كلف السلطان سليمان الأمير قاسم بك[26] أمير (أمين) جدة بأن يبادر إلى العمل، وأن يختار أحسن الأماكن اللائقة لبناء هذه المدارس، وبعد تشاور قاسم بك مع الأمير إبراهيم وغيرهما من الأعيان اتفق على أن اللائق لبناء هذه المدارس الجانب الجنوبي من المسجد الحرام المتصل به من ركن المسجد إلى باب الزيادة، وذكر النهراوالي في يوم وضع حجر الأساس: تقدم قاضي مكة المكرمة أحمد بن محمد بك النشانجي[27] ووضع بيده الشريفة الأساس، وتبعه من حضر من العلماء والسادات والأمراء وأعيان الناس، ووضع كل واحد منهم حجرًا في ذلك الأساس، وكان ذلك يوما مشهودًا مباركًا مسعودًا، ومن مظاهر اهتمام السلطان بإنشاء المدارس أن اختار لبنائها المعمار سنان باشا[28]، لم تتم عمارة المدارس السليمانية في عهد السلطان سليمان رغم حرصه على إكمال العمل ومتابعته لأعمال البناء، ورسائله المتوالية إلى والي مصر وشريف مكة المكرمة ومأموري البناء لبذل الجهد لاستكمال إنشاء المدارس الشريفة، وأوامره إلى قاسم بك بالاستعجال والاهتمام، حيث توفي السلطان سليمان، وتولى بعده ابنه السلطان سليم الثاني[29] فتمت في عهده، وكان تمام بناء المدارس في سنة 977هـ/1569م، ونجد أن المدارس السليمانية قامت بدور كبير في نشر العلم بمختلف المذاهب الإسلامية فقد كانت جامعة إسلامية تدرس المذاهب الفقهية المختلفة فضلاً عن علم الحديث، مما جعل لها أثراً كبيراً في نشاط الحركة العلمية والتعليمية بمكة المكرمة[30].

عمارة المدارس السليمانية:

عندما قام السلطان سليم الثاني بعمارة المسجد الحرام أقام بإحدى المدارس السليمانية منارة عرفت بالمنارة السليمانية وصفها الجمال الطبري بقوله: «وهي منارة في غاية العلو والارتفاع مبنية بالحجر الشميسي مسبوكة بسبك الذهب الأحمر بدورين أساسات محكمة موضوعة رأسها على أسلوب منائر بلاد الروم، تكاد تلامس معارج النجوم وتغوص في الأرض إلى مدارج التخوم، وقد ضم مبنى المدارس السليمانية قبتين أكبر من قباب أروقة الحرم في الحجم وتتوسطها المئذنة المذكورة بطابعها العثماني المميز، وقد بلغ عدد حجرات المدارس السليمانية ستًا وأربعين حجرة، موزعة على أدوار متعددة، ويمر أسفل منها

ممر يوصل إلى الحرم من إحدى جهاته وبالشارع العام من الجهة الأخرى، ويدخل للمدرسة من دهليز به بئر، وهي مطلة على الحرم، وتتوسطه قاعة محاضرات تعلوها قبة كبيرة. وحرصًا على أداء المدارس لرسالتها العلمية الكاملة كان السلطان سليمان قبل وفاته قد أمر بإنشاء مكتبة بها، كما أرسل في سنة 973هـ/ 1565م وزيره محمد باشا[31] إلى مكة وطلب منه أن يختار له مكانًا ليجعله رباطًا للفقراء، وأن يجعل له موردًا ينتفع به فقام بإنشاء الرباط الذي عرف برباط السليمانية، وقام بإنشاء مجموعة من الدكاكين للصرف عليه[32].

وقد كان عمق الأساس عشرة أذرع، وعرضه أربعة أذرع بذراع المعمار، فكان أساساً قوياً، وقام بالعمل والإشراف على البناء الأمير قاسم والي جدة[33]، إلى أن تم بناء المدارس الأربعة على أكمل وجه، وزاد في عرض الجدران زيادة في متانة البناء، وعمل بها مئذنة عالية، وضم سقوف المدارس بعضها مع بعض فظهرت كأنها بناء واحد، وعمل أبوابها من الخشب المعتق. وتم الانتهاء من بناء تلك المدارس في عهد السلطان سليم الثاني. وربما يعود ذلك لكبر مساحة المدارس وضخامة البناء وارتفاع التكاليف، وقد صمم مبنى المدارس السليمانية بشكل جميل، وتتوسط المبني قاعة محاضرات تعلوها قبة كبيره، كما احتوت المدارس على خلاوي للمدرسين، يجلسون فيها لإلقاء الدروس، وايضًا مساكن للطلبة، والمعاونين، كما أمر السلطان سليمان قبل وفاته بإنشاء مكتبه بها، وذلك حرصاً منه على أداء المدارس لرسالتها العلمية على أكمل وجه[34].

المطلب الثاني: المدرسة الصولتية.

وهي من أوائل المدارس الأهلية النظامية، وكانت لها بصمات واضحة في العملية التعليمية بمكة المكرمة، أنشأها الشيخ محمد رحمت الله الهندي[35] الذي قدم مكة المكرمة من بلاده، وأذن له بالتدريس في المسجد الحرام، تقديراً لفضله، ولما رأى أنه لم تكن هناك دراسة منهجية أو مدرسة في مكة المكرمة، أسس أول مدرسة على نفقته وبمفرده في المسجد الحرام؛ وذلك في سنة 1285 هـ/1868م، إلا أن وجود مدرسة في محيط المسجد الحرام يؤدي الغرض المنشود من حيث تنظيم الدراسة، كما كان ينشدها على غرار مدارس الهند الإسلامية والجامع الأزهر، وغيرها المدارس الإسلامية المنتشرة في بلدن العالم العربي، وقد وفق الله أحد أمراء الهنود المهاجرين المقيمين بمكة المكرمة فتبرع ببعض الأماكن من داره، وانتقلت مدرسة رحمت الله الهندي إلى هذه العمارة بمنطقة الشامية، وما إن سمع أهل مكة المكرمة عن فتح مدرسة مستقلة على نهج جديد حتى أقدموا على إلحاق أبنائهم بها، وضاقت الدار بالطلاب، واضطر المؤسس إلى نقل نصف طلابه إلى الحرم الشريف مرة ثانية، وكان الشيخ رحمت الله دائم السعي كثير الاجتهاد لبناء عمارة كبيرة مستقلة للمدرسة، فقد أدرك حاجة مكة المكرمة إلى مدرسة نظامية، ولكن كان ينقصه المال اللازم لإنشائها، وفي سنة 1290 هـ/1873 م، جاءت لأداء فريضة الحج سيدة هندية ثرية، تدعى صولت النساء[36]، وأبدت رغبتها في بناء رباط بمكة المكرمة، وكان زوج ابنتها على اتصال مستمر بالشيخ وعرض عليه رغبة صولت النساء، فأوحى لها الشيخ أن بمكة المكرمة الأربطة، وما ينقصها هو مدرسة تعنى بتعليم أبناء المسلمين، فاستحسنت صولت النساء هذا المشروع التعليمي الخيري، ودفعت الأموال اللازمة، لإقامة هذا الصرح العلمي، فاشترى قطعة أرض بحارة الباب وبنى أول بناية للمدرسة وكمل البناء سنة 1292 هـ/1875م، وسميت المدرسة باسم المدرسة « الصولتية» نسبة إلى المحسنة المتبرعة، وبدأ التدريس فيها عام1293 هـ / 1874م وتوسعت المدرسة، وأصبح لها عدة فروع في حي أجياد والمسفلة والهجلة، كما أصبح لها عدة بنايات، ففي سنة 1302

هـ/ 1884 م ابتدئ بتشييد مسجد المدرسة، وكمل البناء سنة 1304 هـ/1886 م، وقد كان المسجد مقر قسم الحفاظ سابقاً. وقد أقامت المدرسة مبنى سنة 1324هـ/ 1907م، وهذا المبنى يضم جميع الفصول والمكتبة، إضافة إلى مبنى رابع لطلاب القسم الداخلي يشتمل على عدة غرف وفرت فيها سبل المعيشة الضرورية، وقد سكن فيه عدد من الطلبة من جنسيات إسلامية وعربية مختلفة، كالعراقية واليمنية والسورية والتركية والإيرانية والهندية والإندونيسية والأفغانية والبخارية، كما أن المدرسة كانت توفر لجميع طلابها وجبة الفطور والغداء بالمجان، فقد كانت العادة أن يحضر الطلاب والمدرسون إلى المدرسة بعد صلاة الصبح، وبعد أداء نوافل الإشراق في المدرسة تقدم وجبة الفطور، ثم تبدأ الدراسة وتستمر حتى صلاة الظهر ، وبعد صلاة الظهر تقدم وجبة الغداء ولاشك أن نظام اليوم الكامل المعمول به في نظم التعليم الحديث يقتضي اعتماد الطالب على المدرسة لا في التعليم فقط، بل في تناول الوجبات الغذائية المناسبة أيضاً، فكان نظام الصولتية سابقاً عليه، وهو ما أفاد الطلاب، وكان تميزاً في التعليم جديداً على مدارس مكة المكرمة نسبياً[37].

عمارة المدرسة الصولتية:

تقع المدرسة الصولتية في الجهة الشمالية الغربية من الحرم المكي الشريف، ولقد وضعت أول لبنة أساسية لهذا المبنى في عام 1290هـ / 1873م، وهو أول بناء تاريخي للمدرسة بني على نفقة السيدة البارة/ صولت النساء بيغم والتي تبرعت بألف جنيه افرنجي للمساهمة في إنشائه، وهذا المبنى مستطيل الشكل تقريباً يمتد طوله إلى الداخل والخلف ويزداد في عرضه من الخلف. واجهة المبنى تطل على الجهة الشمالية حيث توجد برحة مربعة واسعة، ويقابله مسجد المدرسة، ويشتمل على دورين فقط علوي وأرضي مجموع غرفه ثمان غرف ما بين صغيرة ومتوسطة وكبيرة بالإضافة إلى قبو أرضي. وينقسم المبنى إلى قسمين أمامي وخلفي بينهما رحبة سماويـة فسيحة، المبنى تم بناؤه من الحجر واسقفه من الخشب العادي حسب الطريقة التي كانت متبعة آنذاك، وللمبنى باب واحد فقط في الواجهة الشمالية يدخل إليه بعد أربع درجات، يعلوه عقد نصف دائري ولعقب الباب دهليز صغير مسقف على يمينه دكة للجلوس وعلى يساره غرفة صغيرة مساحتها 2 × 3 م ، ويطل بابها على الرحبة السماوية التي تلي الدهليز ، وعلى يمين الرحبة حمامان صغيران، وبجانب باب الغرفة الصغيرة باب يؤدي إلى القبو المربع تحت الأرض ينزل إليه بدرجات، ويقابل الدهليز المذكور ديوان كبير مفتوح، نصفه مسقف مساحته 4 × 8م تقريباً[38]. وبجانبه مكان خصص للوضوء ووضع الأباريق وأزيار الماء للشرب. وفي الجانب الشرقي من المبنى فتحة سماوية أخرى كانت مزروعة وفيها شجر النيم وهو الموضع الذي إختاره الشيخ المؤسس أن يكون قبره فيه بعد وفاتـه، ولكنه لم يدفن هناك، بل في المعلاة. وعلى الرحبة السماوية الثانية يطل ديوان ثاني أكبر من الأول تبلغ مساحته 6 × 10م، وخلف الـديـوانـيـن المذكورين غرفتان منفصلتان عن بعضهما يدخل إليهما بدرج داخلي ولهما فتحتان للتهوية تطلان على الديوانين الكبيرين، كما أن لكل منهما فتحه مستقلة في الرحبة السماوية الداخلية، وتحت هاتين الغرفتين صهريجان (خزان أرضي) لتخزين الماء لكل منهما فتحتين صغيرتين، كان ماء المطر يصب فيها عبر مجرى في داخل الجدار من السطح إلى الصهريج، وبين الديوانين المذكورين حمامان منفصلان يتوصل إليهما عبر ممر ضيق يؤدي إلى الصهريجين والرحبة السماوية الخلفية وإلى الدرج الصاعد إلى الدور الثاني ، وفي لفات الدرج حمامان صغيران أما الدور الثاني من الجانب الخلفي من المبنى فيحتوي على مجلسين

طـويـلـيـن يطلان على الرحبة السماوية الداخلية والرحبة الخلفية يتوسط كل منهما عقد من الحجر يفصل بينهما بستار ويعلو المجلسين المذكورين سطح واسع بدون سور وقد مهدت أرضية هذا السطح تمهيداً فنيا معمارياً، حيث جرى تقسيم الأرضية إلى أقسام يستفاد منها في كيفية تصريف وتسرب مياه الأمطار منقسمة متفرقة عبر فتحة إلى مجرى يوصل إلى الصهريجين الأرضيين بحيث لا تصب المياه دفعة واحدة، وهكذا كان يستفاد من مياه الأمطار في المبنى المذكور وتكون مخزونة في الصهريج للاستفادة منها وفي السابق يتم سحبها بواسطة الدلو، وأما الآن فعن طريق الكهرباء ودينمو الماء، هذا وصف للجانب الخلفي مع المبني، أما الجانب الأمامي فيحتوي الدور الأرضي منه على الغرفة الصغيرة والقبو الذي تحتها، أما الدور الثاني فيشتمل على غرفة كبيرة ذات روشانين كبيرين يطلان على الواجهة الشمالية والرحبة السماوية الداخلية يصعد إليها بدرج حجري، ويعلو الغرفة سطح ذو سور دائري جميل يشتمل على فتحات ورفوف من الداخل وفيه من الأجور الملـون وقد بنيت فيما بعد غرفة صغيرة وحمام في جانب السطح، ومع مرور الزمان وتطور الأحوال وتغير الظروف تمت عدة عمليات إصلاحية للتغيير والترميم في الأبواب والرواشين والأسقف لقدمها وعدم جدواها، ولايزال هذا المبنى يستخدم كمقر لإدارة المدرسة واستقبال الضيوف والزوار[39].

الخاتمة:

ومن خلال ما تم ذكره تبين للباحثة ان الحياة العلمية في مكة كانت على قدر من التطور والازدهار، وكان للمدارس المنشأة دور كبير في هذا التقدم العلمي الذي زاد من نسب المتعلمين في المنطقة وشجع على العلم والمعرفة فضلًا عن اهتمامهم ليس بالجانب العلمي فقط، ولكن حتى في مساكن الطلبة هم وعائلاتهم، وتقديم الطعام لهم فسهلوا لهم الدراسة فصار طلب العلم أسهل حتى على القادمين من الخارج، ونتج عن ذلك طلاب مجتهدين شغوفين بطلب العلم.

التوصيات:

1. إن المدارس الملحقة بالمسجد الحرام كان التعليم فيها منصبًا على العلوم الدينية، كتفسير القرآن، وعلوم القراءات، والفقه.
2. حرص جميع السلاطين على إنشاء الكتاتيب، ومن ثم المدارس على مر العصور الإسلامية.
3. إن المدارس السليمانية كانت جامعة إسلامية ساهمت في نشر العلم بمختلف المذاهب الإسلامية.

الهوامش:

(1) (سورة البقرة - 151).

(2) السلمان: مساعد عبدالله، روضة مختصرة في فضل العلم وأهله من الكتاب والسنة، ط1، (د.م: د.ن،د.ت)، ص7.

(3) زيد بن ثابت الخزرجي الأنصاري، ولد في المدينة المنورة عام 11هـ/ 632م، وهو شيخ المقرئين، وإمام الفرضيين، وهو من الصحابة الذين أتموا حفظ القرآن، توفي عام 45هـ/ 665م، وعمره 56عام، انظر: الذهبي: شمس الدين، سير اعلام النبلاء، د.ط(د.م: موسوعة الرسالة، د.ت)، ص67.

(4) شبكة الألوكة: https://2u.pw/m1HNjy

(5) بيت الله الحرام، ويقال انها سميت مكة بسبب ازدحامها، ويقال ان مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت، انظر: الحموي: شهاب الدين، معجم البلدان، د.ط، (بيروت: دار صادر، 1397هـ/1977م)، ص 181.

(6) اسمها الأول يثرب، وسميت بذلك لان اول من سكنها بعد التفرق يثرب بن قانية، وعندما نزلها الرسول سماها طيبة.

انظر: الحموي: شهاب الدين، معجم البلدان، د.ط، (بيروت: دار صادر، 1397هـ/1977م)، ص430.

(7) شبكة الألوكة: https://2u.pw/m1HNjy

(8) هو الصحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم بن أسد الزهري، شهد بدرًا، وهو الذي كان رسول الله مستخفيًا في داره عند الصفا، وتوفي بالمدينة سنة 53هـ/ 673م، وقيل: 55هـ/ 675م. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، د.ط، (د.م: دار صادر، د.ت)، ج3، ص347.

(9) صديق: امال، الحياة العلمية في مكة المكرمة، د.ط، (مكة: مركز تاريخ مكة،1432هـ/2010م)، ص327-325.

(10) أقيمت المدرسة في الجانب الغربي من المسجد الحرام، سميت بالمدرسة الداودية نسبة الى منشئها داود باشا والي مصر في القرن العاشر الهجري، وكان يدرس فيها العلوم الشرعية والقرآن الكريم. انظر: صديق: الحياة العلمية في مكة المكرمة، ص337-336.

(11) المرجع نفسه، ص330-327.

(12) عرفها الرازي بقوله: الكُتَّاب بالضم والتشديد والمكتب واحد، والجمع الكتاتيب والمكاتب، أي موضع الكتابة. انظر: الرازي: محمد، مختار الصحاح، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1386هـ/1967م)، ص562.

(13) صديق، الحياة العلمية في مكة، ص255-254.

(14) عبد الله المرزباني حدثني أبو حازم القاضي قال: قال لي أحمد بن المدبّر أبو الحسن لو عمّرت مصر كلها لوفت بالدنيا، وقال لي: مساحة مصر ثمانية وعشرون ألف ألف فدّان وإنما يعمل فيها في ألف ألف فدّان، وقال لي: كنت أتقلّد الدواوين لا أبيت ليلة من الليالي وعليّ شيء من العمل، وتقلّدت مصر فكنت ربما بتّ وعليّ شيء من العمل فأستتمه إذا أصبحت، قال: وقال لي أبو حازم القاضي: جبى عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، اثني عشر ألف ألف دينار فصرفه عثمان وقلّدها عبد الله بن أبي سرح فجباها أربعة عشر ألف ألف، فقال عثمان لعمرو: يا أبا عبد الله أعلمت أن اللّقحة بعدك درّت؟ فقال: نعم، ولكنها أجاعت أولادها.

انظر: الحمودي، شهاب الدين، ص138.

(15) توفي بمصر سنة 493هـ/1099م، وهو مشهور بكثرة البر والصدقات بمصر والحجاز. انظر: الفاسي: محمد احمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط1(د.م: دار الكتب العلمية، 1421هـ/ 2000م)، ص430.

(16) صديق، الحياة العلمية في مكة، ص378-374.

(17) هي من مدارس بغداد القديمة أنشأها الوزير نظام الملك في زمن الخليفة العباسي أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله، ولهذه المدرسة شهرة عظيمة، كان يدرس فيها مختلف العلوم واعتبرت مع المدرسة المستنصرية من أشهر مدارس العصر العباسي.

انظر: حسين: امين، الامام الغزالي مدرس المدرسة النظامية ببغداد، د.ت، (العراق: جامعة بغداد، د.ت)، ص343

(18) هورخرونية: سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، د.ط (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، 1419هـ/ م1999)، ص 487.

(19) هو أبو جعفر «المستنصر بالله» المنصور بن محمد الظاهر، كان خليفة عباسي حكم في بغداد بين عامي (640-623) هـ / (1226– 1242) م. انظر: الذهبي: شمس الدين، سير اعلام النبلاء، د.ط(د.م: موسوعة الرسالة، د.ت)، ص83.

(20) هو قايتباي المحمودي الاشرفي، سلطان الديار المصرية، وهو من المماليك البرجية، تولى حكم ولقب بالملك الاشرف وكانت فترة حكمة حافلة بالحروب. انظر: عفيفي: محمد ناصر محمد، دراسة اثارية معمارية وثائقية لوكالة السلطان الأشرف قايتباي وملحقاتها بالسروجية بالقاهرة، ص379.

(21) هورخرونية، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص 487.

(22) أحد أشهر السلاطين العثمانيين، حكم لفترة 46 عامًا، منذ عام 927هـ/ 1520م، وبذلك يكون صاحب أطول فترة حكم بين السلاطين العثمانيين. انظر: امجان: فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ط١، (مصر: دار النيل للطباعة والنشر، 1435هـ /2014م)، ص14.

(23) الهند تقع في اسيا ذات مساحة كبيرة.

(24) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص490-489.

(25) لم أجد تعريف للشخصية.

(26) مات الأمير قاسم بك الصغير وهو أيضا من اتباع إبراهيم بك أبي شنب وكان فرعون هذه الطائفة في دولة محمد بك جركس وهو من جملة المتعصبين مع ذي الفقار على قتل إسمعيل بك ابن ايواظ والضارب فيه أيضا وفي إسمعيل بك جرجا ولم يزل حتى مات في رمضان بولاية البهنسا.

(27) الجبرتي: عبد الرحمن حسن، د.ط(القدس: مطبعة برينتيف، 1433هـ/ 2012م)، ص188.

(28) لم أجد تعريف للشخصية.

(29) أشهر معماري عصره والدولة العثمانية على مدار تاريخها، والذي قام بتنفيذ أهم منشآت السلطان سليمان في إستانبول والحجاز.

(30) احمد، عبد المنعم، المدارس السليمانية في مكة المكرمة، ودورها العلمي، إبان القرن الحادي عشر الهجري، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، مصر، ع37، 2018م، ص754.

(31) ولد السلطان سليم الثاني في 6 رجب سنة 930 هجرية (الموافق 10 مايو سنة 1533م)، وهو ابن روكسلان الروسية، وتولى الملك بعد موت أبيه. انظر: فريد: محمد، تاريخ الدولة العثمانية، د.ط (د.م: د.ن، د.ت) ص151.

(32) أحمد، المدارس السليمانية في مكة المكرمة، ص753-751.

(33) لولا وجود الوزير الطويل محمد باشا الصقلي المدرب على الأعمال الحربية السياسية لفشلت الدولة، لكنَّ حُسن سياسة هذا الوزير وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظتها من السقوط مرة اخرى. انظر: محمد، تاريخ الدولة العثمانية، ص151.

(34) أحمد، المدارس السليمانية، ص754.

(35) من المدن المعروفة فيها إمارة من إمارات منطقة مكة تتبعها قرى انظر: الجاسر: حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ج1، د.ط(الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د.ت)، ص356.

(36) علي، سحر، أشهر مدارس مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي- المدارس السليمانية أنموذجًا، مجلة فنون الفراح، العراق، ع12، 2020م، ص203-201.

(37) هو محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي الهندي الحنفي، نسبه ينتهي الى عثمان بن عفان عند الجد الرابع والثلاثين، ولد في قرية كيرانه التابعة لمحافظة (مظفر ناجار) من توابع دلهي عاصمة الهند في عام 1233هـ/ 1818م.

(38) الموسوعة الحرة: https://cutt.us/Au7Bg .

(39) صولت النساء بيغم قدمت من الهند، وكانت قد ترملت، وحصلت على ميراث زوجها، فعزمت على إنفاق ذلك الميراث في أداء فريضة الحج وبناء رباط في مكة.

(40) وقفنا: https://cutt.us/lWwCT .

(41) صديق، الحياة العلمية في مكة، ص381-378.

(42) الفقيه، عبد العزيز، المدرسة الصولتية، رسالة ماجستير، تربية إسلامية، (مكة المكرمة: جامعة ام القرى، 1415هـ/ 1994م)، رسالة منشورة ص58.

(43) الفقيه: عبد العزيز، المدرسة الصولتية، رسالة ماجستير، تربية إسلامية، (مكة المكرمة: جامعة ام القرى، 1415هـ/ 1994م)، ص60.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتب المصدرية:

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، د.ط، (د.م: دار صادر، د.ت)، ج3.

(2) أحمد: عبد المنعم، المدارس السليمانية في مكة المكرمة ودورها العلمي إبان القرن الحادي عشر الهجري، د.ط، (مصر: جامعة الأزهر-مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، 1440هـ/ 2018م).

(3) امجان: فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ط1،(مصر: دار النيل للطباعة والنشر، 1435هـ/ 2014م).

(4) الجاسر: حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ج1، د.ط(الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د.ت)، ص356.

(5) الجبرتي: عبد الرحمن حسن، د.ط(القدس: مطبعة برينتيف، 1433هـ/ 2012م).

(6) حسين: امين، الامام الغزالي مدرس المدرسة النظامية ببغداد، د.ط(العراق: جامعة بغداد، د.ت).

(7) الحموي: شهاب الدين، معجم البلدان، د.ط، (بيروت: دار صادر، 1397هـ/1977م).

(8) الذهبي: شمس الدين، سير اعلام النبلاء، د.ط(د.م: موسوعة الرسالة، د.ت)، .

(9) الرازي: محمد، مختار الصحاح، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1386هـ/1967م).

(10) السلمان: مساعد عبدالله، روضة مختصرة في فضل العلم وأهله من الكتاب والسنة، ط1، (د.م: د.ن،د.ت).

(11) شبكة الألوكة: https://2u.pw/m1HNjy

(12) صديق: امال، الحياة العلمية في مكة المكرمة، د.ط (مكة: مركز تاريخ مكة، 1432هـ/ 2010م).

(13) عفيفي: محمد ناصر محمد، دراسة اثارية معمارية وثائقية لوكالة السلطان الأشرف قايتباي وملحقاتها بالسروجية بالقاهرة.

(14) علي: سحر، أشهر مدارس مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي- المدارس السليمانية أنموذجًا، (العراق: مجلة فنون الفراح، 1442هـ/ 2020م).

(15) الفاسي: محمد احمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط1(د.م: دار الكتب العلمية، 1421هـ/ 2000م).

(16) فريد: محمد، تاريخ الدولة العثمانية، د.ط(د.م: د.ن، د.ت)، ص151.

(17) الفقيه: عبد العزيز، المدرسة الصولتية، رسالة ماجستير، تربية إسلامية، جامعة ام القرى، 1415هـ/ 1994م.

(18) الموسوعة الحرة: https://cutt.us/vj5D9

(19) موضوع: https://cutt.us/Sau2Y

(20) موقع رسول الله: https://shortest.link/aaRN

(21) هورخرونيه: سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة،د.ط، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، 1419هـ/ 1999م).

(22) وقفنا: https://cutt.us/lWwCT

موضي البسام ودورها الحضاري والسياسي
(1270-1363هـ/1853 - 1944م)
(دراسة تاريخية حضارية)

أ.خلود محمد مساعد الشهري
طلبة ماجستير - قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

مستخلص:

تسعى هذه الدراسة لإبراز دور المرأة في نجد من الناحية الحضارية والسياسية، ووقوفها جنبا الى جنب مع الرجل أماً وأختاً وزوجةً وبنتاً، فساندته فكانت نعم الظهير له. شاركت المرأة في التاريخ الحديث مشاركة فاعلة فساهمت في بناء الدولة السعودية في أدوارها الثلاثة، ومن أشهرهن شخصية موضي البسام التي عرفت بأعمالها الخيرية، وقد عاصرت موضي احداثاً تاريخية وتقلبات سياسية، الا ان ذلك لم يزدها الا قوة وصلابة، ومن الاحداث التاريخية التي عاصرتها المحسنة موضي البسام وكان لها دورا فعالا فيها معركة الصريف والتي كانت بين حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح وجيش امير حائل عبدالعزيز بن متعب ال رشيد، والتي تلقى فيها الطرف الأول بالهزيمة مما أدى الى تفرق جنوده في بلدان القصيم ورغم ان عنيزة آنذاك كانت تابعة لحائل وبالتالي تحت سلطة ال رشيد الا ان موضي قامت بإيواء واستضافة عددا من جنود ال صباح المهزومين، كما كان لها أدوارا كثيرا حيث انها كانت تساعد الفقراء والمساكين، حتى انهم اطلقوا عليها اسم ام المساكين، وقد اعتمدت الدراسة على استخدام المنهج التاريخي القائم على جمع المعلومات وتحليلها واستخلاصها، معتمدة على الأسلوب الاستقرائي، لإبراز دور موضي البسام الحضاري والسياسي، ووصلت الباحثة الى عدد من النتائج كان من أهمها: تمتلك موضي البسام شخصية تتميز بالحكمة والعقل الراجح حيث انها مكنتها من تقديم دور بارز في العصر الحديث، فبروحها الحانية وحبها للخير استطاعت ان تحظى بتقدير من الملك عبدالعزيز بناء على ما قدمته من مساعدات خيريه، وبالرغم من تقدمها في السن الا انها استمرت في الاعمال الخيرية حتى وفاتها.

الكلمات المفتاحية: المحسنة، موضي البسام، ام المساكين، امرأة بألف رجل.

Moody Al-Bassam and its cultural and political role
(1270-1363 AH / 1853-1944 AD)
(A Historical and civilizational study)

A.Kholood Mohammed Mousad Alshehri

Abstract:

This study seeks to highlight the role of women in Najd in terms of civilization and politics, and standing side by side with the man mother, sister, wife and daughter, so I supported him and was yes to him. Women have actively participated in recent history, contributing to the building of the Saudi state in its three roles. One of the most famous of them is the personality of Moudi al-Bassam, who is known for her

charitable work, Modi has experienced historical events and political upheavals, but this has only strengthened her strength and solidity. One of the historical events witnessed by Moudi Al-Bassam and had an active role in the battle of Sarif, which was between the ruler of Kuwait Sheikh Mubarak Al-Sabah and the army of the prince of Hail Abdulaziz bin Mutaib Al-Rashid, In which the first party was defeated, which led to the dispersal of its soldiers in the Qassim countries, although Onaiza at the time belonged to Hail and therefore under the authority of Al-Rashid, but Moudi sheltered and hosted a number of soldiers of the defeated Sabah , as she had many roles where she was helping the poor and the poor, so they called her Mother of the Poor. The study relied on the use of the historical approach based on the collection, analysis and extraction of information, based on the inductive method, to highlight the role of the civilizational and political history of moudi Al-Bassam, The researcher reached a number of results, the most important of which was: Moudi Al-Bassam has a personality characterized by wisdom and a successful mind as it enabled her to provide a prominent role in the modern era, as her spirit and love of goodness was able to receive appreciation from King Abdulaziz based on what she provided of charitable assistance, and despite her age, she continued in charity until her de ath.

Keywords: Enhanced, Al Bassam, Mother of the Poor, a woman with a thousand men.

المقدمة:

برز في تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث سواءً قبل توحيد البلاد أو بعده عدداً من الرجال والنساء الذين وقفوا بجانب الملك عبد العزيز وقفة المصاول والمجاول مما جعل المؤسس يقدرهم ويشيد بوقفاتهم، وكانت بلدة عنيزة من البلدان التي أنجبت الكثير من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان في حياتهم، وتعطر المجالس بذكراهم بعد مماتهم. ولم تقتصر بلدة عنيزة بإنجابها للرجال فقط بل أنجبت هذه البلدة عدداً ليس بالقليل من النساء اللاتي شاركن شقائقهن الرجال في المساهمة في أعمال الخير والفضيلة، ومن هؤلاء النسوة المحسنة موضي البسام، وهي من أحد الأعلام النسائية الرائدة في عنيزة، حيث ارتبط اسمها بمثل متداول في القصيم ونجد حتى يومنا هذا وهو «لي جاك ولد سمه موضي» كناية عن تفوقها على الرجال بالشجاعة والإقدام في الملمات والمبادرة إلى أعمال الغوث والبر والإحسان، علاوةً على تميزها بأعمال الخير والإنفاق، ورغم معاصرة موضي للكوارث الطبيعية التي كانت تلم بالمنطقة من جهة وأحداث جسيمة وتقلبات سياسية وحربية في المنطقة من جهة أخرى إلا أن ذلك لم يثنيها عن مد أياديها البيضاء لمجتمعها

وهبت لمساعدته في كل الظروف فكانت الملجأ لكثير من الناس، حتى صارت مثالاً يحتذى به في قوة الإرادة والصلابة وعمل الخير. وبناء على ما سبق رغبت الباحثة في ابراز دور موضي البسام الحضاري والسياسي كونها شخصية نسائية رائدة في عمل الخير، وذلك في فترة انتقالية في تاريخ المملكة بشكل عام ونجد بشكل خاص، كما ان هناك عوامل أخرى تكمن في اختيار هذا الموضوع:

1.نُدرة الدراسات العلمية التي كتبت عن سير نساء نجد في الدولة السعودية.

2.تسليط الضوء على إسهامات موضي البسام السياسية في فترة حرجة من تاريخ المنطقة.

3.رصد النشاطات الخيرية التي ساهمت فيها موضي البسام.

التمهيد:

فقد حفل تاريخنا -ولله الحمد- منذ ظهور الإسلام بعدد كبير من المتميزين من الرجال والنساء الذين منَ الله عليهم بالتحلي بالصفات الطيبة والأخلاق الكريمة والقيام بالأعمال الجليلة الخيرة التي كانت السبب في تخليد ذكراهم وتسطير مآثرهم الحميدة، كما انها حظيت المرأة على مر التاريخ بمكانة كبيرة في تاريخنا العربي والإسلامي، وكان لها دوراً بارزاً ومؤثراً في كافة جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي دونت في التاريخ، وظهر على أثرها نساء عالمات وفقهيات ومحاربات شاركن في صنع التاريخ بسيرهن العطرة على مر العصور[1].

كما انها شاركت المرأة في التاريخ الحديث مشاركة فاعله في محيطها ومجتمعها وفقاً للأوضاع التي تعيشها ويشهد لها التاريخ بذلك، فكان لها حظها ونصيبها الوافي والوافر في تاريخنا العربي والإسلامي، ففي مسيرة بناء الدولة السعودية وقفت المرأة الى جانب مجتمعها فكانت نعم السند له، كشخصية موضي بنت عبد الله بن حمد البسام التي عرفت بأعمالها الخيرة ومواقفها في سنين المسغبة والفقر والمجاعة التي شهدتها بلاد نجد في النصف الأول من القرن الرابع عشر، ووقوفها موقفاً شجاعاً في معركة الصريف والبكيرية ومخاطرتها بذلك رغم إدراكها لتبعاته يكشف لنا جانباً مهماً من شخصية موضي التي تمتعت بها، ولم تقتصر عليها فقط بل عُرفت موضي بمساندتها للمحتاجين وكانت تهب لمساعدة مجتمعها في أوقات الشدة والكوارث الطبيعية التي كانت تلم بالبلاد، وبذلك مثلت موضي البسام نموذجاً نسائياً يقتدى في فترة غير مستقرة من البلاد ومع ذلك لم تتوانىء في مساعدة ومساندة من حولها[2].

نشأة موضي البسام وحياتها:

نشأت المحسنة موضي العبد الله في عنيزة، وتوفي والدها – رحمه الله – قبل بلوغها سن التمييز وتعلمت القراءة والكتابة وحفظت بعض سور المفصل من القرآن برعاية والدتها هيا الناصر السعدي وتوجيه وإرشاد عبد الله العبد الرحمن الحمد البسام الذي تعين وكيلا على المحسنة وأختها القاصرتين بعد وفاة والدهما، ثم تزوج من أمهما، فانتقلت المحسنة وأختها إلى بيت زوج والدتهما الذي خلف أخاه محمد وبعض أبناء عمومته في عمادة أسرته منذ العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجري وقام - رحمه الله - بعمل الوكالة خير قيام حيث عزل الثلث الموصي به من قبل والد المحسنة، وقسم الباقي بين الورثة والعصبة، واستمر في الاشراف على نصيب زوجته وابنتيها، ومن الأمثلة على ذلك، قيامه ببيع أرض لوالد المحسنة الحمد في المسهرية[3] على رشيد البراهيم الدغيثر في عام ١٢٨٦ه/1869م[4]. وقد أعجب الوجيه عبد الله العبد

الرحمن بتربية المحسنة منذ صغرها وتفرس فيها الفطنة والحكمة وحب الخير فأشار على أكبر أبنائه عبد الرحمن بالزواج منها فاستحسن رأي أبيه ووافق على ذلك، وقد عمل عبد الرحمن بالتجارة مع والده فكان يسافر إلى الحجاز والعراق في سبيل ذلك، وقد كتب والده عبد الله في عنيزة رسالة إلى ابن عمه حمد المحمد العبد العزيز في البصرة عام 1295هـ/1878م، أشار فيها إلى إرساله عدة رسائل مع أبو شيبة، وعن طريق بغداد بواسطة العساقي، وأفاد بوصول ابنه عبد الرحمن، ومحمد إلى عنيزة، وتماثلهما للشفاء من التعب الذي ألم بهما، كما أفاد عن نية ابنه عبد الرحمن التوجه إلى الحجاز الشهر القادم بصحبة محمد السليمان للتجارة[5].

نسب موضي البسام وولادتها:

هي موضي بنت عبدالله بن حمد بن عبد القادر بن حمد البسام من الوهبة من تميم، ولدت في عنيزة1270هـ/1853م[6]، وتنتمي إلى اسرة عريقة ينتهي نسبها إلى آل وهبة من قبيلة تميم، وكانت بلدة أشيقر الموطن الأول لأسرتها، ثم انتقل جد الأسرة من تلك البلدة إلى ملهم ثم إلى حرمة، ثم استقرت الأسرة في مدينة عنيزة سنة 1175هـ/ ١٧٦١م، وأصبحت البلدة الأخيرة موطنا لآل بسام[7]. وقد اشتهر عدد من أفراد أسرة البسام في عنيزة بالتجارة، وأصبحوا على درجة من الغنى والثروة، ومن بين هؤلاء والد موضي: عبدالله بن حمد العبد القادر البسام، الذي فقدته وهي صغيرة السن، فعاشت يتيمة، وكانت وحيدته، جنت قسطاً من التعليم فحفظت شيئاً من القرآن، وتعلمت القراءة وبعض العلوم الشرعية، تزوجت من عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن البسام وكان يعمل في التجارة مع والده، وتوفي زوجها في عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، فعكفت على تربية أبنائها، وسعت إلى تنشئتهم تنشئة صالحة، وبعد سنوات فقدت موضي أبنائها وبناتها، وعاصرت موضي العبدالله أحداثاً جسيمة وتقلبات سياسية وحربية في المنطقة كانت فيها موضي مضرب المثل في قوة الإرادة والصلابة وعمل الخير بغض النظر عما يمكن أن يصيبها بسببه[8]، ومن المؤكد أن توالي هذه الأحداث المؤثرة جعلها تنصرف بشكل كبير إلى عمل الخير وهو أمر اشتهرت به، كما تكشف هذه الأحداث عن قوة شخصيتها وصلابة إرادتها وعن إيمانها بالله عز وجل[9].

زواجها:

أما بالنسبة لزواجها فقد تم الزواج في العقد الأخير من القرن الثالث عشر، ورزقت المحسنة بابنين وأربع بنات فأما الابنان فهما حمد وكانت ولادته في عام 1312هـ/1894م، وتوفي -رحمه الله- عام 1337هـ/1918م، والابن الآخر هو إبراهيم وقد ولد في عام 1314هـ/1896م، وتوفي -رحمه الله- عام ١٣٩٨هـ/1977م، وله من الأبناء عبد الرحمن وحمد وكل منهما رزق بأولاد بارك الله فيهما وفي عقبهما، وأما البنات فهن:

1. نوره ولها ولد وبنت
2. حصة ولها ثلاث بنات
3. مضاوي ولها ثلاثة أولاد وبنت.
4. لولوه ولها بنتان تزوجت احداهن من الملك سعود-رحمه الله- وقد توفي حمد واخواته الاربع في حياة والدتهم وكانت وفاة حصة ولولوه في يوم واحد من سنة 1337هـ/1918م، المعروفة بسنة الرحمة[10].وكما ذكرنا سابقا عندما توفي زوجها، ونال أولادها ما نالوه من اليتم فقامت

على تربيتهم، وتوفوا جميعاً في حياتها باستثناء إبراهيم فقامت بتربيته وتربية أبناء بناتها والعطف عليهم إلا أن عطفها وحنانها وكرمها لم يقتصر على ذريتها فقط بل تجاوز ذلك إلى الآخرين الذين كانوا بأمس الحاجة إلى مثل هذا الكرم والعطف بسبب ما يمر به الناس من ظروف اقتصادية وأمنية صعبة في النصف الأول من القرن الرابع عشر[11].

ومن أعمالها ومآثرها الحميدة:

كانت المحسنة على قدر كبير من اليسار فقد اختصت بثلث تركة والدها الذي كان صاحب محل تجاري في جدة، وله عقارات ومعاملات تجارية في عنيزة[12].

واشارة لماسبق فقد اتضح ان المحسنة كان لديها المال الوفير الذي تركه له والدها والذي ساعدها على ان تقوم بكل هذه الأعمال والمساعدات الخيرية.

أما بالنسبة لسماتها الشخصية فقد اتسمت بعدة صفات ومنها:

الحكمة:

عرفت موضي البسام بالحكمة والعقل الراجح والفكر الصائب منذ نعومة أظفارها، فبعد وفاة والدها عين ابن عمه عبد الله بن عبد الرحمن البسام وكيلاً عليها وعلى أختها، وقد أعجب عمها عبد الله بتربيتها الحسنة، ووجد فيها الفطنة والحكمة وحب الخير، فاختارها زوجة لابنه عبد الرحمن[13].

التدين:

كانت موضي البسام كذلك تتصف بالدين والورع، فاشتهرت بأعمال الخير والبر والإحسان والعطف على الفقراء، كما انها كانت من اعمالها الخرية تقوم بتجهيز الموتى وتستأجر من يغسلهم وتتكفل بما يحتاجونه من الكفن وحفر القبر، وجميع ما يحتاجه أهل الميت، ومن أعمالها الخيرية أيضا كانت في شهر رمضان تقوم بتجهيز مصلى الرجال بالبخور، وكانت توزع كثيرا من الصدقات والمؤن قبل الإفطار على الفقراء والمساكين[14].

الصبر:

ابتليت موضي بفقد زوجها الذي لم يعمر -رحمه الله-، فصبرت على ذلك واحتسبت اجرها عند الله، وتفرغت لتربية أولادها وتنشئتهم خير تنشئة، لقد كان الصبر السمة البارزة في حياتها[15]، وزاد ابتلاؤها ففقدت أكبر أبنائها حمد، ثم فقدت بناتها الأربع، ولقوة إيمانها بالله عز وجل صبرت واحتسبت مصابها عند الله تعالى وبلغ هول مصابها أن ابنتيها حصة ولولوة قد ماتتا في يوم واحد عام 1337هـ/ 1918م، بسبب وباء الكوليرا [16]الذي اجتاح نجدا في تلك السنة، ثم ماتت ابنتيها نوره ومضاوي بعد مدة، فكانت صابره ومحتسبه، تدخر اجرها و ثوابها عند الله[17]. ومن الجدير بالذكر ان المحسنة موضي تعرضت لمصائب كثيرة فكانت صابره ومحتسبة أجرها عند الله فالصبر فضيلة عظيمة تميز بها الأنبياء والصديقون، فهذه المصائب لم تجعلها تيأس بل العكس زادت قوتها وايمانها بالله.

العلم:

غلب على التعليم في نجد طابع البساطة، والاتجاه نحو تعلم العلوم الدينية والاهتمام بالتعاليم والمبادئ السلفية، كما كان نظام الكتاتيب منتشرا في نجد، وكانت القراءة والكتابة وقواعد الإملاء والحساب

هي أهم المواد التي يتعلمها الأولاد الذكور، وكان للنساء أو البنات كتاتيبهن الخاصة بهن، فهن يحضرن عند المعلمة، ويتعلمن قراءة القرآن وأحكام الدين، والكتابة، وبعض مبادئ الحساب، ولقد كان تعلم القراءة والكتابة وأحكام الفقه وحفظ القرآن هي أهم مواد التعليم اللازمة للمرأة في ذلك الوقت[18].

خصوصا إذا ما علمنا أنها هي المواد نفسها المتوافرة للرجال آنذاك، ولم يكن متيسرا للمرأة الارتحال لطلب العلم إلى حواضر العلم المتوافرة للرجال آنذاك، وأيضا لم يكن لها متيسرا الارتحال إلى حواضر العلم ومراكزه المجاورة لنجد في الحجاز والشام والعراق، ولقد كانت بعض الأسر تستعين ببعض النساء المتعلمات ليدرسن بناتهن القرآن ومبادئ القراءة والكتابة، وسعت هيا بنت ناصر السعدي والدة موضي البسام إلى تعليمها وهي صغيرة، فعلمتها القراءة والكتابة، كما حفظت موضي القرآن الكريم برعاية والدتها، وقد استفادت موضي كذلك من قرب منزل أهلها من جامع عنيزة فكانت تسمع المواعظ والأحكام الشرعية من فقهاء هذا الجامع وعلمائه[19]. واشارة لما سبق انه وقتذاك لم تكن تتوفر في عنيزة مدارس نظامية، ومع ذلك لم يمنع موضي من التعليم، ومن الالتحاق بالكتاتيب التقليدية المتاحة لتحفظ القرآن الكريم وتنال قسطاً من العلوم الشرعية ومبادئ القراءة تحت رعاية والدتها وعمها، وهذا يدل على حرصها وحبها للعلم.

إسهامات موضي البسام الإنسانية:

وما تقدم من حديث عن والد المحسـنة ووالدتها وزوجها وأعمالهم تجارية يتضح المستوى الاقتصادي الجيد للمحسنة وأبنائها، وقد قامت بتنمية مالها حسب استطاعتها وبالتوجيه والإشراف من الوكيل عليها في صغرها وابنه عبد الرحمن بعد زواجها منه كما قامت بتنمية مال أولادها بعد وفاة والدهم، وكانت تنفق عليهم من مالهم، أما مالها الخاص فكانت تنفق منه على مشروعات البر والخير ومساعدة المحتاجين حيث قامت بأعمال خيرة كثيرة خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر[20].

ويمكن تقسيم هذه الأعمال إلى قسمين:

القسم الأول: أعمال يومية وهي توزيع كمية من التمر والبر على المحتاجين، وأنفقت في ذلك الأموال الطائلة، وكانت تتولى الإشراف بنفسها على ذلك وتتابع الخدم في توزيع الاطعمة على البيوت، وكانت وترافق النساء الموكلات بتنفيذ ذلك، كما كانت تتقصي وتسأل عن الأسر المحتاجة والأشد حاجة لتقديمها على غيرها، وتحديد الكمية التي تعطي لها لأن أغلب الناس في أكثر سنوات تلك الفترة كانوا في حاجة إلى المساعدة والمتوفر لديها من التمر والبر لا يكفي الجميع، وهذا القسم أعماله روتينية يومية ولا يحتاج إلى الوقوف عنده[21].

اما القسم الثاني: ويتضمن الحديث عن الأعمال التي قامت بها المحسنة، في مساعدة أهل بلدتها ومن حولهم في ظروف الشدة التي ألمت بسبب الحروب، أو زيادة الأمطار، أو الجوع، أو انتشار الأوبئة، وسنتحدث عن أهم هذه الأعمال لاحقا[22].

أعمال موضي البسام الخيرية:

في عام 1322هـ/1904م، نزلت امطار غزيرة على عنيزة، ونتج عنها تهدم العديد من البيوت وتضرر الكثير منها، فقامت المحسنة على قدر استطاعتها بمساعدة من تضرروا، وكان عايد الصقيري حامل بيرق عنيزة ممن تهدم بيته بسبب هذه الأمطار، واحتاج إلى خشب الأثل وجريد النخل لإصلاح بيته وطلب ذلك من

أصحابه وكبار أهل البلد فاعتذروا منه، وأشار عليه بعضهم بطلب ذلك من العمه موضي وهي المحسنة، فأجاب بعدم استطاعته ذلك بسبب مشاركته في نهب بعض بيوت أسرتها في يوم السطوة، فرد عليه صاحبه بأن العمة صاحبة خلق فاضل ولن تمتنع عن مساعدتك بسبب ذلك، فقد ذهب الصقيري إلى المحسنة على استحياء شديد، وشرح لها حاجته فأجابته إلى طلبه وحولته إلى مزرعتها[23]، ليأخذ كامل حاجته من خشب الأثل وجريد النخل ، ففرح الصقيري وصار يدعو لها ويثني عليها في المجالس، وسأله أحدهم في مجلس الأمير هل قضيت لازمك من الخشب والجريد فقال نعم فسأله من ساعدك في هذا فقال: (إذا جاك ولد سمه موضي)، وفي إحدى زيارات الملك عبد العزيز رغب أحدهم في التندر وإحراجه فسأله قائلا إذا جاك ولد ماذا تسميه، وهمس بعض الحاضرين قل عبد العزيز إلا أن الصقيري كرر إجابته السابقة فضحك الملك ويروي أنه قال (تستاهل بنت عبد الله والنعم بها وليت النساء مثلها)[24]. وعلى ضوء ما سبق ترى الباحثة ان هذه القصة توضح لنا حسن خلق المحسنة وأنها لم ترد الإساءة بمثلها، حتى انها ساعدت الشخص المشار اليه في القصة الذي اساء لها ونهب بعض بيوت اسرتها، حتى ان هذه الحادثة لم يكن مر عليها وقت طويل فيوم الاعتداء كان الخامس من محرم، وبداية نزول الأمطار الغزيرة كان في اليوم الثالث عشر من الشهر نفسه، ومع ذلك لم تتوقف عن مساعدته.

مساعدة المحتاجين:

في عام 1327هـ/1914م، أصاب الناس مسغبة شديدة، وعرفت تلك السنة بسنة الجوع، ولا شك أن اقتصاد البلاد في ذلك الزمن كان ضعيفا إلا أن الجوع الذي حصل للناس ليس سببه الأساسي شدة المؤونة، بل إن الناس أصبحوا يحتاجون لكميات من الطعام أكثر من القدر المعتاد، واشتدت المسغبة بالناس حتى أكلوا العظام والنوى والأعشاب والميتة في حالات نادرة، ومما لاشك فيه انه كان للمحسنة دور كبير في مساعدة المحتاجين فقامت جواريها بتوزيع كميات التمر المتوفرة عندها، وبعد نفادها اشترت كميات اخرى، واستأجرت عددا من النساء، ووكلت إليهن مهمة توزيعه على بيوت المحتاجين مع قيامها بمساعدتهن والإشراف الكامل على عمليات التوزيع ساعدة[25]. وفي عام 1337هـ/1923م، أصيب الناس بنوع من انواع الأوبئه وهو مايسمى بمرض الكوليرا، وعرفت هذه السنة بسنة الرحمة، نتيجة لكثرة الوفيات فيها بسبب هذا المرض، وقد توفي في عنيزة وحدها ما يقارب الالف من الرجال والنساء، وكان قسم من هؤلاء الموتى يعول أطفالا وأيتاما وكبارا في السن فكان هؤلاء بحاجة ماسة إلى المساعدة، وهنا يأتي دور المحسنة فقامت بمثل ما قامت به قبل عشر سنوات من توزيع الطعام – وفي مقدمته التمر – على المحتاجين[26]. ولم يقتصر عملها في هذه السنة الشديدة على الناس على توزيع الطعام فقامت بمهمة أخرى وهي تجهيز الموتى كما ذكرنا سابقاً، وأجرة المغسل والمغسلة والميت يحتاج إلى الكفن وإلى حفر القبر، وهذه كانت تثقل على الكثيرين خاصة من فقدوا عائلهم الوحيد الذي كان يعمل ليجد قوته وقوت عياله ليوم واحد فكان للمحسنة، دور كبير في المساعدة في عملية تجهيز الموتى فكانت ترسل إلى ذويهم بالأكفان ومستلزمات التجهيز، وأجرة حفر القبر[27]. ومن أعمال البر التي كانت تقوم بها المحسنة عتق الرقاب، ومن الأمثلة على ذلك عتقها لجاريتها مبروكة وكانت المحسنة-وهي العارفة بأحوال الناس وحاجتهم - تعلم صعوبة عتق الرقيق وخاصة الأنثى وتركها بدون منزل تقيم فيه ولذلك فإن المحسنة أعتقت هذه الجارية واشترت لها بيتا بخمسين ريالا لتقيم فيه

وليكون دافعا ومشجعاً على الزواج منها، وبعد فترة من الزمن قامت مبروكة بتوقيف البيت والوصية بصرف ريعه بأعمال البر ووكلت عمتها المحسنة في تنفيذ ذلك[28]. وكانت المحسنة تعامل جواريها المملوكات معاملة طيبة وتزوج من يرغب منهن في ذلك، وتتابع من تعفف منهن، ومما يذكر في هذا المجال أن إحداهن سافر عنها زوجها إلى البحرين وطال سفره، وانقطعت أخباره عن زوجته، وكانت المحسنة تتألم لوضعها وتحاول التخفيف عنها وجبر خاطرها ومن أساليبها في ذلك، شراؤها الهدايا المتنوعة بين فترة وأخرى وإرسالها إلى زوجته باعتبارها هدية من زوجها فكان ذلك أسلوبا ناجحا في إدخال السرور والفرح عليها، وزيادة أملها في قرب رجوع زوجها [29].

مشاركة موضي البسام في الحياة السياسية:

ومما ذكر في سيرتها أنها عاصرت أحداثاً جساماً وتقلبات سياسية ومعارك حربية تاريخية، فلم يزدها ذلك إلا قوة وصلابة وعزيمة واستمراراً في أعمال البر والإحسان، حتى صارت مضرباً للأمثال ووصلت شهرتها إلى قادة وملوك وأمراء عصرها، بدليل أن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود طيب الله ثراه توفي عام 1372هـ/1953م، كان حريصا على زيارتها للسلام عليها كلما مرّ بعنيزة، بل كان ينعتها بـ«العمة موضي» احتراماً وتقديراً لها[30].

كان الملك عبد العزيز – رحمه الله – يقدر للمحسنة أعمالها الجليلة، ويدعو لها وقد كتب لها ولابنها إبراهيم في عدد من المناسبات، كما كان الملك ووالده الأمير عبد الرحمن – رحمهما الله– يقدران جدا أولاد المحسنة وأسرتها منذ دخول الإمام عبد العزيز إلى عنيزة في عام ١٣٢٢هـ/1904م، فقد كتب الإمام عبد الرحمن الفيصل خطابا إلى محمد بن جاسر البجادي في شقراء، يطلب فيه مساعدة عبدالله العبد الرحمن البسام وحمولته في أي لازم لهم ويطلب منه عدم التوقف او المحاذرة في إجابة طلبهم[31].

دور موضي البسام في معركة الصريف والبكيرية:

في عام 1318هـ/1901م، حدثت موقعة الصريف[32]، بين جيش حاكم الكويت السابع الشيخ مبارك بن صباح الصباح الملقب بمبارك الكبير توفي عام 1333هـ/1915م، وجيش أمير حائل عبدالعزيز بن متعب بن عبدالله آل رشيد توفي عام 1323هـ/1906م، وقد انتهت هذه الموقعة بانتصار ابن رشيد، ومبالغته وقسوته – عفا الله عنا وعنه – في ملاحقة ومعاقبة، المنهزمين من أتباع ابن صباح وقد وصل بعض هؤلاء المنهزمين إلى عنيزة وعلى الرغم من أن عنيزة كانت -آنذاك- تابعة لحائل وبالتالي تحت سلطة آل رشيد، إلا أن موضي قامت باستضافة وإيواء نحو 400 من جنود آل صباح المهزومين سرا[33]، فساعدتهم المحسنة، حيث استضافتهم في بيوت خاصة بها وببعض أفراد أسرتها، وأمدتهم بما يحتاجون إليه من طعام وشراب وبعد أن خف الطلب عنهم أخذت في إعادتهم إلى الكويت بعد أن أعدت لهم الرواحل، ورأت أن يكون رحيلهم على دفعات ومجموعات صغيرة ليكون ذلك أبعد عن لفت الانتباه إليهم، ومن المشهورين الذين استضافتهم المحسنة شاعر الصباح محمد الحميدة الذي خرج من بريده بعد أن أخبر بأن رجال أبن رشيد يبحثون عنه واتجه إلى عنيزة للجوء عند أحد أبناء عمومته المقيمين فيها، وقد رحب به ابن عمه إلا أنه أخبره بأن بيته ليس المكان الأفضل لإقامته لأن رجال ابن رشيد سيفتشون عنه في بريدة وإذا لم يجدوه فسيتوقعون لجوئه إلى بعض أقاربه في عنيزة أو غيرها، وأخبره بأن المكان الأفضل والأمن هو اللجوء إلى المحسنة، فاقتنع بذلك وانتقل إلى أحد البيوت المعدة لاستقبال أمثاله، وحدث ما توقعه ابن عمه فقد بحث عنه رجال أبن رشيد في

بريدة فلما لم يجدوه هناك بحثوا عنه عند ابن عمه في عنيزة فلم يجدوه أيضا، وبعد أن هدأ الطلب عنه رغب في السفر إلى الكويت فجهزته المحسنة ببعير وسلاح وما يحتاج إليه من مؤونة، وأوصت عليه رجال الحدرة[34] الذين سافر معهم إلى الكويت. وفي عام 1322هـ /1904م، حدث فيه حادثه كان للمحسنة دور في مساعدة من أصيبوا بها وهي: موقعة البكيرية[35] بين الإمام عبد العزيز بن سعود وأتباعه من أهل الرياض و الوشم و سدير والقصيم من جهة وبين الأمير عبد العزيز المتعب ومن معه من أهل حائل وعساكر الترك من جهة أخرى ، وقد قسم الإمام عبد العزيز بن سعود جيشه إلى ثلاثة أقسام حيث كان هو ومن معه من أهل الرياض وسدير والوشم في الجناح الأيمن، وفي الجناح الأيسر كان أهل بريدة وبلدان القصيم وبعض البادية، أما قلب الجيش فكان فيه أهل عنيزة ومعهم قسم من عتيبة، وقد ركز ابن رشيد في هجومه على الجناح الأيمن، وقتل من أهل الرياض حوالي ستمائة وخمسين رجلا، والتجأ قسم من الباقين من السالمين والمصابين إلى عنيزة حيث كان للمحسنة دور كبير في مساعدتهم وتوفير سبل الراحة لهم وعلاج المصابين منهم إلى أن تهيأت الظروف لعودتهم إلى بلدانهم [36]. وبذلك مثلت شخصية موضي البسام الشجاعة والجرأة والإقدام فكانت تهب لمساعدة جميع المحتاجين دون التفكير بتبعات ما قد يعود عليها من جراء هذه المساعدة وخاصة في مساعدتها لفلول المنهزمين في المعارك فرغم علمها ببطش ابن رشيد إلا انها سارعت بإيواء المنهزمين وترحيلهم الى الكويت ولم تخشى تبعات هذا الأمر عليها وهذا يؤكد ما تتمتع به شخصية المرأة النجدية من شجاعة في ذلك الوقت.

تقدير الملك عبد العزيز لموضي البسام:

كان الملك عبد العزيز – رحمه الله – يقدر للمحسنة أعمالها الجليلة، ويدعو لها وقد كتب لها ولابنها إبراهيم في عدد من المناسبات، كما كان الملك ووالده الأمير عبد الرحمن -رحمهم الله- يقدران جدا أولاد المحسنة وأسرتها منذ دخول الإمام عبد العزيز إلى عنيزة في عام 1322هـ/ 1904م، فقد كتب الإمام عبد الرحمن الفيصل في التاسع عشر من صفر عام 1322هـ/1904م، خطابا إلى محمد بن جاسر البجادي في شقراء[37]، يطلب فيه مساعدة عبدالله العبد الرحمن البسام وحمولته في أي لازم لهم ويطلب منه عدم التوقف او المحاذرة في إجابة طلبهم[38].

كتب الملك عبدالعزيز خطابا عاما في 1335هـ/1917م، قال فيه بأن اولاد عبدالله العبدالرحمن البسام وحمولتهم طوارف لنا ومن اعز طوارفنا، وفي عام 1355هـ/1937م،كتبت المحسنة وابنها ابراهيم رسالة الى الملك عبدالعزيز في زيارته القصيم يدعوانه الى تشريفهما على العشاء، فكتب لهما الملك بالاعتذار عن اجابة الدعوة في زيارته هذه، ووعدها بالإجابة في الزيارة القادمة،كما انها كتبت المحسنة الى الملك عبدالعزيز تعزية بوفاة ابنته منيرة، فأجابها برسالة مؤرخة في الرابع من رجب عام 1358هـ/1940م[39]. وتستنتج الباحثة بناء على ماسبق مكانة المحسنة موضي البسام عند الملك عبدالعزيز وتقديره لها، بدليل أن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود كان حريصا على زيارتها للسلام عليها كلما مرّ بعنيزة.

وفاة موضي البسام:

ورغم تقدمها في السن، إلا أن موضي استمرت في رعاية المحتاجين والفقراء، وتوجيه من تحت يدها إلى ذلك، وقد أقر الله عينيها بعد بلوغها الثمانين عاما برؤية أبني ابنها إبراهيم وهما عبد الرحمن وحمد

بارك الله فيهما وفي عقبهما، وبعد عمر مديد زاد على التسعين عاما انتقلت المحسنة إلى جوار ربها في شهر ذي القعدة من عام 1363هـ/1944م، وكتب الأمير سعود بن عبد العزيز إلى ابنها إبراهيم خطابا في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة يعزيه فيها بوفاة والدته[40]. وبناء على ما سبق تستنتج الباحثة أن تقدير الملك عبد العزيز للمحسنة لم يقتصر على تقدير ذويها من أسرتها من بعده ونهج أبناء المؤسس على نهج أبيهم لإدراكهم بمدى إسهامات المحسنة وما قدمته من خدمات جلية لخدمة مجتمعها ومنطقتها على حد سواء.

كما أن و أعمال البر والخير التي كانت تقوم بها في حياتها مازالت -ولله الحمد- مستمرة بتنفيذ وصيتها التي طلبت فيها تنفيذ عدد من مشاريع الخير والإحسان ومنها تسبيل ثلاثة قدور كبيرة للانتفاع بها من المحتاجين إليها، وأوصت بعدد من الأضاحي، وعشا في جمع رمضان، وقربة ماء تخرج كل سنة في الفصول التي يحتاج الناس إليها ، كما أوصت بعتق عدد من جواريها، من ثلثها[41].

وبعد اتمام الدراسة – بفضل الله وتوفيقه- توصلت الباحثة الى عدة نتائج:

- تأتي شهرة السيدة موضي العبد الله البسام من تميزها على مستوى البلد بأعمال الخير والإنفاق دون أن تخشى الفقر، ولعل لما أصابها من فواجع بفقد المقربين لها دافع للإنصراف إلى هذا المجال بشكل ملفت للنظر بحيث يترحم عليها ويدعو لها بسببه القاصي والداني .
- عاصرت موضي العبد الله أحداثاً جساماً وتقلبات سياسية وحربية في المنطقة كانت فيها موضي مضرب المثل في قوة الإرادة والصلابة وعمل الخير بغض النظر عما يمكن أن يصيبها بسببه.
- كما أن موضي العبد الله أحسنت إلى من أساء إليها وإلى أسرتها في مواقف معروفة.
- وموضي البسام هي المعنية بالمثل المشهور : (إذا جاك ولد سمه موضي)، لما قامت به من أعمال ومساعدات عرفها القريب والبعيد حيث استحقت هذا اللقب.
- لسيرتها العطرة وأعمالها الجليلة التي عرفها القريب والبعيد حيت استحقت أن تكون مضرب المثل.
- كان الملك عبدالعزيز آل سعود حريصا على السلام على موضي البسام كلما زار عنيزة، وينعتها بالعمة احتراماً وتقديراً لها كما حرص أبناء المؤسس على تقدير أسرتها وذويها من بعدها.
- كان الملك عبدالعزيز – رحمه الله – يقدر للمحسنة أعمالها الجليلة، ويدعو لها، وقد كتب لها ولابنها إبراهيم في عدد من المناسبات.
- استمرت المحسنة رغم تقدم سنها في العمل على مساعدة المحتاجين.

الهوامش:

(1) البسام: احمد عبد العزيز، المحسنة موضي العبد الله البسام، ط1، الرياض، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، 1435هـ/2014م، ص6.

(2) الحربي: دلال مخلد، المرأة في نجد وضعها ودورها (1351-1200هـ/1782-1932م)، دارة الملك عبد العزيز،1432هـ/2011م، ص13. انظر، البسام، المحسنة، ص7-6.

(3) أحد احياء مدينة عنيزة.

(4) البسام: أحمد، المحسنة، ص91.

(5) البسام: أحمد، المحسنة، ص93-92.

(6) الغيث: منى بنت محمد فهد، أثر المرأة في بناء المملكة العربية السعودية في مرحلة التأسيس، الأميرة نورة بنت عبدالرحمن والوجيهة موضي بنت عبد الله البسام، مج1، جامعة القصيم، مجلة العلوم العربية والإنسانية، 1436هـ/2015م، ص5.

(7) الغيث: منى، أثر المرأة في بناء المملكة العربية السعودية، ص5.

(8) جريدة الرياض: ذكرتني الماضي، 12 أبريل 2019، على موقع واي باك مشين.

(9) الحربي: دلال مخلد، نساء شهيرات من نجد، ط1، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، 1419هـ/1999م، ص130-129.

(10) البسام: المحسنة، ص94.

(11) البسام: المحسنة، ص95.

(12) البسام: المحسنة موضي، ص95. القشعمي: محمد عبد الرزاق، أم المساكين موضي البسام (1270 - 1363هـ)، جريدة الجزيرة، 15ربيع الاول 1437هـ/ 26 ديسمبر 2015.

(13) الغيث: أثر المرأة في بناء المملكة العربية السعودية، ص9.

(14) أمين: عبد الحفيظ محمد، امرأة من عمق التاريخ النجدي، صحيفة المدينة، العدد 14613، السنة التاسعة والستون، 1424هـ/ابريل 2003م، ص21.

(15) العبد المحسن: إبراهيم بن عبيد، تذكرة أولى النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان، ط1، مؤسسة النور، الرياض، ص321-318.

(16) اجتاحت الإنفلونزا نجد لمدة ثلاثة أشهر سنة1338ه/1919م، وتسمى تلك الأشهر «سنة الرحمة» لكثرة الأموات فيها.

(17) الغيث: أثر المرأة في بناء المملكة العربية السعودية، ص11.

(18) الغيث: أثر المرأة في بناء المملكة العربية السعودية، ص6.

(19) الغيث: منى بنت محمد فهد، أثر المرأة في بناء المملكة العربية السعودية، ص14.

(20) البسام: المحسنة، ص147.

(21) البسام: المحسنة، ص148.

(22) البسام: عبد الله بن عبد الرحمن، خزانة التواريخ النجدية، ط1، مج3، الشاملة الذهبية، 1419هـ/1998م، ص59-58.

(23) كان لديها مزرعة في شمال عنيزة تسمى (السفيلي)، انظر، البسام، المحسنة، ص154.

(24) البسام: المحسنة، ص150-149. المدني: عبدالله، امرأة بألف رجل، البحرين،1442هـ/2020م.

(25) البسام: المحسنة، ص 155-154.

(26) البسام: المحسنة، ص156.

(27) القشعمي: محمد عبد الرزاق، أم المساكين موضي البسام (1270 - 1363هـ)، جريدة الجزيرة، 15ربيع الاول 1437هـ/26 ديسمبر 2015.

(28) البسام: المحسنة، ص157.

(29) البسام: المحسنة، ص158.

(30) المدني: عبد الله، موضي البسام امرأة بألف رجل، صحيفة عكاظ، الاحد 27 سبتمبر.

(31) البسام: المحسنة، ص157.

(32) جرت هذه الموقعة في اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة من عام 1318هـ عن أحداثها انظر عبد الله بن محمد البسام، تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، شركة المختلف، الكويت 2000 م، ص 284-283.

(33) وتقع الصريف أو الطرفية – كما يسميها بعض المؤرخين - في الشمال الشرقي من بريدة بحوالي سبعة وعشرين كيلو.

(34) المدني: امرأة بألف رجل، صحيفة عكاظ.

(35) المقصود بالحدرة القافلة المتجهة الى الخليج فأهل القصيم يقولون لمن يتجه الى الشرق منحدرا ولمن يتجه الى الحجاز مسندا الارتفاع نجد بالنسبة للخليج وانخفاضها بالنسبة لعاليتها القريبة من الحجاز، ثم غلب لفظ حدرة وأصبح الكثيرون يطلقونها على كل القوافل المسافرة لأي جهة.

(36) البكيرية: بلدة بالقصيم، حدثت قريبا منها معركة بين الملك عبدالعزيز والأمير عبدالعزيز بن متعب الرشيد. انظر الزركلي: خير الدين، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ج1، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1405هـ/1977م، ص153-152.

(37) البسام: المحسنة، ص152-148.

(38) تعتبر مدينة شقراء من أقدم المدن في المملكة العربية السعودية، فهي أقدم المدن في اقليم الوشم في نجد.

(39) البسام: المحسنة، ص 158.

(40) البسام: المحسنة، ص160.

(41) البسام: المحسنة، ص 161.

(42) المدني: موضي البسام امرأة بألف رجل، صحيفة عكاظ.

المصادر و المراجع:

(1) البسام: أحمد عبدالعزيز، المحسنة موضي العبد الله البسام، ط1، الرياض، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، 1435هـ/2014م.

(2) البسام: عبدالله عبدالرحمن، خزانة التواريخ النجدية، ط1، مج3، الشاملة الذهبية، 1419ه/1957م.

(3) البسام: عبدالله محمد، تحفة المشتاق في اخبار نجد والحجاز والعراق، تحقيق إبراهيم الخالدي، ط1، شركة المختلف للنشر والتوزيع، الكويت، 1421هـ/2000م.

(4) الحربي: دلال مخلد، نساء شهيرات من نجد، الرياض، ط1، مكتبة الدار المئوية، دارة الملك عبد العزيز،1419هـ/1957م.

(5) الحربي: دلال مخلد، المرأة في نجد وضعها ودورها (1351-1200هـ/1782-1932م)، دارة الملك عبد العزيز،1432هـ2011م.

(6) الغيث: منى بنت محمد فهد، أثر المرأة في بناء المملكة العربية السعودية في مرحلة التأسيس، الأميرة نورة بنت عبد الرحمن والوجيهة موضي بنت عبد الله البسام نموذجاً، القصيم، مجلة العلوم العربية والإنسانية، مج8، ع4، 1436هـ/2015م.

(7) الزركلي: خير الدين، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ج1، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1405هـ/1977م.

(8) العبد المحسن: إبراهيم بن عبيد، تذكرة أولى النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان، ط1، مؤسسة النور، الرياض.

المقالات العربية:

(1) أمين: عبد الحفيظ محمد، امرأة من عمق التاريخ النجدي، صحيفة المدينة، العدد 14613، السنة التاسعة والستون، 1424هـ/ 2003م.

(2) القشعمي: محمد عبد الرزاق، ام المساكين موضي البسام (1270م/1336هـ)، الجزيرة السعودية، عدد484، 1437هـ/2015م.

(3) جريدة الرياض: ذكرتني الماضي، 12 أبريل 1441ه/2019م، على موقع واي باك مشين.

(4) المدني: عبدالله ، امرأة بألف رجل، البحرين،1442هـ/2020م.

محافظة أضم بمنطقة مكة المكرمة
(دراسة جغرافية تحليلية)

أ.سعد صالح سعد عزيز العمري

طالب ماجستير - قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

مستخلص:

هدف الدراسة: إظهار الجوانب الجغرافية في محافظة أضم ومعرفة تضاريسها والغطاء النباتي فيها ومناخها. أهمية الدراسة: توضيح أقسام الجزيرة وموقع أضم في تهامة، ومعرفة الفرق بين أضم والمواقع المشابهة لها لفظاً، وذكر موقعها وعدد سكانها، وذكر تضاريسها من الجبال والأودية ومعرفة ما قاله الشعراء فيها، والغطاء النباتي وكيف استفاد منه السكان، ومعرفة المناخ في أضم والتقويم الزراعي الخاص بها. منهج البحث: دراسة جغرافية تحليلية، عبر جمع المعلومات من المصادر والمراجع، وعبر المقابلات التي قام بها الباحث. أهم النتائج: ندرة المادة التاريخية عن أضم في المراجع والمراكز التاريخية، أضم منطقة جبلية تحيط بها الجبال من أغلب الاتجاهات.

الكلمات المفتاحية: مكة المكرمة، أضم، التضاريس، الجبال.

Adham Governorate in Mecca
(Analytical geographical study)

A.Saad Saleh Saad Alomri

Abstract:

The aim of the study: to show the geographical aspects of Adham Governorate and know its topography, vegetation, and climate.

The importance of the study: This study dealt with the study of the parts of the Arabian Peninsula and the site of Adham in Tihama, and knowing the difference between Adham and sites similar to it verbally, then mentioning its location and the number of its inhabitants, and mentioning its different terrain of mountains and valleys, and knowing what the poets said there, and the vegetation, and how the population benefited from it, and knowledge of the climate. In Adham and its agricultural calendar. Research Methodology: This study was carried out using the analytical geographical study methodology, and through information from sources and references, and through interviews also conducted by the researcher.The most important results: Scarcity of historical material about Adham in references and historical centers, Adham is a mountainous area surrounded by mountains in most directions.

key words: Mecca, Adham, Configuration, Mountains

المقدمة:

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام وعلى أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

شرف الله سبحانه أرض الحجاز بوجود الحرمين الشريفين في منطقة مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومنهما أشرق نور الإسلام وشع نوره واهتدت البشرية بهدية وأصبحت مكة المكرمة على وجه الخصوص مركزاً رئيسياً كونها تمثل نقطة اتصال وسطي في العالم أجمع، ونظراً لأهمية موقع مكة المكرمة وتأثيره في العالم فإن محافظة أضم إحدى محافظات مكة المكرمة ترتبط مباشرة بتلك الأهمية لا سيما وأنها تقع على طريق الحج الساحلي من جهة اليمن، فضلاً عن التطور الذي شهدته هذه المحافظة في مختلف المجالات خلال العهد السعودي، مما يستدعي توظيف هذه المجالات مع رؤية المملكة العربية السعودية (2030) التي تهدف إلى إظهار الوجه المشرق للتطورات المتواصلة في كل موقع من مناطق المملكة العربية السعودية، وتقع أضم جنوب غرب منطقة مكة المكرمة، حيث تمثل حدود المنطقة مع إمارة منطقة الباحة في الجنوب الشرقي، ويحدها من الشرق محافظة ميسان، ويحيط بها من الشمال والغرب والجنوب محافظة الليث، وتشترك في جزء صغير من حدودها الجنوبية مع محافظة الحجرة التابعة لمنطقة الباحة. وفي هذا الورقة ذكرنا جغرافية أضم والفرق بين اللفظين أَضَم وإِضم والموقعين والخلط بينهما خصوصاً أن إضم نزلت فيه بعض الآيات القرآنية، وفصلنا في ذكر جبالها وأوديتها مستعيناً بمصادر من أصحاب المحافظة عبر مقابلات مع كبار السن وذكر القصائد التي وردت فيها، مقسماً مواقعها على حسب التقسيم الإداري وحسب الترتيب الأبجدي، وذكرنا الغطاء النباتي لمحافظة أضم، ولعل الباحث ركز على مصدر محدد وذلك لتخصصه ومعاينته هذه النباتات، وكما اعتمد مزارعي أضم على تقويم زراعي محدد يتوافق مع مناخها، تم توضيحه وتفصيله.

أولاً: جغرافية أضم:

تعتبر أضم احدى مدن مكة المكرمة وتقع ضمن منطقة الحجاز[1]، ولتعريف أضم جغرافياً يستحسن التعريف بإقليم الحجاز ثم التعريف بأضم.

1.الحجاز:

قال المدائني: جزيرة العرب تشتمل على خمسة أقسام: تِهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن. فتهامة هي الناحية الجنوبية عن الحجاز، ونجد هي الناحية التي بين الحجاز والعراق، **والحجاز هو ما بين نجد وتهامة وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وسمي حجازاً لحجزه بين نجد وتهامة.** والعروض هي اليمامة إلى البحرين.[2]

وللتعريف بجغرافية أضم من المستحسن ذكرها على النقاط التالية:

ب.أضم:

ذكرت أضم في الكتابات الجغرافية للدلالة على موقعين، فالموقع الأول: وادٍ بالقرب من المدينة المنورة وقد ذكره ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان حيث قال: **إِضَمٌ**: بالكسر ثم الفتح، وميم، **ذو إضم**: ماءٌ يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السُّمينة وقيل: **ذو إضم** جَوفٌ هناك به ماءٌ وأماكن يقال لها الحناضل، وله ذكر في سرايا النبي صلى الله عليه وسلم وقال السيد عُلي: **إضم** وادٍ بجبال تهامة، وهو الوادي الذي فيه

المدينة[3]، قال ابن السكّيت: إضم وادٍ يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر، وأعلى إضم القناة التي تمر دُوَين المدينة، وقيل: إضم وادٍ لأشجع وجهينة، ويوم إضم من أيامهم، وعن نصر: إضم جبل بين اليمامة وضَرِيّة، وقال غيره ذو إضم ماءٌ بين مكة واليمامة عن السُمَينة يطؤه الحاج.[4]

أُضْم: بالضم ثم السكون: موضع في قول عنتره العبسي:

عَجِلت بنو شيبان مُدتهم والبُقْع أســـناها بنو لأمِ
كُنّا إذا نفر المَطيُّ بنا وبدت لنا أحواض ذي أُضْمِ
نعطي فنطعنُ في أنُوفهم نختار بين القتل والغُنْمِ[5]

أما الموقع الثاني: أضم محل الدراسة وقد ذكرها حمد الجاسر[6] في كتابه: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، وهو معجم مختصر يحوي أسماء المدن والقرى وأهم موارد البادية، قال عنها: **إضم** بكسر الألف وفتح الضاد المعجمة وبعدها ميم، وادٍ ذو قرى كثيرة، وفيه مركز أمارة تابعة لإمارة الليث، بمنطقة مكة المكرمة.[7] ولم يزد حمد الجاسر على ما ذكر، ولعل عاتق البلادي[8] الذي زارها شخصيا أدق في الوصف، وقد أوسع في الكتابة مقارنة بما ذكر الجاسر عنها، وبيّن البلادي الفرق بين وادي أضم ووادي إضم، حيث ذكر البلادي في كتابه «معجم معالم الحجاز» **أضم:** وادٍ كثير القرى والمزارع يجاور العرج من الشمال مما يلي الليث، وهو من أعمر تلك الجهات وأكثرها حصوناً وآثاراً، وفيه مركز اداري تابع لمحافظة الليث، وهيئة أمر بالمعروف ومدارس.[9]وسيل أضم يصب في وادي الحَجْرَة ثم في الشاقة الشامية التي تصب في البحر الأحمر جنوب الليث، وسكانه بني عفيف[10]، ولهم فيه سوق عامرة، وله شهرة محلية، وقريته القاعدة تسمى «أضم»، ويهم أهل أضم حين يضنونه إضم فيطبقون نصوص السيرة النبوية في إضم على واديهم هذا[11]ومن تلك النصوص قتل محلّم بن جثامة[12] لـعامر الأضبط الأشجعي[13]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث محلّم في نفر من المسلمين، فلما كانوا ببطن إضم[14] مر بهم عامر، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فقام إليه محلّم فقتله لشيء كان بينهما، فأنزل الله تعالى في ذلك:{يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً}(15)...الخ

وقال الشاعر عيضة بن طوير:

أتيتكم في ركاب الشوق من أضم يدفعني الحب والأشواق تحملني

وكانت أضم في أول الأمر تسمى إضم (بكسر الألف) نظراً لأنها الوادي الذي يضم بين جنباته الماء في فصل الجفاف، (ومن الأمثلة الدارجة بين كبار السن: جِدّي يا الجَدَّة وضُمْ الماء يا إضَمْ)[16]، ثم تعدلت الكلمة مع مرور الوقت إلى أضم[17]. وقيل سبب تسميتها أضم لأنها مضمومة بين الجبال فمن الشرق جبال هِرْمَان، ومن الغرب جبل العِلِنْصَا، فهي مضمومة بين هذين الجبلين.[18]

والصحيح ما ذهب إليه عاتق البلادي حيث أن أَضم غير إِضم وغير أُضم، وتنطق أَضم، وإيرادها من حمد الجاسر بـ إضم غير صحيح، والصواب ما ذكره عاتق البلادي لوصوله الى هذه المناطق ومقابلة أهلها وسماعه النطق من أفواههم مباشرة، والسبب الأخر أن القصائد الشعبية ولم يرد فيها مسمى إضم بالكسر، ويعتبر عيضه بن طوير من مثقفي أضم ومن كبار شعرائها وقد ذكرها بـ أضم.

الموقع الجغرافي لأضم:

تقع أضم جنوب غرب منطقة مكة المكرمة ، حيث تمثل حدود المنطقة مع إمارة منطقة الباحة في الجنوب الشرقي، ويحدها من الشرق محافظة ميسان، ويحيط بها من الشمال والغرب والجنوب محافظة الليث، وتشترك في جزء صغير من حدودها الجنوبية مع محافظة الحجرة بإمارة منطقة الباحة.[19]

المساحة[20]	تقدر مساحة المحافظة بحوالي 1.45 ألف كم2، حيث تشغل نحو 1.02 % من مساحة المنطقة كأصغر محافظات المنطقة من حيث المساحة.
السكان[21]	يبلغ عدد سكان المحافظة طبقا لتقديرات الإستشاري لعام 1435 هـ بنحو 53.3 ألف نسمة، وهو ما يمثل نحو 0.67 % من سكان المنطقة، وتأتي في المرتبة الثانية عشرة على مستوى منطقة مكة المكرمة من حيث حجم السكان.
التقسيم الاداري	تصنف محافظة أضم من الناحية الإدارية كمحافظة من الفئة (ب) وتتكون من أربعة مراكز إدارية إثنين فئة (أ) هما: سوق العين والجائزة ، وإثنين فئة (ب) هما المرقبان ووادي حقال بالإضافة إلى النطاق الإشرافي لمدينة أضم.

التضاريس الطبيعة للمنطقة:

تتميز أضم بأنها منطقة جبلية ذات أودية متعددة، وجبالها شاهقة وبعضها يصعب التسلق بها، ويرجع الأمر إلى تركيبها الجيوفيزيقي من حيث التعقيد في التركيب الجيولوجي، كالتكوين الصخري وسيادة الصخور المتحولة التي تمتاز بمقاومتها للتعرية، وقد طورت عوامل التعرية الناتجة عن المياه الجارية طبوغرافية هذه التضاريس، وما تحمله معها من مواد صلبه وما يمكن ان تتركه منها على جوانب الأودية وفي مجاريها الدنيا لتخلق تربه صالحة للزراعة أو خزانات من المياه الجوفية[22].

وأضم منطقة جبلية فالجبال فيها كثيرة وأغلب مناطقها وقراها تحيط بها الجبال من كل اتجاه أو من ثلاث جهات، ويتخللها أودية تصب جميعها في وادي حلية ثم الشاقة الشامية ثم البحر الأحمر عدا وادي حقال فيسيل في وادي عيار(السباع).

والبداية بذكر الجبال وقد قسمت المنطقة إلى خمسة أقسام مرتبة أبجدياً وعلى التقسيم الإداري، وهي(أضم، الجائزة، حقال، ربوع العين، المرقبان) مع ذكر جبال القرى المجاورة، ثم يأتي ذكر الأودية وأهم روافدها:

جبال وأودية أضم:

تحيط بأضم جبال شواهق سواءً في أضم أو في مراكزها التابعة لها في محيطها الإداري، وقد تغنى بها الشعراء وضرب بها المثل، قال عيضة بن طوير(رحمه الله) بلون العَرْضَه بطَرْق الزَّمَلْ:

من يشوف الجايزة واجبالها ويشوف أضم واجباله

مجدنا وأمجادنا أكبر من جبال الجايزة وأضم

ومن أشهر جبال أضم (حُبِيْنَهْ) و(هَرْمَان) وتقع جنوب أضم ويقول الشاعر محمد بن منديل الجعدي المالكي[23](رحمه الله) على لون الرَّدَحْ:

مرحبـــــا يا عَمَى الدَّيّان يـــوم بَـــقْـعَا مُمَيِّله
اعْرِضُوا ما فَكَرْ هَرْمَان ما صخـــــوره مُعَيِّله[24]

وشرق أضم عبارة عن سلسلة من الجبال ممتدة من الجنوب الى شمال وهي: (صُلْب) و(صُويق) و(حَلَبان) و(سخوان) و(بخيان) و(عُمد) و(الوصال) و(الأحرج) ومن الشمال الشرقي جبل (الطبيقة) ومن الشمال جبل (أعهر) ومن الشمال الغربي (العِلِنْصَا) و(النّعامة) ومن الغرب يرى جبل (خَبَايِب) الذي يطلع على قرية كَسَاب وكذلك يرى جبل (عَفْفْ).[25]

ومن جبال أضم جبل عفف ويسكنه قبائل بني هلال، ويسمونه شيخ الجبال، ويقول فيه الشاعر هلال بن مهدي الهلالي (رحمه الله) على لون العرضه:

جينا من السامي عفف شيخ الجبال في حشمة الأرحام واللي عانيه[26]

ومن جبال بني هلال جبل صُلاق ولكنه ليس بشهرة عفف ويقول فيه نفس الشاعر على اللون اليماني:

جينا من السامي صُلاق يوم لفَى عزّامنا
ببندقً ســحـــقه دُقـــاق مُصَقَلن فيه الفنا[27]

ومن جبال أضم جبل (عُمْد) وهو جبل عظيم يبدأ من تهامة وقمته في السراة ، ويعيش فيه ثلاث قبائل وهم بني عفيف وثقيف والبردي من بني ذبيان، ولكن حدوده التي في أضم يسكنها قبائل بني عفيف، وقال فيه الشاعر إبراهيم بن حسن العفيفي المالكي:

سقى الله عُمداً وبل غيثٍ سحائبه ثقالٌ وأرياح العوالي تجـــــاذبه
ويضحي على الغـــوقاء من نفيانه ترى وشلاً بالسيل تزهو شعائبه[28]

ويعتبر وادي أضم الذي ينحدر من جبال السروات أحد روافد وادي حلية، وكان الى وقت قريب لا ينقطع ماءه الجاري منه، ويلتقي مع وادي حلية في مكان يسمى (المَـلْقَى)[29].

جبال وأودية الجائزة:

تحيط بالجائزة جبال شوامخ وأعظمها حجماً جبل (سَيْلان)، ومن جبالها (الصّلْعَاء) وجبل (الغَرّ) أو شفا الغَرّ، وجبل (حَضَا) وقد ذكره البلادي بـ مضا وهو خطأ، وجبل (تَثْلَع) وجبل (غَزْوَان) وهو جبل صغير.

ومن روافد وادي الجائزة: وادي (ذي رَهْجَان) وكانت قديماً تسمى ديرة جان ولكن صُحّفت الى ذي رهجان عندما أتى المتعلمين، وادي (شَرِيقَة) ووادي (الأشْعُب) وكان يجري به النجل الى وقت قريب، ووادي (هَويله)، ووادي (رَقْعَاء) ووادي (جَبُوز)، ووادي (ذُيَّيْد) ووادي (مُرْعَه) ووادي (غُنْما)، ووادي (خُمْرَان)[30].

ووادي (الجائزة) من الروافد الكبيرة لوادي حَلْيَة، ووادي غُنما آخر وادي يلتقي بوادي الجائزة بالقرب من وادي حلية عند (بئر أبو كبير)، ويلتقي وادي الجائزة بوادي حلية في (كُدِيْس)[31].

جبال وأودية حقال:

تحيط الجبال بحقال من جميع الجهات فمن الشرق: (العِلِنْصَا) و(النَّعامة) وهي من أشهر الجبال، ويقول الشاعر على لون الرَّدَحْ:

مع الله يا قوم الزّعامة ما جابهم قيلاً وقالْ
هَزّوا العِلِنْصَا والنَّعامة وهَيّبوا وادي حقالْ

وأيضا جبل (عِجَاز) وبه آثار تحتاج الى الدراسة والبحث، كذلك جبل (المِجْرَدْ) وجبل (ذات الرَّاء) ويبدو أن سبب تسميته يعود لنمو نبات الرَّاء أو الطَّرف كما يطلق عليه البعض، ومن الشمال: نرى جبل (جُلْجُلْ) ممتد في الأفق ويسيل من جهته الجنوبيه في وادي السُّدّرة (بالسين والبعض ينطقها بالصاد) أحد روافد وادي حقال، وقال عمرو بن الخثارم:

نَغَيْنا كأنا ليث بدارة جلجل مدل على أشباله يتهمهم
ونلوي بأثمار ويدعون ثابراً على ذي القنا ونحن والله أظلم
منحنا حقالاً اخر الدهر قومنا بجيلة كي يرعوا هنيئًا وينعموا[32]

ومن الغرب جبل (ضِلاع) ويسيل في وادي الحَنِي أحد روافد وادي حقال، وجبل (قَفَانْ)، ومن جنوبها الغربي جبال قرية ذنباء التي تحيط بها الجبال من ثلاث جهات فمن شرقها وشمالها الشرقي جبل (الصَّعْب) ومن غربها جبل (الشَّبَّهْ) وجبال (العَرْفَاء) ومن جنوبها الغربي جبل (الحَصِير) و(الفَنَّهْ) وجميها تسيل في وادي ذنباء أحد روافد وادي حقال، وأما جنوب حقال فهي سلسلة من الجبال وهي: جبال (تَغَادي) وهي ثلاث جبال متاجنبه بنفس الطول والشكل، وجبل(ظَالم) وجبل(الأقْرَفْ) و(الأصْفَاء) و(المُرّه).

ووادي حقال هو حوض وادي عيار (ومن المفترض ان يصب في البحر الأحمر ولكن لصغر وضعف الوادي توقف عن التطور وقد غزته الترسبات الريحية فقطعت الصلة بين بعض روافدها، وبترت نهايتها قبل أن تصل إلى غايتها، واختفت معالمها في رمال السهل بعيداً عن البحر)[33]، فيأخذ وادي حقال ماءه من عدة روافد وهي: وادي عَرْعَرْ، والقَنَه، والسُّدُرَه، والحَنِي، والحَصَار وآخرها وادي ذنباء.

جبال وأودية ربوع العين:

من أشهر جبال ربوع العين: جبل (جُلْجُل) وجبل (النَّاطِف) وجبل (شَنُونَا) وجبل (الضَّاحي) وجبل (ضربا) وجبل (الحَبُل) وجبل (القَرى) وجبل (الـمَشْرِقَه) وجبل (الأحْيَاء) وجبل (العَرَفه) وجبل (خَزِيم) وجبل (الـمُشْمِس)، ويعتبر جبل الناطف أطول جبال ربوع العين إذ يبلغ طوله (2.385قدم)[34].

ووادي ربوع العين هو وادي العرج، ويعتبر من اهم روافد وادي حلية وهو حوضه، ومن روافد وادي العرج: وادي السدر، وو صُرْنان ووادي عُوَلاء[35].

جبال وأودية المرقبان:

يعتبر جبل (أيّـا) من الجبال المشهورة في المرقبان وفي أضم، وتنبت في قمته نباتات السراة، مثل: العرعر، وفي أسفله نباتات تهامة، وقمته صالحة لزراعة البنّ وقد جرب زراعته المزارع عبدالرحمن حُميّد الذبياني، وقال الشاعر سالم بن حسان الذبياني(رحمه الله) ممتدحاً صلابة جبل أيّا على طرق الجبل:

أيّـا يا فتى جباله ما تصدع مَنَادِره تَفْجَع وش انْشَبَك فيها

ويسمى أيضا بـ حُبَيْش وهو اسم ثاني له، وحبيش أقدم من مسمى أيّا، وذكره الشاعر حسين بن عاطي الذبياني(رحمه الله) على لون العرضه:

ورجالاً في حبيش اللي تعلّى نايف الأنْشَاب

ومن جبال المرقبان جبل (القِمْصانه) وهو حد فاصل بين بني ذبيان والغِفَره من بني مالك، وجبل (طِلاس).

ويعتبر وادي وَبَلات هو الوادي الرئيسي الذي يصب في وادي العرج، ولوادي وبلات رافدان هما: وادي مَقِطَه ووادي السُدُر.

الغطاء النباتي:

استفاد سكان أضم قديما من الطبيعة المحيطة حولهم لتلبية احتياجاتهم المعيشية التي تم اكتسابها من حاجتهم الماسة لها، وتسخيرها لتقوم مقامً يعود عليه مادياً أو تنفعه في حياته العملية وتسد عَوَزَه، وكانت تفي بالغرض مع متطلبات الوقت في تلك الأيام وهي قبل النهضة الحضارية والعلمية التي عاشتها المملكة العربية السعودية، وسوف اقتصر الذكر على النباتات البرية التي تنمو في المنطقة دون تدخل بشري، وأوضح كيف تم الاستفادة من ذلك النبات في ذلك الوقت، ولم يقتصر سكان أضم على الاستفادة من النباتات فقط، بل والاستفادة الدواب، ولكن الحديث هنا عن جغرافية أضم ولذلك سوف يتم ذكر النباتات فقط، مع مراعاة عدم ذكر المشهور منها مثل: **السَّلم والسَّمر والسَّيَال والأُثل والقَتَاد والقَرَضْ** الا ما كان ذا استخدامات متعددة كالسدر، وبعض النباتات العطرية **كالريحان والبُعَيْثِران والشَّار والسَّكَب** التي تستعمل غالباً غِرَازاً لتضفي رائحة جميلة، واما الموارد الاخرى التي تم الاستفادة منها سيتم ذكرها في موضعها المناسب، وبالتأكيد لن أستطيع حصر جميع النباتات ولكن سأكتفي بذكر المشهور منها، مع ذكرها حسب الترتيب الأبجدي، وهي كالتالي:

البَشَام:

مفرده بشامة، وهي شجرة عطرية واسعة الانتشار من الفصيلة البخورية، منابتها الحزون والأسناد وفي بطون الشعاب وبين شقوق الصخور وأكنافها. وترتفع البشامة نحو 3-2م على جذع أملس معوّج لونه اصفر مغْبر مائل الى الخضرة أو ابيض مغبر مائل الى الخضرة. وهي شجرة طيبة الريح، يتخذ من اغصانها مساويك فتنقي الفم وتزكيه برائحة عطرية جميلة.[36] وأوراق البشام مرعى للابل والغنم وهي من أحب المراعي الى الوبير وأرانب البر، ففي حديث عبادة بن الصامت انه قال: (يوشك ان يكون خير مال المسلم شاء بين مكة والمدينة ترعى فوق الظراب وتأكل من ورق القتاد والبشام).[37] وتلقى اغصانها المورقة في آنية الماء أو القرب خاصه فيطيب بها طعم الماء ونكهته، وربما طبخت منفردة أو مع (الشاهي) ولها مذاق لذيذ ورائحة طيبه. وقد توضع أعواد البشام بين اللحم المحنوذ فتضفي على اللحم رائحة طيبة.

الحُمّيض أو الحمّاض:

عشبة ربيعية كثيرة الانتشار، منابتها سفوح الجبال وبطون الأودية والشعاب، يرتفع الحميض نحو 50-30سم، وهو يقوم على ساق واحدة أو سيقان متعددة تخرج من أصل واحد، وساقه ناعم غض ممتلئ بالماء يظهر بعد هطول امطار الشتاء. ويأكل الناس أوراقه ولها طعم حامض مستساغ وتأكل كذلك سيقانه ومن ذلك تم اشتقاق اسمه، وقد يطبخ ويؤكل إداماً أو يطبخ مع اللبن الرائب فيضفي نكهة لذيذة وتزيد من عناصره الغذائية. ومن كان به عطش وأكل أوراق أو سيقان الحمّيض فإنه يشعر بالإرتواء والنشاط لبعض الوقت. وأوراقه عريضة شبه مثلثه غضة ناعمة الملمس يحملها اعناق طويلة يخرج منها ثمار مجنحة حمراء جميلة المنظر تجذب الانتباه.[38]

الدّوم:

واحدته دومة، وهو شجر المقل، ولها خوص كخوص النخل يقال لخوصها: الطُّفِيّ أو الأُبْلُم والواحد منها طُفْيَه وأُبْلُمه. والدوم شجرة شبيهة بالنخل، فارعة الطول وارفة الظلال، ومن أشهر النباتات، تنبت على ضفاف الأودية وروافدها، وترتفع هذه الشجرة نحو 20-10متر، وتقوم على جذع اسطواني ليفي، وقد كان لهذه الشجرة اهمية كبيرة فهي كأختها النخلة طيبة مباركة ينتفع الناس بجميع أجزائها، بأخشابها، وأليافها، وثمارها، وبذورها، وظلالها. فقد كانوا يستخدمون خشبها لبناء العِشَشْ (الأكواخ) وتسقيف البيوت، وكانت تستمله العرب لذلك من عصور غابره، (فقد روي أن قصي بن كلاب أعاد بناء الكعبة وسقفها بجذوع الدوم وجريد النخل)[39]. ويقطع خوصه (الطُّفِيّ) ثم يجففونه أياماً وإذا ارادوا استعماله نقعوه في الماء حتى يلين فيصنعون منه (البسط) و(القفاف) و(الزنابيل) و(السلال) و(القعائد) وهي الأسرة الخشبية و(المكانس) والحبال و(المهفات). واما ثمرها فقد كان غذاء مهم لكثير من الناس لا سيما في أزمنة الجوع الخالية. ولها ظلال من أوسع الظلال وأبردها يحبه الناس ويتقون به حرارة الصيف ووهج الشمس، وتستظل تحته أغنامهم وسائر أنعامهم. (وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم: جلس يوماً في ظل دومه)[40].

الرّيْمُضان أو الضيمران:

هو ريحان البر وهو نبات جميل المنظر، طيب الرائحة، واسع الانتشار، من أشهر النباتات العطرية، ويضعه الناس بين ملابسهم وفرشهم وعصابة على رؤوسهم ويسمونه غِرَازً، وقد يوضع مع الزبدة عند تسخينها فتضفي على السمن نكهة لذيذة ورائحة مستحبة، ويوضع على الحقينة (اللبن الرائب) فتترك مذاقاً مميزا، ويجرسه النحل ولا يجني منه العسل بل يتكاثر عليه، وترعاه الأغنام والإبل[41].

السدر:

شجرة عظيمة معمرة، من أهم الأشجار وأوسعها انتشاراً، وتنبت في بطون الأودية الرطبة حول المياه الجارية أو الجوفية القريبة من السطح، وربما نبتت في سفوح الجبال وفراعها العالية، ويكون في بطون الأودية اضخم وأكثر ارتفاعاً منه في السفوح أو الفراع العالية، ويقوم على جذع ضخم، غاية في الصلابه، ذو لحاء بني اللون ضارب الى السواد، معلم بأخاديد خشنة طويلة، وهو نوعان: عبري وهو الأول الذي ذكرناه، والثاني: ضال ينبت في السفوح الصخرية، وأطراف الحقول الزراعية وجوانب الطرق وبطون الشعاب، وهو أصغر من النوع الأول وأقل كثافة وكثير الشوك.[42] والسدر هو شجر (النَّبِقْ) وهو ثمره وهي ثمار لحمية كروية الشكل تظهر خضراء ثم صفراء وعند نضوجها تتحول الى اللون البني المصفر ثم الى اللون البني الغامق عند تناهي النضج، وهي حلوة الطعم، ذات رائحة طيبه، وقد يكون بعضها حامض الطعم، وتحتوي الثمرة على بذره واحدة شبه صلبه بنية اللون. ولثمر هذه الشجرة أهمية غذائية، وقد كان الناس في أزمنة الجوع الخالية يعيشون الأيام الطوال تحت السدور، وليس لهم طعام سوى ثمرة (النبق)، وقال الشاعر:

نسيتني يوم العشى نبق والليلة فوق الزير نستبق

ويستفاد من جذع السدر وأغصانه في صناعة العصي والهراوي الجيدة، وحطبه وقود جيد، ويستعمل لأسقف المنازل، وقد يتخذ منه الأبواب والنوافذ، ويصنع منها الصِّحَافْ والرِّحال، وخلايا النحل، ومهاريس يدقون فيها الحبوب، ونحوها، وربما دقوا فيها البارود، ولكنه خطير سريع الاشتعال ولا ينصح به أهل الخبرة،

ويستخرج من أجواف جذوعها المعمرة الخالعة جذاذ تطبخ فيتحلل منها صبغ أحمر تصبغ به الثياب، تسمى: الثياب المُصَلَّبَة، ويعلق منه رائحة طيبه تدوم طويلاً، ولأوراق السدر من المراعي الجيدة للإبل والغنم وتسمن عليه وتصح، وتهرس اوراق السدر وتستعمل لتنظيف الجسم وتنعيم فروة الرأس واغلب من يستخدمه لهذا الغرض النساء. واذا أزهرت السدرة يجني منها النحل عسلاً وافراً لذيذاً، وهو من أجود أنواع العسل الذي تنتجه المناحل وأغلاها ثمناً، ولونه اصفر محمر فإذا تقادم عليه العهد ثقل وزنه وتغير لونه الى الأحمرِ المسود[43].

الشَّذَاب:

شجرة معمرة عطرية دائمة الخضرة من أشهر النباتات العطرية، تنبت قرب المنازل وعلى جوانب الطرق، وحول جذوع الأشجار، ولأوراق الشذاب رائحة عطرية قوية، يستحسنها بعض الناس، وينفر منها آخرون، وقد تؤخذ غرازاً مع الريحان والبعيثران. وقد يتم استعمالها بعد هرسها ضماداً لعلاج لدغات الأفاعي والعقارب، ويستعمل ماءها أو بخورها لعلاج الأذن والعيون الملتهبة، ويبخرون بها المنازل إذ يعتقدون انها طاردة للجان والأفاعي وسائر الهوام، ويظن البعض انها تقي من العين [44].

الطِرْف أو الرَّاء:

وهي شجرة معمرة واسعة الانتشار، منابتها السهول وسفوح الجبال، ترتفع نحو 80-50سم وتتفرع الى سيقان كثيرة ويكون جذرها احياناً ظاهر وأحياناً مطمور في الأرض، ولها زهرة بيضاء ليّنه، كأنها قطن، تُخْرَطْ وتحشى بها الوسائد والفرش والمتاكي، ويحشى بها الحلوس، والبرادع والسروج، التي توضع على ظهور الحمير والجمال.[45]

العُتُم:

هو الزيتون البري، وهو شجرة كثيفة الأوراق دائمة الخضرة واسعة الظل، يجرسها النحل ولا يجني منها العسل ولكن يتكاثر عليها، واذا جرسها اصبح عدواني الطبع. واكتسب العتم أهميته لقاء ما تميزت به أخشابه من جودة وصلابة شديدة، فهي لا تتشظى ولا تهرت ولا تنخرها الربية (الأرضة) أو ما سواها من الحشرات الثاقبة مهما تقادم عليها الزمن، فكانوا بأعوادها يسقفون البيوت ومن جذوعها يصنعون السواري ويصنعون منها كذلك الأبواب والنوافذ والصحاف الواسعة والمغاريف والأمداد والعصي والمشاعيب، جمع مشعاب سمي بذلك: لأخذهم إياه من غصن قوي ذي شعبتين، ويعتبر بمثابة السلاح قديماً، ويصنع منها أيضاً الهراوي والمساوط، والبعض يصنع منها خلايا النحل ولكنها غير مفضله لثقلها الزائد ولأنها تكون حاره على النحل، ويتخذ من عودها الهاون الكبير ويدقون فيه البارود، والهاون الصغير ويدقون فيه البُنّ ويسمى النِّجر، ويتخذ من العتم أجود انواع القِطْران، ويتخذ من أعواده الحديثة مساويك.[46]

العُشَرْ:

شجرة سامة معمرة، دائمة الخضرة، تتحمل الجفاف وقساوة المناخ، تقوم على ساق واحدة أو سيقان كثيرة تخرج من أصل واحد، والعشر سريعة النمو فإذا تقادم عليها العهد تحول لحاؤها الى قشور فلينية صفراء معلمه بأخاديد طُولية واضحة التشقق. وتفرز العشر اذا قطعت سائل ابيض اللون غزير التدفق، ولها أزهار جميلة تظهر معظم أوقات السنة، والعشر سام لا يأكله شيء من الحيوان، إلا في أوقات الجدب فإن

الماعز ينوش شيئاً من ازهاره، ولبن العشر سام قاتل ويستعمل لعلاج الجرب في الحيوانات، والجروح التي تصيب الثيران أثناء الحراثة، وعصارته تُجمع وتُوضع في إناء ويوضع فيها الجلد فلا يبقى فيه شعر ثم يدبغ، وعود العشر خوار هش لا يصلح لأغراض البناء ولا الوقود، وقد يستعمل لخفته في تجبير العظام المكسورة، ومن فحمة يصنع أجود أنواع البارود بعد خلطة بالخفان (الكبريت الأصفر والملح) والملح وهو مادة قلوية يستخرج من معاطن الأبل وبيوت الخلاء[47].

المُرّ أو الكُشَعْ أو العَصَر:

شجرة من الفصيلة البخورية، واسعة الانتشار، اغصانها متشابكة شديدة الاعوجاج، وأوراقها أكبر قليلاً من أوراق البشام، وليس لها رائحة، تظهر أوراقها بعد سقوط الأمطار في فصل الخريف، وتسقط في أوائل فصل الربيع، وفي الصيف تتجرد من أوراقها تماماً فتبدو كالشجرة اليابسة، وما يميزها عن غيرها من البخوريات عصارتها التي تسمى (المُرّ) وسميت بذلك لمرارتها الشديدة، وللمر استخدامات كثيرة جداً يطول شرحها، والبعض يصنع منها بعض آلات الحرث كالمقرنه [48].

1-المناخ:

اعتمد رجل أضم في معرفة المناخ على حسابه بالنجوم فلها أيام محدده وستة فصول، وبها يهتدون في معرفة الفصول ومعرفة أوقات الزراعة وغيرها، وهو نفس الحساب المجردي في بلاد ثقيف، ولأن مناخ أضم حار في فصل الصيف وبارد في فصل الشتاء، فقد كان تقسيم الفصول الأربعة إلى ستة فصول مقسومه على قسمين كل قسم يتكون من ستة أشهر، وهي ستة شهور حارة، وستة شهور باردة. والفصول الستة هي كالتالي: الربيع وهو نوعان (ربيع أنوثه) و(وربيع ذكور) والقيظ والصيف والخريف والشتاء، فهي ستة فصول كل فصل عبارة عن شهرين كاملين وبها مجتمعه تكتمل اثنى عشرة شهر، والفصول الحارة فيها هي: الشهر الثاني من الصيف وفصل القيظ وهو شهرين وفصل الخريف وهو شهرين والشهر الأول من فصل الشتاء، وأما الفصول الباردة: تبدأ بالشهر الثاني من فصل الشتاء وفصليّ الربيع وهي اربعة أشهر بنوعيه (الأُنث) و(الذكور) والشهر الأول من الصيف، فنرى ان فصليّ الصيف والشتاء هي فصول انتقالية شهر يكون في موسم الحرارة وشهر يكون في موسم البرودة.[49] وأما النجوم فهي خمسة عشر نجمًا وهي: (الكف) و(الذراع) و(الصرف) وهي نجوم انتقالية فنصفها يكون في فصل والنصف الاخر في فصل اخر، ونجوم القيظ والربيع الأُنث هي: (الثُّريا) و(الأُحَيْمِر) و(الجَوْزاء) و(المِرْزَم)، وتَهِّلْ (تدخل) باليوم السابع من نجم الكف وتنتهي باليوم السادس من نجم الذراع، ونجوم ربيع الذكور والخريف هي: (النَّثْرَه) و(الطَّرْف) و(الجَبْهَه) و(الزُبْرَه)، وتهل باليوم السابع من نجم الذراع وتنتهي باليوم السادس من نجم الصرف، ونجوم الصيف والشتاء هي: (السِّمَاك الأول) و(السماك الثاني أو التالي) و(العقرب) و(العقيرب)، وتهل باليوم السابع من نجم الصرف وتنتهي باليوم السادس من نجم الكف.[50] وجميع النجوم مدتها اثنتى عشر يوماً عدا الجبهة فمدتها أربعة عشر يوماً، وتكون مدتها مجتمعه على مدار العام 364 يوماً. وتشتهر بعض الفصول بعلامات منها: فصل الخريف شهرين، شهر يسمى(غُبُرْ) وشهر يسمى (خُضُر) وفي الغبر تبدأ ثمار النخيل (البلح) بأخذ لونها. وأما فصل الشتاء ففي شهره الثاني الذي يكون بداية موسم الأيام الباردة فيلاحظ سقوط الندى في الصباح الباكر ويبدأ الليل بالبرودة. وفيما يلي جدول توضيحي:

الفصل	النجم	عدد أيامه	الفصل
الربيع (الأُنث)	**نصف الكف**	6	القيظ
	الثريا	12	
	الأحيمر	12	
	الجوزاء	12	
	المرزم	12	
	نصف الذراع	6	
الربيع (الذكور)	**نصف الذراع**	6	الخريف
	النثرة	12	
	الطرف	12	
	الجبهة	**14**	
	الزبرة	12	
	نصف الصرف	6	
الصيف	**نصف الصرف**	6	الشتاء
	السماك الأول	12	
	السماك الثاني أو التالي	12	
	العقرب	12	
	العقيرب	12	
	نصف الكف	6	

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث فقد توصل الباحث لعدد من النتائج وهي:

- ذُكرت أضم في الكتب الجغرافية لموقعين أحدهما في المدينة وهو وادي إضم وفيه حادثة قتل محلم بن جثامة لعامر الأشجعي ونزلت فيه الآية رقم (49) من سورة النساء، ووادي إضم معروف اليوم بمسمى وادي الحمض بالقرب من المدينة المنورة، والموقع الآخر هو وادي أضم محل الدراسة وتعتبر زيارة عاتق بن غيث البلادي له أول زيارة ميدانية لهذا الوادي وسكانه.
- أضم ومراكزها منطقة جبلية تحيط بها الجبال من ثلاث جهات والبعض من جميع الجهات وهي جبال شاهقة تغنى بها الشعراء في قصائدهم.
- استفاد سكان أضم من الموارد الطبيعية الموجودة في بيئتهم المحيطة.
- اعتمد مزارعي أضم على التقويم الزراعي الخاص بهم والذي يقسم الفصول إلى ستة فصول خلال موسمين وإثني عشر نجماً لكل موسم، وهو تقويم زراعي يستعمل إلى وقتنا الحاضر.

التوصيات:

- إجراء مقابلات مع سكان أضم من كبار السن، وأصحاب المعرفة والخبرة في المنطقة للتعمق في جغرافيتها وأهم الصعوبات التي واجهة سكان المنطقة الجبلية وكيفية التغلب عليها.
- وكذلك إجراء المقابلات مع المزارعين المعتمدين في زراعتهم على التقويم الزراعي الخاص بهم ومعرفة التفاصيل الزراعية.
- ضبط أسماء المواقع الجغرافية من الجبال والأودية والمناطق الحيوية وذلك عبر المقابلات وأخذ التشكيل مشافهة من أصحاب المنطقة. خصوصاً وأنه لا يوجد مصدر متخصص تطرق لها.

الهوامش:

(1) تعتبر أضم في يومنا الحاضر ضمن (تهامة) وليست ضمن الحجاز، وإنما الحجاز يطلق على سكان جبال السروات(من الطائف الى ابها)، وهي كذلك جغرافياً، فعن عبدالله بن عباس انه حدد الحجاز فقال: (ان الحجاز هو جبل السراة الذي يمتد من حدود اليمن الى بادية الشام فيحجز بين تهامة ونجد)، (انظر: ابراهيم الفوزان، اقليم الحجاز،ص16.)، وقال عاتق البلادي: ليست مكة فقط من تهامة بل تهامة كل ما بين البحر والسراة، من قعر عدن جنوباً إلى العقبة شمالاً. (انظر: عاتق البلادي، معجم معالم الحجاز، ج2، ص285.) وأُطلق على تهامة مسمى الحجاز في عهد الأشراف والدولة العثمانية قبل الدولة السعودية حيث كانت الحجاز تاريخيا وجغرافيا ممتدة من شمال المملكة وحتى نهاية عسير جنوباً، ومن البحر الأحمر غرباً الى نجد شرقاً، وكانت مكة عاصمة لها، وعندما ضم الملك عبدالعزيز – رحمه الله- الحجاز بقي المسمى والمعنى كما هو، حتى انه اطلق على دولته (مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها).

(2) محمود شكري الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق:محمد الأثري،(ط1،بيروت، دار الكتب العلمية، 1420هـ/2009م)، ج1،ص187.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلادان، (بيروت، دار صادر، 1397هـ-1977م)، ج1،ص214.

(4) نفسه، ص215.

(5) عاتق غيث البلادي، معجم معالم الحجاز،(ط2،بيروت، دار مكة، 1431هـ-2010م)،ص109

(6) هو رائد الصحافة والطباعة في نجد، من مواليد عام 1910م، منشئ صحيفة اليمامة، ومطابع الرياض، ومؤسس أول دار للترجمة والبحث والنشر (دار اليمامة) التي أصدرت مجلة (العرب) التي تعنى بالعربية وبتاريخ الجزيرة وجغرافيته، وقدم الكثير من الكتب والمؤلفات مثل: اكتشاف جزيرة العرب، وشاعرات البادية، وألف العديد من الكتب في فنون مختلفة مثل: رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث، وكتاب معجم قبائل المملكة العربية السعودية، وغيرها الكثير من المؤلفات، وحصل على العديد من الجوائز منها: وسام الملك عبدالعزيز، وجائزة الدولة التقديرية في الأدب، وجائزة الكويت للتقدم العلمي، وجائزة سلطان العويس في الامارات العربية المتحدة، وجائزة الملك فيصل العالمية في للأدب العربي وتوفي عام2000م. موقع وزارة الثقافة والإعلام (www.moci.gov.sa)، تاريخ الدخول: يوم الخميس 5/11/1444ه.

(7) حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، (الرياض، دار اليمامة)، ج1،ص191.

(8) عاتق بن غيث البلادي، ولد في مكة عام 1352ه، ، ألتحق أول حياته بالسلك العسكري وتقاعد على رتبة مقدم، ثم تفرغ بعد ذلك للمجال الثقافي، وحقق أكثر من 20 كتاباً في التاريخ والتراث، وكتب في العديد من صحف الحجاز القديمة مثل: صوت الحجاز وحراء وأم القرى، كما أسس دار مكة للنشر والتوزيع عام 1397ه، وكتب في المجلات الشهرية والأسبوعية والصحف اليومية مئات المقالات والبحوث، وله من المؤلفات المطبوعة 20 كتاباً وأخرى ما تزال مخطوطة، وهو عضو في عدة نوادي أدبية مثل: نادي مكة الثقافي ونادي الطائف ونادي جدة الأدبي، ومن مؤلفاته المطبوعة: معجم معالم الحجاز في عشرة مجلدات، ومعجم قبائل الحجاز في ثلاث مجلدات، ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ومعالم

مكة التاريخية والأدبية، والأدب الشعبي في الحجاز، وأودية مكة، واشتهر برحلاته التي حقق من خلالها كثيراً من الطرق، والأودية التي امتدت من العراق شمالاً حتى جنوب الجزيرة العربية واليمن وتوفي عام 1431ه. صحيفة الرياض، عدد 15212، مقال للكاتب: سعد الثقفي، يوم السبت 2/3/1431ه.

(9) عاتق البلادي، معجم معالم الحجاز، مرجع سابق،ص109..

(10) بني عفيف إحدى قبائل أضم وسوف يتم التعريف بها في الفصل الثالث، وبحسب إطلاع الباحث وزياراته الميدانية أثناء المقابلات فقد أخطأ البلادي في ذكر أن سكان أضم بني عفيف والصحيح أن أضم يسكنها عدة قبائل، ووادي أضم الذي يقصده البلادي يسكنه قبائل بني عبدلله من بني مالك.

(11) عاتق البلادي، معجم معالم الحجاز، المرجع السابق،ص109.

(12) محلم بن جثامة: واسمه يزيد بن قيس، نزلت الآية فيه وقيل في غيره، نزل حمص في أيام ابن الزبير ومات هناك. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ت: علي محمد وآخر، دار الكتب العلمية 1415ه/1994م، ط1، ج5، ص71.

(13) عامر بن الأضبط الأشجعي: وهو الذي قتلته السرية يضنونه متعوذاً بالشهادة، وقيل بل المقتول رجل اسمه مرداس بن نهييك. المرجع السابق، ج3، ص113.

(14) ووادي إضم المذكور في السيرة يعرف اليوم بوادي الحمض يأخذ كل مياه الجلس من مهد الذهب جنوباً، الى حَفِيرة الأيدا شمالاً، وهي مسافة تقرب من أربع مائة كيل، أي انه إقليم كبير، ومن أهم روافده: وادي النقيع ووادي الشعبة والعقيق الشرقي ووادي نخل وأودية الجزل وادي القرى، وممللل والعيص وألتمه، وعشرات الأودية الأخرى، وهو وادي المدينة . انظر: عاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز،ص110.

(15) سورة النساء، آيه 94.

(16) عطية حاسن المالكي، مركز التاريخ الشفوي، مقطع فيديو عبر قناة دارة الملك عبدالعزيز على اليوتيوب (www.youtube.com).

(17) شوقية الانصاري، لهجتي سر فصاحتي المعجم اللغوي المحلي للهجات القبائل في محافظة أضم،(ط1،جدة،1440)ص9.

(18) عطية حاسن المالكي، مصدر إلكتروني سابق.

(19) موقع أمارة منطقة مكة المكرمة، (MAKKAH.GOV.SA)، تاريخ الدخول 22/4/1443ه..

(20) المصدر السابق.

(21) نفسه.

(22) عبدالرحمن صادق الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية – إقليم جنوب غرب المملكة، (ط1، الرياض، دار المريخ للنشر،1404هـ/1984م)، ج2 ص246.

(23) أحد شعراء قبيلة الجِعَدة من بني مالك.

(24) عبدالله صالح ذياب الثوري العمري، مقابلة مع الباحث، بمنزله في مركز حقال بمحافظة أضم ، يوم الأحد صباحاً بتاريخ 9 / 3/ 1445ه.

(25) عاتق بن غيث البلادي، بين مكة وبرك الغماد رحلات ومشاهدات، مكة المكرمة، دار مكة للنشر والتوزيع، ص32.

(26) حنش بن حميدي الهلالي، مقابلة مع الباحث، في منزله بمكة المكرمة، يوم الأحد صباحاً بتاريخ 4/ 2/ 1445ه.

(27) حنش حميدي الهلالي، المقابلة سابقة.

(28) إبراهيم بن حسن العفيفي المالكي، مقابلة مع الباحث، في منزله بمكة المكرمة، وبرفقة الشيخ سعد حسن العفيفي وآخرون، يوم السبت مساءاً بتاريخ 3/2/1445ه.

(29) صالح بن مصلح المعافي المالكي، مقابلة مع الباحث، في منزله بمكة المكرمة يوم الأحد مساءاً بتاريخ 12/ 1/ 1445ه.

(30) أحمد بن حامد الأعفر المالكي، مقابلة مع الباحث، في مقر جمعية البر الخيرية بالجائزة، يوم الإربعاء ظهراً بتاريخ15/ 2/ 1444ه.

(31) صالح بن مصلح المعافي المالكي، مقابلة سابقة.

(32) عبدالله البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، (ط3، بيروت، عالم الكتب، 1403هـ)، ج1، ص59.

(33) عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية إقليم جنوب غرب المملكة، ط1، الرياض، دار المريخ للنشر، 1404هـ/1984م ص246.

(34) صالح رزق الله المتعاني، مركز ربوع العين، كتيب غير منشور، ص4.

(35) المرجع السابق،ص27.

(36) أحمد سعيد قشاش، النبات في جبال السراة والحجاز،(ط1، المدينة المنورة، السروات للطباعة، 1427ه)، ج1،ص113-106.

(37) ابن قتيبة، غريب الحديث، تحقيق: عبدالله الجبوري،(بغداد، مطبعة العاني،1977م)، ج2، ص284.

(38) أحمد قشاش، النبات في جبال الحجاز والسراة، مصدر سابق،ج1، ص269-262.

(39) وقصي بن كلاب بنى الكعبة مرتين الأولى كما ذكر ابن خلدون والثانية عندما أصاب الكعبة سيل وقيل حريق وتم بنائها من خشب سفينة في ميناء الشعيبة. عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبدالله الدويش،(ط1،دار يعرب،1425هـ /2005م) ج2،ص19.

(40) أحمد قشاش، النبات في جبال الحجاز والسراة، ج1،ص333-329.

(41) المرجع السابق ج2،ص9.

(42) أحمد قشاش، النبات في جبال الحجاز والسراة، المرجع السابق، ج1،ص410.

(43) نفسه، ج1، ص412.

(44) أحمد قشاش، النبات في جبال الحجاز والسراة، مرجع سابق، ج1،ص418.

(45) المرجع السابق، ج1،ص363.

(46) نفسه، ج2، ص99.

(47) أحمد قشاش، النبات في جبال الحجاز والسراة، ج2، ص155.

(48) المرجع السابق، ج2، ص161.

(49) عطية عبيدان الثقفي وآخران، التقويم الزراعي المجردي، الطائف، 1444ه، ط2، ص8-4. ويعتبر سعيد بن مطيحل الغفيري المالكي من أشهر الملمين بالتقويم الزراعي في أضم.

(50) عطيه الثقفي، التقويم الزراعي، المرجع السابق، ص16-4.

منهج الإمام ابن كثير (ت 774 هـ) في عرض السيرة النبوية من خلال تفسيره (غزوة بدر 2هـ/624م أنموذجاً) «دراسة تاريخية مقارنة»

أ. حشنوبيك يونوسوف

طالب ماجستير- قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تهدف هذه الدارسة إلى إبراز ترجيحات ابن كثير في المغازي النبوية من خلال تفسيره، خاصة غزاة بدر، وإبراز منهجه في تناول السيرة النبوية، وإيضاح علاقة الإمام ابن كثير بالتاريخ، وفكرة الدراسة هو الوقوف على ترجيحات ابن كثير واختياراته بخصوص المغازي في تفسيره في غزوة بدر (**2هـ/624م** انموذجًا)، ويبدأ الدراسة عن أهمية تفسير ابن كثير، ومنهجه في تدوين أخبار السيرة النبوية، وأهمية كتب التفسير في دراسة السيرة النبوية، وماذا روى ابن كثير عن غزوة بدر، وختمتها بتوصيات ونتائج، من أهمها حرص ابن كثير على التوازن بين الرأي والنقل في تفسيره، فلم يقتصر على نقل أقوال المفسرين السابقين، بل قدم آرائه الخاصة مستندًا إلى الأدلة الشرعية، واعتمد في تفسيره على المصادر الأصلية المسندة، من كتب السير والمغازي، إضافةً لكتب السنة النبوية كالصحيحين، وكتب السنن، وأحيانًا ما كان يغفل ابن كثير ذكر المصادر الأصلية، وينقل اختياره في تفسير الآيات مجملاً. وقد أتبعت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي بغية وصف بشكل دقيق، ورغبة الباحث في دراسة السيرة النبوية خاصة من تفسير القرآن الكريم أملاً في تحصيل فوائد علمية في السيرة النبوية والتفسير.

الكلمات المفتاحية: منهج ، الامام ابن كثير، السيرة النبوية، غزوة بدر.

The approach of Imam Ibn Kathir (d. 774 AH) in presenting the Prophet's biography through his interpretation (The Battle of Badr 2 AH/624 AD as an example) "A comparative historical study"

A.Yunsov Khushnidbek Husan Sobir

Abstract:

This study aims to highlight Ibn Katheer's preferences regarding the Prophet's battles through his interpretation, especially the Battle of Badr, highlight his approach in dealing with the Prophet's biography, and clarify the relationship of Imam Ibn Kathir with history. The idea of the study is to examine Ibn Kathir's views and choices regarding the battles in his interpretation of the Battle of Badr (2 AH/624 AD as a model), and begins the study on the importance of Ibn Katheer's interpretation, his approach to recording news of the Prophet's biography,

the importance of interpretation books in studying the Prophet's biography, and what Ibn Katheer narrated about the Battle of Badr, and concluded it with recommendations and results, the most important of which is Ibn Katheer's keenness to balance opinion. And the transmission in his interpretation, he did not limit himself to quoting the sayings of previous commentators, but rather presented his own opinions based on legal evidence, and relied in his interpretation on the original supported sources, from the books of biographies and battles, in addition to the books of the Sunnah of the Prophet, such as the two Sahihs, and the books of the Sunnahs, and sometimes Ibn Katheer neglected to mention The original sources, and conveys his choice in interpreting the verses in general. The study followed the historical and analytical approach in order to accurately describe the researcher's desire to study the Prophet's biography, especially the interpretation of the Holy Qur'an, in the hope of obtaining scientific benefits in the Prophet's biography and interpretation.

Keywords: Minhaj,Imam,bin katheer,Biography of the prophet,Battle of Badr

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله. أما بعد....

فإن دراسة السيرة النبوية من خلال تفاسير القران الكريم لهو الطريقة المثلى والعمل الأوفق للوقوف على أحداث السيرة النبوية. والقران الكريم هو كلام الله القويم وحبل الله المتين ونوره المبين أنزله على عباده نوراً وهدى للناس وتبياناً لكل شيء وفرقانا بين الحق والباطل.

هذا ويعد القران الكريم أهم مصدر لدراسة السيرة النبوية لأنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

لقد عاش الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله في حقبة غنية بالأحداث الجسام والتحولات العميقة في تاريخ العالم الإسلامي. شهد عصره حكم المماليك البحرية لمصر والشام، وامتدادات الحروب الصليبية، وسقوط بغداد، وصراعات السلطة بين الحكام المسلمين.

تميز عصره باضطراب سياسي عميق، ناجم عن ضعف الدين، والسرف، والنزاعات المذهبية. انعكس هذا الاضطراب على الحياة الاجتماعية، فكثرت المجاعات والأوبئة والوفيات.

لكنّ ذلك لم يمنع من إشراق شمس العلم والمعرفة في تلك الحقبة. انتشرت المدارس ودور التعليم، وكثر التأليف في جميع العلوم، وتعدد المجتهدون والحفاظ. برز في تلك الفترة علماء أفذاذ أمثال ابن تيمية، والحافظ الذهبي، والحافظ المزي، والبرزالي، وابن القيم، وابن كثير، وغيرهم.

يعتبر تفسير ابن كثير من أفضل التفاسير وأهمها، وقد حظي باهتمام كبير من قبل علماء المسلمين.

عاش الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله أغلب القرن الثامن الهجري (774-701هـ)، وشهد حقبة غنية بالأحداث الجسام والتحولات العميقة في تاريخ العالم الإسلامي. امتدت هذه الحقبة من حكم المماليك البحرية لمصر والشام (922-648هـ)، لتكون شاهدة على امتدادات الحروب الصليبية (670-490هـ)، وسقوط بغداد عام (656هـ)، وصراعات السلطة بين الحكام المسلمين.

تسلّم ابن كثير زمام العلم في عصرٍ تميز باضطرابٍ سياسيٍّ عميقٍ، ناجمٍ عن ضعف الدين، والسرف، والنزاعات المذهبية. انعكس هذا الاضطراب على الحياة الاجتماعية، فكثرت المجاعات والأوبئة والوفيات. ولكنّ ذلك لم يمنع من إشراق شمس العلم والمعرفة في تلك الحقبة، حيث انتشرت المدارس ودور التعليم، وكثر التأليف في جميع العلوم، وتعدد المجتهدون والحفاظ. برز في تلك الفترة علماء أفذاذ أمثال ابن تيمية، والحافظ الذهبي، والحافظ المزي، والبرزالي، وابن القيم، وابن كثير، وغيرهم.

أسهمت عواملٌ عديدةٌ في ازدهار هذه النهضة العلمية، أهمها:

1. التنافس بين الأمراء في تشجيع العلوم وتقريب العلماء.
2. كثرة الأوقاف على المساجد والمدارس.
3. اليقظة العامة في العالم الإسلامي.
4. وجود علماء أفذاذ وصلوا إلى مرتبة التجديد والاجتهاد.

وأثّر عصر ابن كثير بشكلٍ كبيرٍ على حرية الفكر في البحث والمناظرة، ونبذ التقليد المذهبي الجامد.

ختامًا، عاش ابن كثير في حقبةٍ غنيةٍ بالأحداثِ والتحولاتِ، شهدت صراعاتٍ سياسيةً واضطراباتٍ اجتماعيةً، لكنّها أشرقت أيضًا بنور العلم والمعرفة. وفي هذا المبحث، سلطنا الضوء على أهم سمات عصر ابن كثير، لفهم السياق التاريخي الذي عاش فيه هذا المؤرخ العظيم، وكيف أثرت الأحداث على مؤلفاته ومنهجه العلمي.

أهمية تفسير ابن كثير:

يُعد تفسير ابن كثير للقرآن الكريم من أهم التفاسير وأكثرها انتشارًا، لما يتميز به من منهج دقيق وأسلوب واضح، مما جعله مرجعًا أساسيًا لطلاب العلم والباحثين.

ولعل من مميزات تفسير ابن كثير:

- الاعتماد على المصادر الأصيلة: اعتمد ابن كثير في تفسيره على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأقوال الصحابة والتابعين، مما يضفي على تفسيره صحة ودقة.
- سهولة الأسلوب ووضوح المعنى: تميز أسلوب ابن كثير في التفسير بالسهولة والوضوح، مما يجعله ميسور الفهم لجميع القراء.
- غزارة المعلومات: شمل تفسير ابن كثير معلومات واسعة النطاق في مختلف مجالات المعرفة الإسلامية، من علوم القرآن والتاريخ والفقه إلى علم اللغة العربية.
- التوازن بين الرأي والنقل: حرص ابن كثير على التوازن بين الرأي والنقل في تفسيره، فلم يقتصر على نقل أقوال المفسرين السابقين، بل قدم آرائه الخاصة مستندًا إلى الأدلة الشرعية.

ويعتبر تفسير القرآن العظيم لابن كثير من أفضل التفاسير وأهمها، قال الإمام السيوطي: «لم يؤلف على نمطه مثله»[1]، وهذا راجع إلى سلامة المنهج الذي سار عليه ابن كثير في تفسيره وهو التفسير بالمأثور، وقد بين ذلك في مقدمة التفسير بقوله: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك فعليك بالسنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لاسيما علماءهم وكبراءهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهم أجمعين-وإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين»[2].

ثم قال: «إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها»[3].

وهذه تعتبر أفضل الطرق وأحسنها في تفسير القرآن الكريم، وقد اعتنى علماء المسلمون بهذا التفسير عناية عظيمة فمنهم من حققه وصححه وعلق عليه ومنهم من اختصره.

المبحث الأول: منهج ابن كثير في تدوين أخبار السيرة النبوية:

مكانة تفسير ابن كثير ترجع أهميته إلى أنه تفسير بالمأثور، وهذا النوع من التفسير هو الطريق الوحيد لفهم القرآن فهمًا صحيحًا سليمًا من الزيغ والضلالات، وقد التزم ابن كثير بهذا المنهج تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين إضافة إلى اللغة العربية[4]. وعند الحديث عن كتب التفسير بالمأثور فإننا نعود إلى القرن الهجري الأول، حيث كتب سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، وعبد الرزاق الصنعاني، وابن أبي شيبة -رحمهم الله-، ما يعدّ تأليفاً مستقلاً في التفسير، يجمع أقوال الصحابة والتابعين، بخلاف ما سبقهم من الكتابات التفسيرية، التي لا تعدّ تأليفاً مستقلاً في التفسير، وإنما قد تكون تفسيراً لبعض الآيات، أو ضمن روايات أخرى في الحديث[5]. وفيما يتعلق بتفسير ابن كثير فمما تميز به ابن كثير في تفسيره أنه يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي لها تعلق بتفسير الآية، مع بيان ما يحتج به منها، وقد اعتمد في تفسيره على أكثر كتب السنة لتدوين الروايات عمومًا، من الصحاح ومن المسانيد والسنن والمعاجم والمستخرجات، وغيرها، حتى شغلت مادة الحديث في تفسيره حيزا كبيرا.

ثم يردف ذلك دائمًا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن يليهم من علماء السلف، وهذا المنهج قد رسمه ابن كثير لنفسه في مقدمة تفسيره، لذلك قال: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك فعليك بالسنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لاسيما علماءهم وكبراءهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة

المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهم أجمعين-وإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين»[6]. ونظرًا لما للسنة النبوية من أهمية في تفسير القرآن، ولما اشتملت عليه من إيضاح وتفسير وبيان لآيات التنزيل فقد سار ابن كثير على اعتبارها المصدر الثاني للتفسير بعد تفسير القرآن بالقرآن، كما هي طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم من مفسري السلف، «فترى الحافظ ابن كثير بعدما ينتهي من تفسير القرآن بالقرآن ينتقل إلى التفسير بالسنة الواردة عن الرسول ﷺ فيذكر الأحاديث التي تفسر وتوضح معنى الآية، والتي لها علاقة بالآية من أي وجه من الوجوه، كما كانت طريقته في تفسير القرآن بالقرآن»[7]. ويعتمد في نقل الأحاديث على كتب السنة ودواوينها ومصادرها، وقد يروي بالإسناد المتصل إلى النبي ﷺ وهذا قليل ونادر عنده، من ذلك عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى ابن مريم، ثم كنت أنا»، ثم قال ابن كثير: «وقد رويناه عن أنس من وجه آخر، فأخبرني الحافظ أبو عبد الله الذهبي، أخبرنا أبو الفضل بن عساكر، أنبأنا الإمام أبو بكر القاسم بن أبي سعيد الصفار، أخبرتنا عمة أبي، عائشة بنت أحمد بن منصور بن الصفار، أخبرنا الشريف أبو السنابك هبة الله بن أبي الصهباء محمد بن حيدر القرشي، حدثنا الإمام الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني قال: أخبرنا الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق، حدثنا مسلم بن خالد، حدثنا زياد بن سعد، عن محمد بن المنكدر، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت على إثر من ثلاثة آلاف نبي من بني إسرائيل». وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده لا بأس به، رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق هذا، فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح والله أعلم»[8]. وبذلك فقد أعطى الإمام ابن كثير جانب تدوين السيرة في تفسيره اهتمامًا بالغًا ولا غرو في ذلك حيث أنه قد أخذ على نفسه اعتبار السنة النبوية مصدرًا أصيلًا في تفسير بعد تفسير القرآن بالقرآن، وسيرته ﷺفيها بيان لسنته وهدية وسيرته في غزواته وحروبه، والوقائع التاريخية في عهده عليه الصلاة والسلام وقد اعتمد عمدة المؤرخين في كتابه وهو البداية والنهاية وهذا أكبر شاهد على ذلك[9].

كذلك فقد قد اعتمد الحافظ ابن كثير في تأليف التفسير وفي تدوينه على كتب التفاسير المتقدمة وكتب السير، ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها[10]، جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري[11]، وتفسير ابن أبي حاتم[12]، وتفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه، وتفسير البغوي، معالم التنزيل، وتفسير ابن عطية[13]، المسمى بالمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تفسير الرازي، وتفسير القرطبي[14].

كما قد اعتمد على كتب الحديث للتحقق من الروايات والأخبار فبجانب ما اعتمد عليه من كتب التفسير كان له عدة مصادر أخرى من كتب الحديث، ومنها، صحيح البخاري[15]، صحيح مسلم[16]، مستدرك الحاكم[17]، سنن أبي داود[18]، وغير ذلك من كتب الحديث.

كذلك اعتمد على كتب العقائد، ومنها كتاب التذكر بأحوال الموتى وأحوال الآخرة للقرطبي، وكتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد وغير ذلك، وأيضًا من كتب الفقه وأصوله، نجده قد نقل عن: الأم للشافعي، والاستذكار لابن عبد البر، وكتاب الشامل لابن الصباغ[19]، وغير ذلك، وأيضًا ومن كتب السير والمغازي، فقد استفاد الحافظ ابن كثير من الكتب[20]: كسيرة ابن اسحاق، ومغازي الواقدي، أو المغازي النبوية، ودلائل

النبوة للأصبهاني، كتاب الشفاء للقاضي عياض[21]، وغير ذلك من كتب التراجم ومعارف العامة. وخير مثال على ذلك ما ساقه أثناء كلامه على الآيات التي نزلت في شأن غزوة بدر[22]، وفي غزوة أحد[23]، وفي الحديبية[24]، وفي إجلاء يهود بني النضير[25]، وغير ذلك من الوقائع في عهده الميمون عليه الصلاة والسلام ويعتبر في ذكره لهذه الأخبار مقتصدًا بما تدعوا الحاجة إليه في التفسير وكثيرًا ما يحيل إلى كلامه على هذه الروايات وأسانيدها في كتابه **(البداية والنهاية)** [26]. ويذكرُ أن ابن كثير رحمه الله يتعامل مع آيات السيرة النبوية بأنه فسر أغلب آيات السيرة النبوية، ويعتمد في تفسير آيات السيرة النبوية على المصادر الأصلية المسندة، من كتب السِّيَر والمغازي، إضافةً لكتب السنة كالصحيحين، وكتب السنن، وغالباً ما يرجِّح قول ابن إسحاق عند الاختلاف بين أهل السير والمغازي، ويغفل ابن كثير ذكر المصادر الأصلية أحياناً، وينقل اختياره في تفسير الآيات مجملاً، ولعل هذا في المواضع التي يرى أنها لا تحتاج إلى مزيد توثيق، أو أن المفسرين متفقون على معناها[27].

المبحث الثاني: أهمية كتب التفسير في دراسة السيرة النبوية:

تتميز سيرة النبي ﷺ عن سيرة الأنبياء السابقين عليهم السلام بصحة المصادر التي تعتمد عليها، وأول هذه المصادر هو القرآن الكريم وقد سبق الحديث عن تكفل الله بحفظه وما بذله المسلمون على مر الأجيال في حفظ وتدوين النص القرآني، والمصدر الثاني هو الحديث النبوي، والسيرة النبوية، تميزت على غيرها من سير الأنبياء عليه السلام بأن مصادرها موثقة، وقد تحدث القرآن كثيرا عن سيرة والنبي ﷺ كذلك الأحاديث النبوية ولكن ما ورد من السيرة في كتب السيرة والتأريخ فإن العلماء قد تولوا تحقيقه وتمحيصه وبالطبع فيه الأخبار الصحيحة والضعيفة والموضوعة. ولم تحظ سيرة نبي من الأنبياء وبذل فيها جهد علمي مثل ما حظيت سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث تمثل السيرة النبوية الجانب العملي والتطبيقي المشرق للدين الإسلامي، كما تمثل جانبًا بيانًا مفصلًا لكثير من المسائل المذكورة في القرآن الكريم، مثل أوصاف المنافقين، وكيدهم للإسلام، ولنبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقصة الغزوات المختلفة، (بدر، وحنين، وتبوك، وغيرها)، وأحداث البيعة، وأحداث الهجرة، وقصة زواجه ﷺ، من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وصور من علاقاته بآل بيته ﷺ إلى غير ذلك من الأحداث، والقصص المذكورة في القرآن الكريم، والتي ترتبط بما ذكر في كتب السيرة النبوية الشريفة. وكتب التفسير لها منهجية خاصة عند تناولها لسرد وعرض السيرة النبوية ومن الممكن الوقوف على ذلك بشكل واضح من خلال جملة من الأمور أبرزها أن كتب التفسير الأصلية تعتمد على الأسانيد في رواياتها، وهذا الحال ينطبق على جميع الآيات ولا يقتصر على الخاص منها بالسيرة النبوية فقط[28].

لذلك قام الإمام بن كثير بتفسير أغلب آيات السيرة النبوية، وقد اعتمد على المصادر الأصلية المسندة عند تفسير آيات السيرة النبوية من خلال السير والمغازي، فضلًا عن كتب السنة النبوية كالصحيحين، وكتب السنن[29]. ورغم ذلك فأحيانًا ما كان يغفل ابن كثير عن ذكر المصادر الأصلية، وينقل اختياره في تفسير الآيات مجملًا[30]. وتتمثل أهمية السيرة النبوية الشريفة في معرفة تفاصيل حياته ﷺ، قبل البعثة وبعدها: الإرهاصات والظروف التي سبقت مولده ﷺ، وأحداث ميلاده ﷺ، ورضاعته، ونشأته، وتحنثه، وبعثته، ودعوته السرية والجهرية، وما نزل عليه من وحي في مكة أو في المدينة. وتظهر أهمية كتب التفسير في دراسة السيرة في كونها تمثل ضرورة حتمية كونها تمثل السيرة العملية والتفسير العملي للاقتداء به ﷺ، فهذا إلى

جانب أنه المبلغ عن ربه هذا الدين، النبي المرسل ﷺ، نبي الرحمة، ونبي الملحمة، فهو: الإمام، والقائد، والمجاهد، والقاضي، والمفتي، والمعلم، والزوج، والوالد، والجار، إلى غير ذلك، ولا يمكن أن يسد هذا الثغر سوى كتب السير والمفسرين، فالسيرة النبوية تمثل الميزان الذي توزن به الأعمال؛ فهي فرع متين من فروع هذا الدين تصور حياة رسول الله ﷺ وصفاته، وأخلاقهن وشمائله، وجهاده، وغزواته، ورحمته، وحلمه، وتشريعه، وغير ذلك.وتتمثل أهمية كتب التفسير في دراسة السيرة النبوية كذلك فيما تتركه عند القارئ والمطلع من راحة نفسية وطمأنينة روحية، وما يفيده منها من دروس وعبر؛ فهي تعمق الصلة والمحبة لرسول الله ﷺ، وبيته، وصحبه، وهديه.

المبحث الثالث: مرويات غزوة بدر:

تُعد غزوة بدر من أهمّ المعارك في تاريخ الإسلام، بل هي نقطة تحوّلٍ حاسمةٍ في مسيرة الدعوة الإسلامية، نُبحِر في هذا المبحث عبر مرويات الإمام ابن كثير رحمه الله، لنُسلّط الضوء على أحداث هذه الغزوة العظيمة، ونستكشف دروسها الخالدة.

شكلت غزوة بدر محطة هامة وخطيرة وحاسمة في تاريخ الإسلام، حيث قد تقرر على إثرها مصير الأمة الإسلامية، ومصير دعوة ناشئة كانت تبحث عن مجال لتوسيعها، وترغب فيمن ينصرها ويؤمن بمبادئها، وهذه الغزوة بلا شك قد مثلت حدث تاريخي بامتياز في حياة الإسلام وفي مسيرة المسلمين ككل، حيث أنها قد غيرت مجرى التاريخ كله، كما أنها قد منحت كذلك فرصة الانطلاقة القوية للدعوة الإسلامية، وبناء كيان المجتمع المسلم، ومن خلال استعراض أخبار غزوة بدر بكل أطوارها، وبعد الوقوف على مقدماتها ونتائجها، نجد أن لهذه الغزوة منزلة خاصة، كما أن الله سبحانه وتعالى قد أودع في فصولها سرا يكتنفه جلال الموقف وهيبة الحدث، وهو كذلك قدد جعل في طيات هذه المواجهة الحاسمة بين الفئة المؤمنة وبين الفئة الأخرى المناوئة لها، دروسا خالدة، هذه الدروس والعبر تتجدد ذكراها ما بقيت في الدنيا مواجهة بين الحق والباطل، واستمر صراع بين الخير والشر، وقد اقتضت حكمة الله جل وعلا أن يلتقي فريقان على غير موعد، وله الحكمة فيما يدبر ويقدر سبحانه، فقد بدت فيه جميع المؤمنين قليلة العدد مع ضعف عدتهم، كما قد تكاثرت أعداد المشركين وقويت استعداداتهم، كذلك فقد واجه القائد الحكيم وهو محاط بأصحابه الكرام هذا التحدي الكبير بما تتطلبه اللحظة من إيمان قوي بالله، وثقة بوعده في نصر أوليائه، مع التفويض التام لما قضاه، والرضا بما اختاره، والاعتقاد الجازم بأن الخير كله فيما قدر وقضى، كذلك فقد نصر الله ببدر نبيه، صلى الله عليه وسلم، ومعه أعز جنده من الصحابة الكرام، ممن قد أبلوا البلاء الحسن في نصرة الدين، وبذلوا المهج والأرواح في سبيل إعلاء كلمته في الأرض، وقد تسابق الكهول والشباب في ذاك اليوم للفوز بالرضا والرضوان، ونيل الشهادة في سبيل الله، وقد كانت المسابقة على أشدها بين أخلاء، وبين أصدقاء، وبين إخوة أشقاء، فالذين شهدوا بدرا من أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، هم بحق صفوة الصحابة وخيارهم، نالوا هذه المزية السنية والفضل الكبير بما قدموه من التضحيات الجسام، وقد بذلوا في سبيل دعوتهم ومحبة نبيهم أغلى ما يملكون، ونجد أن هؤلاء البدريون كانوا وما يزالون يمثلون نجوما ساطعة في التاريخ الإسلامي، حيث قد تحقق النصر المبين بفضل الله على أيديهم، وتم بهم الفرقان بين الحق والباطل، والعزة والرفعة التي أدركهما الإسلام والمسلمون في جزيرة العرب.

أسباب غزوة بدر:

سبقت غزوة بدر مجموعة من سرايا على عير قريش التجارية إلى الشام؛ حيث قام بها الصحابة رضوان الله عليهم (من المهاجرين دون الأنصار) لاستعادة ما أخذته قريش من أموال المسلمين وأملاكهم التي تركوها في مكة، وهذه السرايا كانت لاسترداد حق اغتصب لا غارات سلب ونهب، وهذا ما يؤكده غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لمقتل (عمرو الحضرمي) على يد (عبد الله بن جحش) وذلك في إحدى هذه السرايا[31]، بينما لم تكن الحماسة التي كان يباشر بها شعائر الدين والطقوس الدينية لتحول بينه وبين إن يراقب خطوات أعدائه . وكان قد أرسل من قبل عدة حملات للغزو، وحتى يتابع عن كثب تحركات قريش بعث بعبد الله بن جحش على رأس تسعة جنود وأمرهم بالتوجه إلى نخلة[32] وهو واد يقع بين مكة والطائف[33]، وقد ثار النبي وأصحابه عندما قال: (**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**)[34]، وأبي هو وأصحابه اخذ أي شيء من الغنيمة حتى نزلت الآية [35]، (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ**) [36]، وتدل الآثار الصحيحة على إن النبي – صلى الله عليه وسلم – أخرج الخمس من الغنيمة ثم قسمها بين المقاتلين[37]، وهو ما ذكر ابن كثير، وكانت آية الخمس قد نزلت ضمن سياق الآيات في غزوة بدر[38]، وهي قوله تعالى: (**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ وِلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى**)[39]، وقد علم النبي محمد صلى الله عليه وسلم: أن قافلة تجارية يقودها أبو سفيان ويحميها بين أربعين وسبعين رجلا قد خرجت لتجارة من الشام الى مكة، فقرر اعتراضها لتوجيه ما يعرف بأيامنا هذه بضربة عسكرية لمناوئية بهدف إضعاف كفار قريش من الناحية العسكرية ومن الناحية الاقتصادية؛ حيث قد أرسل لذلك العيون لتسقط أخبار تلك القافلة ومعرفة من فيها حرصًا منه على تحليل عناصر المعركة قبل القيام بها، فالضربة التي تنزل بأهل مكة موجعة، وفيها كذلك عوض كامل لما لحق المسلمين من خسائر في أثناء هجرتهم الأخيرة، وبناء على ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقد أورد بن كثير هذه الرواية ورجحها[40]: (**هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها**)، ولم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفاً، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ثم سار بمن أمكنه الخروج، كما كان الذين صحبوا الرسول ﷺ هذه المرة يحسبون أن مضيهم في هذا الوجه لن يعدوا ما ألفوا في السرايا الماضية، ولم يَدُرْ بخلد واحد منهم أنه مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ولو علموا لاتخذوا أهبتهم كاملة، ولما سمح لمسلم أن يبقى في المدينة لحظة؛ لذلك فترت الهمم عندما وردت أخبار أخرى بأن القافلة المطلوبة غيرت طريقها، واستطاع قائدها أبو سفيان أن ينجو من الخطر المحدق به، بعد أن أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماية أموالهم، ويستثير حميتهم للخروج في تعبئة ترد كل هجوم، وغالب النبي ﷺ هذا الفتور العارض، وحذر صحابته من عقبي العود السريع للمدينة أن فاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها وأصر على ضرورة تعقب المشركين كيف مانوا، وذلك قوله تعالى: (**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ**) [41]، والذين كرهوا لقاء قريش ما كانوا ليهابوا الموت، لكنهم لم يعرفوا الحكمة في خوض معركة مباغتة من غير إتقان ما ينبغي لها من عدة وعدد، بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزن الظروف الملابسة للأمر كله، حيث وجد الإقدام خير من الإحجام، ومن ثم قرر أن يمضي، فالحكمة من توجيه هذه البعوث المسلحة تضيع سدي لو عاد على هذا النحو قاصدًا أو نزهة لطيفة، فالمسافة بين المدينة وبدر تربوا على 160 كيلو

مترًا، ولم يكن مع الرسول وصحبه غير سبعين بعيراً يتعاقبونها، ثم أذن بالقتال[42]، قال جل جلاله: (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**)[43]، ذكر ابن كثير قال العوفي عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة، وقال مجاهد والضحاك، وغير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد[44].

معرفة أحوال قريش قبل معركة بدر:

ذكر ابن كثير أنه قد ظفر المسلمين برجلين من قُريش يقفانهم على أخبارهم، قال ابن إسحاق: ثُم رَجَعَ رسول الله إلى أصحابه، فلما أمسى بعث علي بن أبيِ طالب، والزُّبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، ﷺفي نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد فأتوا بهما فسألوهما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما فلما إذ لقوهما، قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما وركع رسول الله وسجد سجدتيه، ثم سلم، وقال: (**إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟**)، قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى، بالعدوة القصوى (والكثيب: العقنقل) ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كم القوم؟**)، قالا: كثير، قال: (**ما عدتهم؟**)، قالا: لا ندري، قال: (**كم ينجرون كل يوم؟**)، قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: (**القوم فيما بين التسع مئة والألف**)، ثم قال لهما : (**فمن فيهم من اشراف قريش؟**)، قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، نبية ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال: (**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**)[45].

بناء العريش لرسول الله ﷺ :

ذكر ابن كثير فيما أورده أنه بعد أن استقر المسلمون في موقعهم تقدم سعد بن معاذ ﷺ إلى رسول الله ﷺ وقال: "يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقي عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا انك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم: يناصحونك ويجاهدون معك" فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ثم بنى لرسول الله علية الصلاة والسلام عريشا مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال ويشرف على ساحة المعركة وقد تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار لحراسة النبي ﷺ حول مقر قيادته في العريش بقيادة سعد بن معاذ ﷺ، وفي غزوة العشيرة[46] أن عيرا لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام، ولم قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ﷺ إلى الشمال، ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلا إلى الحوراء[47]، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر.

كانت العير مركبة تحمل من ثروات طائلة من أهل مكة علىألف بعير موقرة بالأموال، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً؛ لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً: (**هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**)[48]، ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة – بدل العير- هذا الاصطدام العنيف في بدر، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة، وهم يحسبون أن مضي رسول الله في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا الماضية، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة[49].

السبب المباشر لغزوة بدر:

خرجت قريش بأعظم عير لها سنة 2هـ ، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية إلا بعث بماله فيها، وكان فيها (29) رجلًا على رأسهم أبو سفيان، حيث علم النبي ﷺ بخروجهم، فرأى أن يضعف قدرتهم المالية والنفسية بالاستيلاء على عيرهم، حتى يشعروا بقوته وضعفهم، ومن ثم لا يتكالبوا على القضاء على دين ربه، فلما علم الرسول ﷺ بعودتها من الشام في طريقها لمكة وفيها أموالهم الكثيرة، قال لأصحابه: (**أخرجوا إليها لعلها تكون نفلا لكم**)، فخف بعضهم وثقل البعض الآخر، لأنهم ظنوا أن النبي ﷺ لا يلقى حربًا، فخرج النبي بمن خف معه لثماني ليال خلون من رمضان، وقيل: 12 ليلة منه، ثم عسكر بمكان يبعد مسافة ميل عن المدينة يسمى بئر عنبة[50]، وقد عرض الجنود فرد من لا يصلح للقتال منهم، وعد الباقي فوجدهم 313 رجل بعدة أصحاب طالوت الذين جاوزا معه النهر وانتصروا على أعدائهم ففرح النبي ﷺ بذلك، وقد سار ﷺ بهم حتى وصل لوادي ذَفِرَانَ[51] فنزل به، ثم جاءه خبر مسير قريش لحماية عيرهم، حيث بلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يريده، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري[52] بعشرين مثقال حتى يستنفر قريش، فلما بلغ مكة جعل يصرخ من فوق بعيره، وقد شق قميصه وجدع أنف البعير، وكان يقول في صراخه: يا معشر قريش.. اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان عرض لها محمد في أصحابه.. الغوث الغوث، فتجهز الناس سراعا، ولما كان النبي ﷺ بوادي ذفران علم بمسير قريش لحماية عيرها، فقال لأصحابه: (**إن الله وعدني إحدى الطائفتين العير أو النفير**) [53]، وكان التوجه إلى العير أحب إلى بعضهم، ليستعينوا بما فيها من الأموال على شراء الخيل والسلاح، فقالوا: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له، وفي ذلك يقول الله تعالى معاتبا لهم: (**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ**) [54]، وقد تكلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا الكلام، وقال المقداد بن الأسود[55]: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: (**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[56][57]، لجالدنا معك من دونه، حتى نبلغه، فدعا له بخير وأثنى عليه. وكان الأنصار قد قالوا في بيعتهم بالعقبة: يا رسول الله إنا برآء من ذمتك حتى تصل إلينا، فخاف النبي ﷺ أن لا يروا وجوب القتال خارج المدينة، فلهذا خاطبهم قائلًا: (**أشيروا علي أيها الناس**)، فقال سعد بن معاذ ﷺ -سيد الأوس -: "كأنك تريدنا يا رسول الله"، قال: (**أجل**)، قال سعد: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف

منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى، فسر النبي ﷺ ونشط وقال: (**سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**)، ثم ارتحل ونزل قريبا من بدر. ولما نزل النبي ﷺ بالقرب من بدر علم أبو سفيان بذلك، فاتجه بعيره نحو الساحل حذرا من لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكان جيش قريش قد نزل بالجحفة[58]، فبعث اليهم أبو سفيان، لقد نجوت بعيركم وأموالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم بها ثلاثا، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتتسامع بنا العرب فيها بوننا، فبلغ ذلك أبا سفيان فقال: هذا بغي والبغي وخيم العاقبة، ثم سار جيش المشركين حتى نزلوا بعدوة بدر القصوى[59] من المدينة، فعلم النبي ﷺ بما كان من أمرهم، فأقبل على جيشه قائلا: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها، ثم سار بهم حتى نزلوا بعدوة بدر الدنيا من المدينة، بعيدا عن الماء في أرض سبخة في غير مصلحتهم، وقد أصبحوا عطاشا، فوسوس إليهم الشيطان إنهم سيموتون عطشا، وسيتمكن المشركون منهم، ولكن الله ثبتهم بفضله، وغشاهم بالنعاس ثم أنزل عليهم مطرا سال به الوادي، فشربوا وملأوا حياضهم وأسقيتهم، وتلبدت الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام، وكان الأمر بالعكس على المشركين، حتى لم يعودوا قادرين على الارتحال[60]، وفي ذلك يقول الله تعالى: (**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**)[61]. وقد بات النبي ﷺ بأصحابه حيث نزلوا، ولما أصبح بهم الصبح، ثم سار بهم حتى نزل بأدنى ماء من بدر، فقال الحباب بن المنذر الأنصاري[62]، وكان معروفا بجودة الرأي في الحرب: "أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة"، فقال ﷺ: (**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**)[63]، قال: "يا رسول الله؛ ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون"، فاستحسن النبي ﷺ رأيه، ونفذ ما أشار به الحباب، ثم بنى للرسول عريشا فوق تل مشرف على المعركة، فكان فيه مع أبي بكر، وقام سعد بن معاذ متوشحا بالسيف على باب العريش. وبعد أن نزلت قريش بالعدوة القصوى باتوا بها ثم أصبحوا، فأقبلوا على وادي بدر في خيلاء وفخر، فلما رآهم النبي ﷺ قال: (**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني**)[64]، ولما اطمأنت قريش في وادي بدر، بعثوا عميرا بن وهب الجمحي ليقدر جيش المسلمين، فلما عاد أخبرهم أنهم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكني رأيت نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، يتلمظون تلمظ الأفاعي، لا يريدون العودة إلى أهليهم، ليس لهم ملجأ إلا سيوفهم، إلى آخر ما قال، فنصحهم حكيم بن حزام[65] بالعودة دون قتال، ولكن أبا جهل أصر على المواجهة قائلا: "لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وقال آخرون: غر هؤلاء دينهم وتعبئوا للقتال، وكما أراهم الله للمشركين قليلين، أرى الكافرين للمؤمنين قليلين، ليقبلوا على لقائهم في ثقة وطمأنينة، وفي ذلك يقول الله تعالى: (**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً**) [66]، قال ابن كثير: "ولو أراكهم كثيرا لفشلتم أي لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ولكن الله سلم أي من ذلك، بأن أراكهم قليلا إنه عليم بذات الصدور أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"[67].وفي اليوم السابع عشر من رمضان خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، ودعا إلى

المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا لهم: أنتم أكفاء كرام، ونحن نريد قومنا- يقصدون المهاجرين- فأمر النبي ﷺ برجوعهم إلى مصافهم، وأن يخرج إليهم عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، فبارز عبيدة عتبة وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد، فقتل حمزة وعلي غريميهما فورا، وأصاب كل من عبيدة وعتبة صاحبه ولم يقتله، فحمل علي وحمزة على عتبة فأجهزا عليه، وحملا صاحبهما إلى النبي ﷺ فأفرشه قدمه، وبشره بالشهادة، وبعد هذه المبارزة تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، فجعل النبي ﷺ يعدل صفوف أصحابه، ثم رجع إلى عريشه، وقال: (**اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد**"[68]. وقد رجح ابن كثير أن المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ونافع مولى ابن عمر وسعيد بن جبير والحسن البصري وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها إلا عصابتهم تلك كما قال النبي ﷺ «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»[69]. وقد سر الرسول صلي الله عليه وسلم فقال: (**سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم**)[70].

خرجت قريش لملاقاة المسلمين مزهوة بقوتها في ألف مقاتل لكن نبي الهدى وزع الأدوار فالقائد العام هو مصعب بن عمير أما راية المهاجرين (العقاب) فقد تولاها علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وراية الأنصار كانت لسعد أبن معاذ قيادة الميمنة للزبير بن العوام والميسرة للمقداد بن عمرو والمؤخرة لقيس ابن صعصعة[71] رضي الله عنهم أجمعين[72].

وانطلق الرسول صلي الله عليه وسلم بجيشه إلى بدر فوصل المرتفعات الشرقية لبدر، قال تعالي: ﴿**إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ**﴾ [73].

وقد رجح ابن كثير أن الله تعالى مخبرا عن يوم الفرقان إذ أنتم بالعدوة الدنيا أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، وهم أي المشركون نزول بالعدوة القصوى أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، والركب أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، أسفل منكم أي مما يلي سيف البحر، ولو تواعدتم أي أنتم والمشركون إلى مكان لاختلفتم في الميعاد[74].

موقف إبليس من غزوة بدر:

قال الله تعالى:﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [75].

تحذر الآية المؤمنين أن يتشبهوا بأولئك الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ومفاخرة واذكروا وقت أن زين لهم الشيطان أعمالهم في معاداتكم بأن زين لهم بأنهم على الحق وأنتم على الباطل، وحسن لهم ما جبلوا عليه من غرور ومراءاة، وأوهمهم بأن النصر سيكون لهم عند لقائكم، بأن قال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، أي: لن يغلبكم أحد من الناس، لا محمد ﷺ واصحابه، ولا غيرهم من قبائل العرب وإني مجير ومعين وناصر لكم من كل عدو، ومعنى الجار هنا: الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار[76].

وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ**﴾ [77].

قوله: (**تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ**)، أي التقى الجمعات[78].

و(قوله): (**نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**)، أي: ولى هاربًا وراجعًا القهقري وأبطل كيده وذهب ما مناهم به من النصرة والعون، يقال: نكص عن الأمر نكوصًا ونكصا أي تراجع عنه وأحجم والعقب مؤخر القدم.

و(قوله): (إني بريء منكم)، أي: تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة.

و(قوله): (إني أرى مالا ترون)، أي: من الملائكة النازلة لتأييد المؤمنين مالا ترونه أنتم.

و(قوله): (إني أخاف الله)، قيل: خاف أي يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الواقعة، وقيل إن دعوى الخوف كذب منه، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك»[79].

و(قوله): (والله شديد العقاب)، لمن عصاه وخالف أمره[80].

وقد أورد ابن كثير ما روي عن ابن عباس قال: «جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم[81]، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبرا، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب، وذلك حين رأى الملائكة»[82].

أما بالنسبة إلى كيفية تزيين الشيطان للمشركين، فقد اختلف المفسرون فيها وقد رجح ابن كثير أن التزيين كان حسيًا، بمعنى أن الشيطان تمثل لهم في صورة إنسان[83]، يقول ابن كثير: وقوله تعالى: (**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم**)، الآية: أي حسن لهم ما جاءوا له، وما هموا به وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج....ثم قال: فلما رأى إبليس الملائكة، (**نكص على عقبية**)، وقال إني بيئي منكم إني أرى مالا ترون، وهو في صورة سراقة وأقبل ابو جهل يحض أصحابه ويقول لهم: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه[84]، فقد سار ابن كثير في تفسيره للآية على أن التزيين من الشيطان كان حسيًا، وأهمل القول بخلاف ذلك، والسبب في تصور إبليس بصورة شراقة بن مالك أن المشركين حين ارادوا المسير إلى بدر خافوا من بني بكر بن كنانة، لِأنهم كانو قتلوا منهم واحدًا، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم، فتصور لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو من بين بكر بن كنانة وكان من أشرافهم في جند من الشياطين، ومعه راية وقال: (**لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم**)، أي: مجيركم من بني كنانة فلما رأى إبليس نزول الملائكة نكص على عقبيه[85]. والحكمة من تصور إبليس بصورة سراقة بن مالك لإظهار المعجزة العظيمة للرسول ﷺ وذلك أن كفارً قريش لما رجعوا إلى مكة: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة، فقال والله ما شعرت بمسيركم، حتى بلغتني هزيمتكم، فعند ذلك تبين للقوم أن ذلك الشخص ما كان سراقة بل كان شيطانًا[86].

فبعد مراجعة أقوال المفسرين في تفسيرهم لكيفية تزيين الشيطان للمشركين، نجدهم ينقسمون إلى قسمين:

الأول: يرون أن التزيين كان حسيًا، بمعنى أن الشيطان تمثل للمشركين في صورة إنسان، وأهمل القول بأن التزيين لم يكن حسيًا، ومن هؤلاء ابن كثير، وابن جرير، والسيوطي، والقرطبي، وجمهرة المفسرين.

الثاني: يرون أن التزيين كان لم يكن حسيًا، بل كان عن طريق الوسوسة، وأن الشيطان ما تمثل للمشركين في صورة إنسان ومنهم محمد رشيد رضا.والذي نؤمن به أن الشيطان كان له دور في المعركة أثبته القرآن الكريم وهو أنه زين للمشركين أعمالهم، وأنه قد قال لهم ما قال، مما حكاه القرآن الكريم عنه، وأنه نكص على عقبيه...إلا أننا لا نستطيع أن نجد كيفية ذلك.وقد تشبث به الحارث بن هشام، وهو يرى أن سراقة لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر، ورفع يديه، وقال: يارب، موعدك الذي وعدتني! وأقبل أبو جهل على أصحابه، فحضهم على القتال، وقال: لا يغرنكم خذلان سراقة بن جعشم إياكم، فإنما كان على ميعاد من محمد وأصحابه[87]. وقد رجح ابن كثير هذا فذكر رواية مالك بن أنس: عن إبراهيم بن أبي علية، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رأى إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة، وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر» قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة» [88].

شهود الملائكة غزوة بدر:

قال ابن كثير: «وقوله إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا قال ابن إسحاق: وازروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم وقيل كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك فتقوى أنفسهم حكاه ابن جرير وهذا لفظه بحروفه»[89].

قال تعالى: (**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ**)[90]. وقد ذكر ابن كثير ما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: (**لما كان يوم بدر ونظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني**)[91]، وفيه أنزل الله: (**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**)[92]، فأمده الله بالملائكة، وهذه الرواية تخالف الرواية الأولى في عدد جيش المسلمين والمشركين، لأنه تقريبي ولم يكن الغرض الأساسي من إمدادهم بالملائكة أن يقاتلوا دونهم، بل تثبيتهم وإلقاء الرعب في قلوب المشركين بتكثير عدد المؤمنين وقت المعركة، بعد أن قدروهم قليلين قبلها، وقد ذكر ابن كثير رواية الإمام البخاري كتاب المغازي باب قول الله تعالى: إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم- إلى قوله-إن الله شديد العقاب، حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال: (**لا نقول كما قال قوم موسى فاذهب أنت وربك فقاتلا**)، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك

فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله، حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر «اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر»[93]، ولهذا قال تعالى: (**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ**)، ولو كان نزولهم لغرض القتال، لكان ملك واحد كافيا في إبادة المشركين، كما حدث لقوم صالح، ويشهد لذلك قوله تعالى: (**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ**) [94]، ولهذا استطاع المؤمنون أن يحرزوا النصر في جو من الطمأنينة، واستحقوا كما أورد ابن كثير أن يقول الرسول ﷺ فيهم: (**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**)[95]. وقد ورد في فضائل أهل بدر آثار، منها: قوله صلى الله عليه وسلم: (**لن يلج النار أحد شهد بدرا والحديبية**)[96]، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لعمر في قصة حاطب: "وما يدريك لعل الله اطلع علي أهل بدر، فقال: (**اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**)[97]، وفي رواية في "البخاري" [فقد] وجبت لكم الجنة[98]، نعم فكما حصلت المزية للذين شهدوا بدرا من البشر، كذلك حصلت لمن شهده من الملائكة المكرمين، عليهم الصلاة والسلام، [و] عدة من شهده منهم خمسة آلاف، كما قال تعالى: (**يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**) ، وقاتلوا فيه، وكانوا يكونون في غيره من المشاهد مددا للمسلمين. وقد أورد الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث في ذلك منها: ما رواه البخاري: باب شهود الملائكة بدرا. حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال «**من أفضل المسلمين**» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة[99]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة[100] «**إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[101]. وروى البخاري من حديث معاذ ابن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: "**ما تعدون أهل بدر فيكم؟**" قال: من أفضل المسلمين – أو كلمة نحوها- قال: "**وكذلك من شهد بدراً من الملائكة**"[102]، وهذا مما ورد في فضل من شهد بدراً من الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين - وقد تقرر في عقيدة أهل السنة والجماعة التراضي عن الصحابة أجمعين، والشهادة لهم بالعدالة لتعديل الله لهم في كتابه ونبيه ﷺ في سنته، والسكوت عما شجر بينهم، وأنهم فيما وقع بينهم أحد رجلين: إما مجتهد مصيب له أجران، أو مجتهد مخطئ له أجر واحد، كما قرر ذلك علماء أهل السنة في هذا الباب، فهذا أصل عام في الصحابة الكرام ﷺ، وهو يعد حاجزاً مانعاً من الكلام فيهم أو الطعن فيهم. ومما يعد كذلك كالحاجز والمانع من الكلام فيهم أو الطعن فيهم كون هذا الصحابي قد حضر وشهد بدراً، ولذلك أئمة الحديث والسيرة بجمع أسمائهم، ومن ثم جمع أسماء من حضر بدراً، علماً أن معرفة ذلك له فوائد كثيرة يمكن إجمالها فيما يلي:

– العلم بصحابة رسول الله ﷺ.

– تنزيلهم منزلتهم.

ويترتب على الأمر الثاني، أن نكون الحب بما يخصهم، ويؤيد هذا ما ورد في تخصيص أهل بدر. وفي كتب السنة جملة من الأحاديث؛ منها ما ذكره البخاري في كتاب المغازي/ باب فصل من شهد بدراً، وفي

جميعها يقول الحافظ أن الغرض من ذكر الحديث قوله: (**وكان شهد بدراً**)، والإشارة إلى ذلك فيها تنصيص على مكانتهم وعلو منزلتهم ورفعتها، ويدل لذلك أيضا ما رواه البخاري أن عطاء البدريين كان خمسة آلاف، خمسة آلاف، وقال عمر: «لأفضلنهم على من بعدهم»[103]. وفي تلك الأثناء أرسل الله تعالى ملائكته مدداً من السماء وأوحى إليهم أن ثبتوا الذين آمنوا، قال ابن كثير: «أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيِّه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا... أي ثبتوا أنتم المسلمين وقووا أنفسهم على أعدائهم»[104]، فمعنى التثبيت هنا هو تقوية قلوب المؤمنين، حيث يصيبها ما يصيب قلوب الناس وقت المعركة غير المتكافئة، وقد وصف الله تعالى شيئاً مما يحصل للقلوب في مثل هذا الظرف، قال تعالى: (**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ**)[105].

فتكون تلك القلوب بحاجة إلى ما يثبتها ويقويها ويحفزها للإقدام برغم صعوبة المعادلة المادية: "فإنَّ الله إذا ثبَّت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين؛ لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم"[106]، وقيل في طريقة تثبيت الملائكة للمؤمنين يوم بدر: «أن الملك كان يشبَّه بالرجل الذي يعرفون وجهه، فيأتي الرجلَ من أصحاب النبي ﷺ فيقول: (**إني قد دنوت من المشركين، فسمعتهم يقولون: والله لئن حملوا علينا لنكشفنَّ. فتحدَّث بذلك المسلمون بعضهم بعضاً، فيقوِّي أنفسهم ويزدادون جرأة**)[107]. ومهما كانت طريقة التثبيت فإنَّ الأمر الإلهي: (**فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**)، أتى مطلقاً، أي: قووا قلوب المؤمنين بما تتقوى قلوبهم به، قال البقاعي: «أي بأنواع التثبيت. من تكثير سوادهم، وتقوية قلوبهم، وقتال أعدائهم، وتقليلهم في أعينهم، وتحقير شأنهم"[108]، والغرض منه غرس الشعور بالقوة والنصر، قال ابن عاشور رحمه الله: «وتثبيت المؤمنين إيقاع ظن في نفوسهم بأنهم منصورون"[109].

فإذا ثبتت قلوب المؤمنين لم يبق لهم سوى الظفر بأعدائهم الذين ألقى الله الرعب في قلوبهم فكان الرعب سبباً لهزيمتهم؛ كما أنَّ ثبات قلوب المؤمنين هو السبب الآخر: (**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْـمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ**[110]،إن المؤمنين وهم يقاسون لأواء الصراعات والمعارك ضد أعداء الله لأحوج ما يكونون إلى تثبيت قلوبهم وبعث الأمل والتفاؤل فيها، فإن ثبات القلب أصل ثبات الأقدام، وعلى قوة القلب وضعفه وشجاعته وخوره تكون نتيجة المعركة ومآلات الصراع، ولقد ربى رسول الله ﷺ على هذا الهدي، فكان في أوج المحنة تبرق أسارير وجهه ابتهاجاً بنصر الله المأمول؛ كما حدث ذلك في غزوة الخندق «عندما واجهت الصحابة صخرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر؛ ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات ففتتها، وقال إثر الضربة الأولى: الله أكبر! أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة. ثم ضربها الثانية، فقال: الله أكبر! أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض. ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة. وهكذا بشرهم بما سيكون من فتوح لهذه البلدان؛ وهم محصورون في خندق، يقرصهم البرد والجوع[111]، لم تكن هذه الصفة في رسول الله ﷺ فلتة نادرة، بل هي هدي له تكرر منه في مختلف الوقائع والأحداث.

وقد اتفق العلماء على إمداد الله سبحانه للمسلمين يوم بدر بالملائكة، وذلك لقوله سبحانه: ﴿**إِذ تَستَغِيثُونَ رَبَّكُم فَٱستَجَابَ لَكُم ....** ﴾ [112]، **وقوله:** ﴿**إِذ تَقُولُ لِلمُؤمِنِينَ أَلَن يَكفِيَكُم أَن يُمِدَّكُم رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰف مِّنَ ٱلمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ**﴾[113].وقد حصل هذا الإمداد على مرات بألف أولاً، ثم بثلاثة آلاف، وبذلك

تكمل الآيات بعضها بعضًا، ولكنهم اختلفوا، أحصل قتال من الملائكة أم لا؟ فذهب الكثيرون إلى حصول القتال فضلا عن البشرة والتثبيت بإبقاء الخواطر الحسنة في قلوب المسلمين. وقد استدلوا بالأحاديث والآثار الواردة في هذا، فقد أورد ابن كثير ما رواه ابن اسحاق عن ابن عباس قال: «لم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون عددًا ومددًا لا يضربون»[114]، وابن عباس لم يكن حضر الموقعة يومئذ لصغره وعدم هجرته، فلا بد أن يكون سمع ذلك من رسول الله ﷺ فيما يعد، أو من مشيخة المهاجرين والأنصار، وذهب البعض إلى إلى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر، بل كانت عونًا ومددًا، تثبت القلوب، وتبشر بالنصر، وتكثر العدد، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ**﴾[115]، فقد ذكر الله هاتين الآيتين بعد آيات الإمداد، وقالو: إن الخطاب في قوله سبحانه: ﴿**فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ**﴾[116]، إنما هو حكاية لما أمر الله الملائكة أن يلقوه إلى المسلم يوم بدر، وقال تعالى: « ﴿**إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ.....**﴾ [117]، وفي مثل هذا روي: نزلت الملائكة يوم بدر عليهم عمائم صفر[118].

وما يؤكد نزول الملائكة يوم بدر:

أخذ رسول الله ﷺ إغفاءة، ثم رفع رأسه فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل، على ثناياه النفع، أي: الغبار، وفي رواية إسحاق: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع**"[119]، وقد قال تعالى: ﴿**إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ**﴾ [120]، وقد ذكر ابن كثير خلاف المفسرين في هذا الوعد، هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين [**الأول**] أن قوله: إذ تقول للمؤمنين متعلق بقوله: ﴿**وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ**﴾ [121]، وروي هذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي والربيع بن أنس وغيرهم، واختاره ابن جرير [122].

وقال ابن كثير فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول، وبين قوله تعالى في قصة بدر؟ فالجواب أن التنصيص على الألف- هاهنا- لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: مردفين بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، وهذا ما رجحه ابن كثير.

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿**وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ**﴾ [123]، وذلك يوم أحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري وموسى بن عقبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة آلاف لأن المسلمين فروا يومئذ، زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى: بلى إن تصبروا وتتقوا فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد[124].

إنزال النعاس والمطر على المسلمين:

أنزل الله سبحانه وتعالى على المسلمين ليلة بدر النعاس والطمأنينة وربط على قلوبهم وثبت أقدامهم، وفي هذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى إذا اختار أمرًا لعباده ايدهم وأعانهم على تنفيذه، وكذلك كل التكاليف، قال تعالى: (**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه**)[125]، كما أن الله تعالى قد ألقى في قلوب المشركين الرعب، وأنزال الملائكة تقاتل مع المؤمنين أعدائهم، قال تعالى: (**إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم**) [126]، وقال تعالى: (**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**)[127]، ومن التأييد الإلهي لعباده أن الله تعالى قلل المشركين في أعين المسلمين وقلل المسلمين في أعين المشركين، قال تعالى: (**إذ يريكهم الله في منامك قليلًا**)[128]، ومعنى

الآيتين أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى المشركين في منامه قليلًا، فقص ذلك على اصحابه فكان ذلك سببًا لثباتهم، ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلًا أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلًا تفجوئهم الكثرة فيبهتون ويهابون، وتكسر شوكتهم حين يرون مالم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من اسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم[129]. ومن التأييد الإلهي في غزوة بدر أن الله سبحانه بشر المسلمين بهزيمة قريش قبل بدء المعركة، قال تعالى: **(سيهزم الجمع ويولون الدبر)**[130]، كما بشر ﷺ أصحابه بقتل صناديد قريش، وحدد مكان قتال كل واحد منهم، كما كان يبشر المسلمين بالنصر قبل بدء القتال اتباعًا للمنهج القرآني فيقول: (**أبشر أبا بكر**)، ووقف يقول للصحابة: (**والذي نفس محمد بيده! لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**)، وقد دعا الرسول ﷺ للمسلمين بالنصر، فقال: (**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني**)[131]، وكل هذه البشريات قد زادت في نشاط المسلمين واندفاعهم نحو القتال فكان النصر حليفهم.

نزول المطر:

خلق الله الأرض وأرثنا ما عليها ووعدنا وعده الصادق أن يمكن لنا فيها بالغلبة والعزة، فمن رحمة الله بنا أن سخر لنا صناعة الأسلحة، ومهد لنا الأرض قرارًا نقاتل عليها في ثبات، وهيأ لنا جنودًا من عنده، لا يعملها، إلا من غمر الله قلبه بالإيمان وأمده بنور من نوره فيرى ببصيرة وفراسة المؤمن، وقد ظهرت في غزوة بدر كثير من هذه المشاهدات، وقد نزل المسلمون في بادئ الأمر بطرف الوادي الأدنى إلى المدينة بعيدًا عن الماء، وعلى كثيب رملي تسوخ فيه الأقدام، فتضرروا من ذلك كثيرًا، فعانوا من نقص الماء، وأصابهم بعض الهم، ووجد الشيطان سبيله إليهم بالوسوسة والشك، وزين لهم أفضلية الكفار بنزولهم على الماء، قال ابن كثير: «فنزل النبي ﷺ والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة، فأصحاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوسهم: «تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم كذلك»[132].

وفي المساء أمطرت السماء مطرًا واحدًا كان نعمة ومددًا وعونًا للمسلمين، فشربوا وتطهروا منه، ثَّبت لهم الأرض تحت اقدامهم، وأذهب الله به عنهم رجس الشيطان ووسوسته، وسجعهم وملأ قلوبهم قوة ونشاطًا، فسابقوا الكفار إلى خير منزل في الوادي بأدنى ماء بدر، وكان المطر على المشركين نقمة ووابلًا جارفًا عرقل مسيرهم ومنعهم من التقدم، فلم يتمكنوا من الوصول إلى الماء، قال تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ**﴾، فمن منافعه وفوائده لهم تطهير أعضائهم فاغتسلوا وتوضؤوا وذهب به وسواس الشيطان عن نفوسهم، وثبت به اقدامهم على أرض المعركة فلا تسوخ فيها، وغرس به في قلوبهم الثبات فصبروا في مواجهة الكفار. وبهذه المعاني كان المطر جيشًا من جيوش الله، وسلاحًا ظاهرًا انتفع بن المؤمنون، فمهد لهم الموقع الاستراتيجي للقتال، وذخيرة معنوية وتأييدًا إلهيًا باطنيًا جعل الله فيه من اسراره قوة تقوى المسلمون بها، فبدت عليهم الشجاعة والثبات والحيوية والنشاط، وتسلية وترويحًا أزال الله تعالى به مافي نفوسهم من الهم والغم فأصبح بردًا وسلامًا عليهم، ازدادوا ثقة ويقينًا بالله ونصره الذي وعدهم، بينما كان وقعه على المشركين

مؤلمًا وشديدًا ووابلًا جارفًا عرقل سيرهم ومنعم من التقدم فلم ينتفعوا به كان نقمة عليهم، فأصابهم العطش، وجرفت المياه الأرض تحتهم، فتعثرت أقدامهم وتعرقلت حركاتهم، وتغلغل تأثيره فيهم فملكهم الإحباط والفشل وامتلات قلوبهم رعبًا وخوفًا، ورجعوا إلى نفوسهم ورددوا عبارتهم السابقة: أنهم إن كانوا يقاتلون رب محمد فلا حول ولا قوة لهم بذلك»، ولكن أعماهم الغرور عن إدراك حقيقتها فظنوا أن المسلمين هم الأقل فلا قبل لهم بمقاتلتهم، وأنهم هم الغالبون بلا شك، ولربما كانت طبيعة الأرض التي نزل المشركون بها أرض رملية وتحتها طبقة طينية فعندما نزلت عليهم السيول جرفت الرمال فاصبحت الأرض زلقًا تحت اقدامهم، وتسبب ذلك في عرس الإحباط والفشل في نفوسهم، وعدم القدرة على الحركة والسرعة في القتال.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾[133]، قال ابن كثير: «يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أمانا أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى:﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾[134].

قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مرارا يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف.وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي ﷺ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح. وقال سفيان الثوري عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان، وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب»[135].

ويقول الباحث: إن أعداد الصفوف بدا ليلًا، ثم صفهم ﷺ في الصباح حال القتال أيضًا وقد خاض النبي صلى الله عليه وسلم القتال بتكتيك الصفوف على عكس المشركين الذين اعتمدوا على نظام الكر وافر، لذل فإن وقوع النعاس أمنة كان حال القتال بدليل حديث أبي طلحة المتقدم وما رواه ابن مسعود رضي الله عنه: «النعاس في القتال أمنة من الله، والنعاس في الصلاة من الشيطان»[136]، بمعنى أن النعاس في أي حال غير القتال فلا أمن فيه، ومن المؤكد أن غشيان النعاس للمؤمنين يوم بدر كان بغرض الأمن والطمأنينة، وهم لذلك أحوج حين المصافاة، وحديث أبي طلحة لم يحدد وقت النعاس، وقد صفهم النبي صلى الله عليه وسلم مرة بالليل ومرة بالصباح وقت القتال حتى قال: «لا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»، إذا سقوط سيف أبي طلحة منه كان حال القتال، وهذا ما يقوي الظن في وقوع النعاس وقت مصافاتهم للقتلا نهارًا، وربما يكون وقوع النعاس تكرر مع تكرر المصافاة، ولكنه وقت القتال آكد، أو يكون النعاس الذي غاشهم ليلًا كان بسبب الإرهاق والجهد الذي بذلوه في إعداد المعسكر فناموا حتى لا يكونوا مغلوبين من السهر في الغد، بالإضافة إلى المشقة من عناء السفر المتواصل خلال مطاردتهم لأبي سفيان، والنعاس الذي غشيهم في النهار حال الحرب كان بغرض الأمن والسكينة وثبات القلوب فلا يفروا من حشد المشركين ولا يهابوا جمعهم، وغدا ثبت وقوع النعاس في أحد حال قتلا، لأنهم لم يناموا ليلًا في أحد، فإن وقوعه في بدر حال القتال آكد واثبت لأن المسلمين

يوم بدر كانوا اقل عددًا من المشركين وأخف ظهرًا وسلاحًا، وكان خروجهم على غير موعد ولا استعداد فإلقاء النعاس عليهم ساعة القتال آمن لقلوبهم وأريح لنفوسهم، وربما وقع لهم النعاس نهارًا لأنهم كانوا بين يدي الكفار لم يناموا ليلا خوفًا من هجوم مرتقب، وكيف ينام من كان خصمه على خطوات منه، يخشى أن يباغته في أي لحظة؟! فلم ينالوا نصيبهم من النوم ليلًا، فأراد الله أن يعوضهم ذلك فأرسل إليهم النعاس نهارًا بمثابة السكينة والطمأنينة، فدبت الحيوية والنشاط في عروقهم، واكتسوبا الخفة والسرعة في حركاتهم، الأمر الذي حار فيه الكفار وانهيارات لذلك جموعهم وانكسرت. وقد رجح ابن كثير أن النعاس قد أصابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جدا، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى:﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾[137]، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ مبتسما فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**سَيُهزَمُ ٱلجَمعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ** ﴾[138][139].

تقليل عدد الكفار في عيون المسلمين:

من الفوائد والتوفيقات الإلهية، تقليل المؤمنين في أعين الكافرين، لأنه لو كثرهم في انظارهم لعدلوا عن القتال ، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: (**لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا**)[140]، وفي هذه الحالة لن يتأهب المشركون كل التأهب فيستهينوا بقدرات خصومهم، وفي المقابل فإن تقليل المشركين في نظر المسلمين مع تواضع إمكاناتهم وقلتها أسهم في زيادة ثقتهم بأنفسهم، لما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن.

فيهم ثلاثة أقاويل: أحدها: أنهم قوم في قلوبهم شك كانوا تكلموا بالإسلام وهم بمكة ، قاله ابن عباس ومجاهد والثالث أنهم قوم مرتابون لم يظهروا عداوة النبي ﷺ ذكره الماوردي[141] والمرض هاهنا الشك والإشارة بقوله هؤلاء إلى المسلمين وإنما قالوا هذا لأنهم رأوا قلة المسلمين فلم يشكوا في أن قريشاً تغلبهم[142]، ومن يتوكل على الله، أي يعتمد على الله عز وجل، وقيل: جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقالتهم[143]، فإن الله عزيز حكيم، غالب لا يذل من استجار به وإن قل ويفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

وقيل: أي لا يضام من التجأ إليه فإن الله عزيز منيع الجانب عظيم السلطان وحكيم في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها فينصر من يستحق النصر[144]. وفي هذا النص بيان لموقف من مواقف المنافقين، يشاركهم فيه الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، وهو في قضية الإيمان مرض الشك، وعدم ثبات الإيمان واستقراره في القلوب، هذا الموقف يظهر عند مواجهة المؤمنين للكافرين في قتال حاد، وتكون قوى المؤمنين في المقاييس السببية أقل من قوى الكافرين، كما كان الحال في غزوة بدر الكبرى، إذا كان المؤمنون وكان الكافرون قرابة الألف، وكانت فوارق القوى العتادية والتموينية أكثر من هذه النسبة، وفي مثل هذا الموقف لابد أن يقول المنافقون وأشباههم، الذين لا يؤمنون بالقوى المعنوية الإيمانية، ولا بالقوى الغيبية التي يؤيد الله تبارك وتعالى بها عباده المؤمنين، وينصرهم بها على أعدائه، ويعدل بها ميزان القوى المادية التي يرجح

بها الكافرون رجحانا ظاهراً، لابد أن يقول المنافقون وأشباههم عندئذ مقالة تنسجم مع نظرتهم غير الإيمانية، لقد قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض (**غر هؤلاء دينهم**) وكرروا هذه المقالة بدليل الفعل المضارع في (**إذ يقول المنافقون**...)، قبل أن تنتصر القلة المؤمنة في بدر على الكثرة الكافرة، تقديراً منهم بأن النصر سيكون للكافرين، وأن الهزيمة والهلكة ستحلان بالمؤمنين، وهم حكم منهم مبني على الظواهر السببية المنظورة، فكان الرد الرباني العملي ليقلب موازين القوى لصالح المؤمنين، ونصرهم نصراً مؤزراً عظيماً على مشركي قريش، وجيشهم المختال.

وكان الرد الرباني عقب حكاية مقالة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، يتلخص بثلاثة نقاط:

الأول: بيان العقيدة الإيمانية الفكرية بالنسبة إلى هذا الموضوع وهي: أن من يتوكل على الله تبارك وتعالى صادقاً في توكله، ملتزماً منهاجه وصراطه المستقيم تولاه الله عزل وجل بتأييده ونصره، دل على هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم**﴾[145].

الثاني: بيان نتيجة المعركة التي ظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض والكافرون المجاهرون بكفرهم، قبل بدء المعركة وأثناء قيامها، أن الهلكة ستكون فيها للقلة المؤمنة، وأن النصر سيكون للكثرة المشركة إذ قلب الله تبارك وتعالى موازين القوى فنصر المؤمنين على المشركين وأمد الله المؤمنين بجنود من الملائكة، فقاتلوا أعداء الله عز وجل مع أوليائه بنسب من القوى القتالية محدودة، لا بقوى ملائكية كقوى الملائكة المرسلة لإهلاك قوم لوط .دل على ذلك بعض ما جاء في السورة قبل هذا النص، وهو قول الله تبارك وتعالى: (**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ**) [146].

تقليل المشركين في نظر الرسول ﷺ

أرى الله نبيه ﷺ المشركين في المنام ليلة السابع عشر من رمضان قليلًا عددهم، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك فازدادوا ثباتًا ويقينًا، وكان هذا قبل بدء القتال، قال تعالى: ﴿**إِذ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيل وَلَو أَرَىٰكَهُم كَثِيرا لَّفَشِلتُم وَلَتَنَٰزَعتُم فِى ٱلأَمرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**﴾ [147]، وبعد إخبار النبي ﷺ للمسلمين بتقليل المشركين له في المنام، أكد الله تعالى للمسلمين وهم في مصاف القتال هذا التقليل عيانًا بيانًا، رأي العين، قال تعالى: ﴿**وَإِذ يُرِيكُمُوهُم إِذِ ٱلتَقَيتُم فِى أَعيُنِكُم قَلِيلا...**﴾[148]، فقد قلل الله المشركين في نظرهم حتى صرح عبد الله بن مسعود ﷺ بذلك، وأراد الله تعالى أن يقوي عزائم المسلمين على القتال وليربط على قلوبهم فلا يخافوا من كثرة الكفار ولا يفزعوا، وكان عدد المسلمين هو الأقل وذلك قبل القتال، فبلغ الغرور بأحد المشركين وهو قياث بن أشيم[149] ﷺ قال فيه: «**والله لو خرجت نساء قريش بالسهاء ردت محمد وأصحابه**»[150].وقد نقل ابن كثير قول مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلا، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها، وقد روى ابن أبي حاتم: «حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج عن الحسن في قوله: إذ يريكهم الله في منامك قليلا قال بعينك، وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه، وقوله: ولو أراكهم كثيرا لفشلتم أي لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ولكن الله سلم أي من ذلك، بأن أراكهم قليلا إنه عليم بذات الصدور أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿**يَعلَمُ خَائِنَةَ ٱلأَعيُنِ وَمَا تُخفِى ٱلصُّدُورُ**﴾، وقوله: وإذ

يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجزؤهم عليهم ويطمعهم فيهم.

قال أبو إسحاق السبيعي: عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، فقال: كنا ألفا، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وقال ابن كثير قوله: (**ويقللكم في أعينهم**)، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الحارث عن عكرمة وإذ يريكموهم إذ التقيتم الآية، قال: حضض بعضهم على بعض، إسناد صحيح. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ليقضي الله أمرا كان مفعولا أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما احتدم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ**﴾[151]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منهما حق وصدق، ولله الحمد والمنة[152].

إغراء الفريقين واستدراجهم للقتال:

فشلت جميع مساعي ذوي الصلاح والإصلاح من المشركين، وقد وقف ابو جهل أمامهم وفشل مساعيهم الخيرية، ولم يكن غرور أبي جهل هو السبب فحسب، بل إن ذلك كان وفق النسيج الإلهي والاستدرج الخفي ليحق الله الحق ويقضي أمره في عصابه الكفر والضلال، ويعز بهلاكهم الإسلام والمسلمين، قال ابن كثير: «**من لطف الله تعالى بهم إذا رآهم إياهم قليلًا في رأي العين فيجرؤهم عليهم ويطعمهم فيهم**»، وعلى هذا يكون الإغراء وقع على كل من الطرفين، فالمسلمين تشجعوا وتقووا وأقدموا على اللقاء وهم أثبت جنانًا وأربط جاشًا، بينما غلب على المشركين الطمع والسمعة والظن لكسب أي جولة بينهم وبين المسلمين، ولكن حقيقة الأمر استدراج من الله تعالى الذي وعد نبيه ﷺ إحدى الطائفتين، والذي رتب هذا اللقاء على غير موعد بينهما، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢**﴾[153].

تضاعف أعداد المسلمين في نظر المشركين:

وعندما اقتربت الصفوف وأوشكت الحرب رأى المشركون المسلمين مثليهم في العدد رأي العين، لأن الله عزز المؤمنين بالملائكة، وأكثر عددهم بهم، قال تعالى: (**قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين**)[154]، ولكن في حقيقة الأمر المشركون هم الأكثر والمسلمون هم الأقل، ولله أن يؤيد نبيه ﷺ بكل ما هو أهله من المعجزات النبوية، وبهذا تبدلت الصورة في ميدان القتال، وحان وقت القتال وهاج معسكر المشركين فهرب إبليس من بينهم وولى الأدبار.

قال ابن كثير: «يرونهم مثليهم رأي العين قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سببا لنصرة الإسلام عليهم، وهذا لا

إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يَحْزِرُ لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلا أو ينقصون، وهكذا كان الأمر كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم»[155].

والقول الثاني: أن المعنى في قوله تعالى: (**يرونهم مثليهم رأي العين**)، أي: ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم، أي ضعيفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم، وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي عن ابن عباس: «أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلا»، وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس[156] وهذا ما رجحه ابن كثير[157].

المبارزة بين المسلمين والكفار:

المعروف عند الائمة أن من شهد بدرا عددهم: ثلاثمائة رجل تزيد أربعة عشر[158]، وقيل ثلاثة عشر[159]، وقيل تسعة عشر[160]، والقائل بالأول يقول من المهاجرين: ثلاثة وثمانون رجلا، والباقي من الأنصار، فمن الأوس: إحدى وستون، ومن الخزرج: مائة وسبعون رجلا، وقد زاد ما في الاستيعاب على أربعمائة، كما اتفق جمعه هنا، وما ذاك – والله أعلم – إلا أن الذين تعرضوا لذكر البدريين من أهل السير، يقصد كل واحد منهم العدد المذكور، وهو عدة أصحاب طالوت الذين عبروا معه النهر، وما عبره معه إلا مؤمن[161]، فكل من صنف في البدريين يقصد ذلك العدد، فتكون عند بعضهم أسماء رجال لم تكن عند الآخر والآخر ثم الآخر كذلك. فجاء ابن عبد البر فاستوعب جميع ما ذكروه، فحصلت الزيادة في الجملة، وإلا فعددهم لم يبلغ ذلك في نفس الواقع، الله سبحانه أعلم، وكذلك أصحاب بيعة العقبة فهم سبعون أو ثلاث فقد دخلتهم الزيادة كما ترى. والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.

قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله في "الفتح"[162]، عند تعرض البخاري في الصحيح لتسمية طائفة من البدريين ما نصه: (فجملة من ذكر من أهل بدر هنا أربعة وأربعون رجلا، وقد سبق البخاري إلى ترتيب أهل بدر على حروف المعجم[163]، وهو أضبط لاستيعاب أسمائهم، ولكنه اقتصر على ما وقع له من ذلك. واستوعبهم ضياء الدين المقدسي[164]، في كتاب "الأحكام"[165]، وبين اختلاف أهل السير في بعضهم وهو اختلاف غير فاحش، وأورد ابن سيد الناس أسماءهم في "عيون الأثر"[166]، لكن على القبائل كما صنع ابن إسحاق[167]، وغيره، واستوعب ما وقع له من ذلك فزاد على ثلاثمائة وثلاثة عشر، خمسين رجلا. قال: وسبب الزيادة الاختلاف في بعض الأسماء)[168]. وأما أحداث المعركة ووصفها، فقد تناولته الآيات بشكل أوسع، فذكرت الأماكن التي نزل فيها جيش المسلمين وجيش والمشركين والقافلة، وذلك في قوله تعالى: (**إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**) [169].

كما تحدثت عن استغاثة الرسول صلي الله عليه وسلم والمسلمين بربهم، وإمدادهم بالملائكة، وإنزال النعاس والمطر عليهم[170]، وتقليل عدد المشركين في أعينهم؛ كل ذلك ليثبت قلوبهم ويرهب عدوهم، وذلك في قوله تعالى: (**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**) [171]، إلى قوله تعالى: (**ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ**)[172]، وفي قوله: (**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً**)[173]، إلى قوله: (**وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**)[174]، **وفي قوله:** (**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**)[175]، إلى قوله: (**فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ**)[176]، كما تحدثت عن التقاء المسلمين

بالمشركين في المعركة، وفرزتهم إلى فئتين، فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة، وجعلت ذلك آية وعبرة، وذلك في قوله: (**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ**)[177]، وتحدثت في هذا المحور أيضاً عن استفتاح المشركين وقول أبي جهل: (**اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة**)[178]، اللهم انصر خير الدينين، وذلك في قوله تعالى: (**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ**)[179]، كما تحدثت عن المبارزة التي حصلت في بداية المعركة بين عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم من المسلمين، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من المشركين؛ وذلك في قوله تعالى: (**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**) [180]، وتحدثت الآيات أيضاً عن مشاركة النبي صلي الله عليه وسلم في القتال، ورميه الحصباء في وجوه المشركين[181]، وذلك في قوله: (**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**)[182]. ولم تشر الآيات في هذا المحور إلى عدد من الأحداث، ومن ذلك: خروج النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق ﷺ لاستكشاف المنطقة، ولقائه بأعرابي، وما دار بينهما من حوار، وأسر الصحابة ليلة المعركة غماناً من قريش كانوا على ماء بدر، وبناء العريش للنبي ﷺ، وتحديده لهم مصارع القوم، وقصته مع سواد بن غزية[183] وعمير بن الحمام[184] وهو يعدل الصفوف، كما لم تشر أيضاً إلى الخلاف الذي دار بين عتبة بن ربيعة وأبي جهل، ورغبة عتبة الرجوع بالجيش، وتقدم الأسود بن عبد أسد نحو حوض الماء الذي بناه المسلمون، وقتل حمزة له، إلى غير ذلك من الأحداث الكثيرة التي جرت أثناء المعركة.

نتائج غزوة بدر:

حدثت الغزوة في أرض المعركة بسهل واسع الذي يبعد عن المدينة (150) كم وعن مكة (300) كم وعن شاطئ البحر الأحمر (25) كم، وقد بدأت المعركة صباح يوم الأحد (17) من رمضان السنة الثانية للهجرة بين فريقين غير متكافئين عدداً وعدة، بدأ رسول الله ﷺ يحث أصحابه على الصبر والبلاء، وبدأت المعركة عندما أقبل أحد المشركين وهو الأسود بن عبد الأسد المخزومي مقترباً من الحوض الذي بناه المسلمون قائلاً: والله لأشربن من هذا الحوض أو اهلك دونه، فاقترب من الحوض فتصدى له حمزة فضربه بسيفه وثنى بأخرى فخر صريعاً، وبدأت الحرب مبارزة قتل فيها أربعة من صناديد قريش، مما أثر نفسيا على مجرى المعركة، أما المسلمون فاندفعوا يقاتلون ويثبتون عند النزال ممتثلين بقول الله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً**)[185]، وظل الرسول صلي الله عليه وسلم يتفقد جنده ويدعو ربه حتى جاءت بشائر النصر، قال تعالى: (**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**)[186]، وقد تحدث عن الأنفال والغنائم التي غنمها المسلمون في هذه الغزوة في موضعين اثنين، الأول عند قوله تعالى: (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**) [187]. وقد ذكر ابن كثير، ما رواه البخاري: قال ابن عباس: الأنفال المغانم، حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هشيم أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال قال: نزلت في بدر. أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم، كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ليس لأحد منها شيء، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها المغانم، وقال الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم[188]، ومن الآية الأولى من سورة الأنفال، وهي التي سميت السورة بها، إلى الآية الرابعة منها. وقد ركز القرآن في هذه

الآيات على تربية الصحابة، فحثهم على تقوى الله، ونبذ الخلاف لأجل هذه الأمور، وإصلاح ذات البين، وأمرهم بطاعة الله ورسوله، وتفويض أمر هذه الغنائم لهما يقسمها النبي ﷺ بحكم الله تعالى.

أما الموضع الثاني فبين فيه مصارف الغنائم، وذلك في قوله تعالى: **(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ)**[189]. وركزت الآيات على قضية الأسرى وما أخذ منهم من الغنائم[190]، فتحدثت عن ذلك في خمس آيات، من قوله تعالى: **(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ)**[191]. ولم تغفل الآيات أولئك الرجال الذين أكرهتهم قريش على الخروج معها لقتال المسلمين[192]، والحوار الذي دار بين الصحابة في شأنهم. ولم تشر الآيات في هذا المحور إلى صلاة النبي ﷺ على الشهداء، ورفعهم عن مكان المعركة، وطرح المشركين في القليب، وآثار خبر هزيمة قريش على أهل مكة، وإرساله ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة إلى المدينة يبشرهم بانتصار المسلمين، وإقامته في بدر ثلاثة أيام ثم رجوعه إلى المدينة، وقتله بعض الأسرى في الطريق، وتلقي أهل المدينة للرسول صلي الله عليه وسلم في الروحاء، إلى غير ذلك من الأحداث.

قتلى المشركين في بدر:

قتل في بدر من صناديد قريش وأشرافهم، منهم: عتبة بن ربيعة، وأخوة شيبة، وابنة الوليد، وأبو جهل بن هشام، قتلة معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء فتيان من الأنصار، ثم ادركه عبد الله بن مسعود وبه رمق، فوضع رجله على عنقه، فقال أبو جهل له: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يارويعي الغنم، فاجتز ابن مسعود راسه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، وأمية بن خلف وكان هو الذي يعذب بلالًا على الإسلام، فلما رآه بلال قال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، وكان أمية وابنه قد وقعًا اسيرين في يد عبد الرحمن بن عوف، فدرأ بلالًا عنهما، فقال بلال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، راس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا فأحاجوا به وبابنه حتى قتلوهما، والعاص بن هشام بن المغيرة، وعبد الله بن الجراح والد أبي عبيدة، وحنظلة بن ابي سفيان، ونوفل بن خويلد الأسدي، وابو البختري بن هشام، وكان رسول الله قد أوصى المسلمين به خيرًا كما أسلفنا ولكنه أبى إلا أن يترك هو وزميل له، فقالوا له: ما أمرنا رسول الله إلا بك واحدك، قال: لا والله إذا لأموتن أنا وهو جميعًا، وغيرهم كثير[193]. وقد أخذ المشركون يتساقطون صرعا، حتى قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وكان بعضهم يصرعون في مواضع كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بين لأصحابه قبل المعركة أنهم يصرعون فيها وذكرهم بأسمائهم[194]. وقد قتل من كفار قريش ومن تبعهم سبعون رجلًا، فمن مشاهيرهم: حنظلة بن ابي سفيان صخر بن حرب بن أمية، وعبيدة بن سعيد بن العاصي، وأخوه: العاصي بن سعيد، وعقبة بن ابي معيط، وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والحارث بن عامر نوفل بن عبد مناف، وابن عمه، طعيمة بن عدي، قتل صبرًا، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، وابنه: الحارث بن زمع، وابنه: الحارث بن زمعه، وابن عمه: أبو البحتري العاصي بن هشام بن الحارث بن اسد، ونوفل بن خويلد بن اسد، والنضر بن الحارث بن كلده بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار، ضربت عنقه صبرًا بالصفراء، وعمير بن عثمان، عم طلحة بن عبيد الله، وابو جهلي هشام، وأخوه: العاصم بن هشام، وابن عمهما: مسعود بن أبي أمية بن المغيرة، وأخو أم سلمة أم المؤمنين، وابو قيس بن الوليد بن المغيرة، أخو خالد بن الوليد، وابن عمه: أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والسائب بن أبي السائب بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، عاصم بن ثابت بن ابي الاقلج صبرًا، وقيل: قتله على

رضي الله عنه، وقد اختلف فيه، فقيل: إنه لم يقتل يومئذ بل أسلم بعد ذلك، ومنبه بن الحجاج، وابنه: العاصي بن منبه بن الحجاج، وأخوه: نبيه، وأمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وابنه: علي بن أمية، وأسر مالك بن عبيد الله بن عثمان، أخو طلحة بن عبيد الله، فمات أسيرًا، وحذيفة بن هشام ابنا أبي حذيفة بن المغيرة، وذكر أنه قتل واسر من بني مخزوم وحلفائهم من المشركينيوم بدر أربعة وعشرون رجلًا، ومن بني عبد شمس وحلفائهم اثنا عشر رجلًا[195].

عدد الأسرى:

اختلف أهل السير والتاريخ في عدد أسرى غزوة بدر، فابن إسحاق عندما فرغ من تسمية الأسرى قال: "فجميع من حفظ لنا من الأسرى ثلاثة وأربعون رجلاً"[196]، ونقل الطبري بسنده عن يزيد بن رومان مولى الزبير بن العوام أن الأسرى أربعة وأربعون أسيراً[197]، ونقل ابن كثير عن عروة بن الزبير وموسى بن عقبة – وهما من أصحاب المصنفات في السيرة – أن الأسرى تسعة وثلاثون أسيراً[198]، وذكر يحيى بن محمد الأنصاري أن المحصي منهم تسعة وأربعون أسيراً[199]. وذكر ابن قتيبة أن الأسرى أربعة وأربعون أسيراً[200]، ولعلهم كانوا يذكرون من عرف اسمه منهم لا يقصدون عددهم. وقد تواتر عند المسلمين منذ الصدر الأول أن عدد الأسرى سبعون أسيراً. قال ابن كثير: والمشهور أن الأسارى يوم بدر كانوا سبعين، وهو قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والبراء بن عازب ﷺ، وسعيد بن المسيب[201]، وأبي عمرو بن العلاء[202]، وابن سعد[203]، وذكر ابن شهاب الزهري أنهم يزيدون على سبعين أسيراً، ونقل الواقدي عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصة المازني أن الأسرى أربع وسبعون أسيراً[204]، وقال ابن عبد البر: "ولا يختلفون في أن الأسرى سبعون في الجملة وقد يختلفون في تفصيل ذلك"[205]، ولعل ما ذهب إليه ابن شهاب الزهري هو الراجح، فهم أقل مما ذكر ابن أبي صعصعة وفوق السبعين. وقد تبين بجلاء من خلال هذه الغزوة ، ومن خلال الآيات التي تناولتها ، حقيقة النصر وكونها بيد الخالق سبحانه وتعالى، وأن النصر لا يتم إلا باستتمام أسبابه كلها ، فليست القوة وحدها هي مفتاح النصر ، ولو كانت كذلك لكان النصر من نصيب المشركين الذين فاقوا الصحابة عددا وعدة، وبذلك نرى ان المسلمين عندما استكملوا أسباب النصر وأتموا شروطه تحقق لهم النصر في هذه المعركة .وأسباب النصر التي جاء التنبيه عليها تتعلق بتقوى الله عز وجل والطاعة لأوامر الوحي ، والصبر عند ملاقاة العدو والثبات أثناء المعركة ، وإخلاص النية في القتال ، إضافة إلى ضرورة البعد عن أسباب الشحناء والاختلاف ، وأهمية الإكثار من ذكر الله عز وجل قبل وأثناء المعركة ، والتأكيد على إعداد العدة والأخذ بكافة الأسباب الممكنة للمواجهة ، والتوكل على الله عز وجل بعد الأخذ بكافة الأسباب الحسية والمعنوية ، وكل هذه الأسباب مبثوثة في عدد من الآيات كقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)**[206]، وقوله سبحانه: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ)**[207]، وقوله سبحانه: **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)** [208].

كما يأتي الدعاء واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى في مقدم الأسباب المحققة للنصر، ويظهر آثر ذلك في موقف النبي ﷺ في هذه المعركة وإلحاحه في الدعاء حتى سقط عنه رداؤه، وبعد أن استكمل المسلمون

شروط النصر وأسبابه رأينا التدابير الإلهية التي ساقها الله تعالى ، فجاء المدد الإلهي بالملائكة لمساندة المؤمنين ، وجاء التثبيت القلبي الذي رفع من معنوياتهم ، ونزل المطر ليكون سبباً من أسباب النصر والتأييد بما حققه من أثر في تطهير القلوب والأجساد وتثبيت الأقدام، وكذلك للنعاس التي تغشى المؤمنين قبل المعركة كان له آثره في شعورهم بالأمن والطمأنينة .

ويمكن أن نستنتج من هذه الغزوة جملة النتائج التالية:

1. حتمية المفاصلة بين الحق والباطل مهما امتد الزمن، فالصراع بينهما مستمر ومتجدد، ولا بد من لقاء فيصل يعز بعزه المؤمنين ويذل به الكافرين، وتمضي مسيرة الدعوة إلى الله في طريقها المستقيم حتى يكتمل النور.
2. ضرورة جمع المعلومات وبث العيون لمعرفة أحوال العدو وتحركاته حتى يتمكن المسلمون من إعداد العدة والقوة التي أمر بها الله تعالى قبل القتال.
3. وجوب الاعتماد على قوة الإيمان في مواجهة أعداء الله؛ لأن الغلبة في منظور الإسلام بقوة الغيمان لا بكثرة العدد.
4. يجب الاعتماد على الله والتوكل عليه مع الأخذ بالأسباب فيتمثل المسلمون حقيقة العدة الإيمانية وإظهار العجز أمام القوي بصفاته وذاته العلية، ثم إعداد القوة المادية عملا بمبدأ الحيطة والذر
5. مشروعية إعداد الصفوف واتخاذ التكتيكات الحربية اللازمة لمفاجأة أعداء الله بوسائل القتال المتطورة فإن الحرب خدعة.
6. تأكيد وقوع التأييد الإلهي للمسلمين بالخوارق والمعجزات النبوية فزادهم ذلك إيمانًا بالله وحبًّا في رسوله ﷺ.
7. تولى الله المسلمين يوم بدر بمزيد من نعمه الظاهرة والحسية، فأنزل المطر وألقى على المسلمين النعاس وقتل المشركين في نظرهم، كما ألقى الرعب في قلوب أعدائهم، ونزلت الملائكة لنصرة المسلمين
8. بيان فضل الدعاء وتأكيد أهميته لا سيما عند زحف الصفوف في القتال، عملًا بدعائه ﷺ ومناشدته ربه في جوف الليل وفي العريش، ووقوف أبي بكر بجانبه يشاطره الدعاء والمؤمنين من بعده فاستجاب الله دعاءهم وأثابهم فضلًا وفتحًا قريبًا.
9. حرمة الفرار من القتال وتولية الأدبار، والثبات أمام العدو مهما كانت كثافته إلا أن يكون انسحاب تكتيكي لخطة يرمي لها قائد الجيش، أما هروب الكفار يوم بدر عار وفضيحة، فلا يصدر ذلك من المسلمين فإنه من أشد المعاصي وأقبح الذنوب.
10. وجوب طاعة القائد وبيان مساوئ مخالفته وآثار ذلك في نتائج القتال، فأجاد أصحاب رسول الله ﷺ دور الأتباع والاستمتاع، وتباروا في تنفيذ وصاياه وتسابقوا إلى اتباع أوامره بكل يقظة وحذر، فجاءت النتائج الطيبة واكتسح المسلمون الكفار وحازوا نصر بدر الخالد.
11. انتهت أحداث بدر في ظهر نفس اليوم، ففي فترة قياسية قصيرة حسمت قضية عداء الكفار للإسلام ردحًا من الزمن في الخصام والإيذاء للمسلمين والاستهزاء، ولقد استغرق القتال في بدر أقصر فترة زمنية مقارنة بباقي الغزوات.

12. الإحسان إلى الأسرى كان سببًا مباشرًا لكسب ودهم وداعيًا قويًا لإشهار إسلامهم، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، والإحسان أعلى مراتب الدين، فلم يكن حسن معاملة النبي ﷺ بالأسرى ووصايته بهم لمجرد الكسب المادي، وإنما كان ذلك لله، لأن الله أمره بالإحسان إلى الإنسان حيثما كان، فلما كانت النية خالصة والنوايا طيبة أتى الله بهم مسلمين مخلصين مؤمنين لله رب العالمين.

الخاتمة والتوصيات:

من خلال ما تم عرضه عن منهج ابن كثير في الكتابة التاريخية وخاصة غزاة بدر، يمكننا تقديم بعض التوصيات التي تساعد على الفهم بشكل أفضل، ومنها:

1. تميز أسلوب ابن كثير في التفسير بالسهولة والوضوح، مما يجعله ميسور الفهم لجميع القراء.
شمل تفسير ابن كثير معلومات واسعة النطاق في مختلف مجالات المعرفة الإسلامية، من علوم القرآن والتاريخ والفقه إلى علم اللغة العربية.
2. حرص ابن كثير على التوازن بين الرأي والنقل في تفسيره، فلم يقتصر على نقل أقوال المفسرين السابقين، بل قدم آرائه الخاصة مستندًا إلى الأدلة الشرعية.
3. اعتمد ابن كثير في تفسيره على المصادر الأصلية المسندة، من كتب السير والمغازي، إضافةً لكتب السنة النبوية كالصحيحين، وكتب السنن.
4. غالباً ما يرجِّح قول ابن إسحاق عند الاختلاف بين أهل السير والمغازي.
5. أحيانًا ما كان يغفل ابن كثير ذكر المصادر الأصلية، وينقل اختياره في تفسير الآيات مجملاً.
6. وتتمثل السيرة النبوية الجانب العملي والتطبيقي المشرق للدين الإسلامي.
7. وتتمثل جانبًا بيانًا مفصلًا لكثير من المسائل المذكورة في القرآن الكريم.
8. كتب التفسير لها منهجية خاصة عند تناولها لسرد وعرض السيرة النبوية.
9. تمثل كتب التفسير ضرورة حتمية كونها تمثل السيرة العملية والتفسير العملي للاقتداء برسول الله ﷺ.

الهوامش:

(1) جلال الدين، أبو الفضل، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، ذيل طبقات الحفاظ، مطبوع بذيل: «تذكرة الحفاظ» للذهبي، وضع حواشيه: زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م، ص361.

(2) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، (1/8).

(3) المصدر السابق (1/10).

(4) اللاحم، سليمان بن إبراهيم، منهج ابن كثير في التفسير، الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، 1420هـ، ص181.

(5) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١ هـ)، لإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم [ت ١٤٠١ هـ]، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م 2/1235()

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (1/8).

(7) اللاحم، منهج ابن كثير، ص225.

(8) تفسير ابن كثير، (2/471)، نقلًا عن: اللاحم، منهج ابن كثير، ص226.

(9) اللاحم، منهج ابن كثير، ص329.

(10) ابراهيم، سليمان، منهج ابن كثير في التفسير، ص75 وما بعدها.

(11) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ)، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وواردیها)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: د بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م (2/162).

(12) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405 هـ (13/247-262).

(13) الداوودي، شمس الدين الداوودي المالكي (ت ٩٤٥هـ)، طبقات المفسرين، محمد بن علي بن أحمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، (1/115-116).

(14) السيوطي، طبقات المفسرين، (1/252-253)، ابن كثير، الحافظ عماد الدين، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله المحسن التركي، ط. الرياض: دار هجر، 1419هـ (13/55).

(15) المصدر السابق، (1/264).

(16) المصدر السابق، (1/375-376).

(17) المصدر السابق، (1/264).

(18) البداية والنهاية، (13/55).

(19) ابن كثير، البداية والنهاية، (12/70).

(20) أبو الفلاح، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط.1، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، (2/349).

(21) ابن العماد، شذرات الذهب، (2/139-140).

(22) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/286)، وما بعدها.

(23) المصدر السابق، (1/411)، وما بعدها.

(24) المصدر السابق، (4/182)، وما بعدها.

(25) المصدر السابق، (4/330)، وما بعدها.

(26) اللاحم، منهج ابن كثير، ص331.

(27) الحميدان، صالح، السيرة النبوية من خلال أهم كتب التفسير، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، ص62.

(28) اللهيبي، صالح محمد زكي، تدوين السيرة النبوية من خلال كتب تفسير القرآن، ص6.

(29) المصدر السابق، ص14.

(30) المصدر السابق، ص15.

(31) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (1/430)، (1/432)، ابن هشام، عبد الملك، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط.الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م ، (1/601-605).

(32) نخلة: واد بين مكة والطائف وهو إلى الطائف أقرب، بينهما عشرة أميال، وتسمى نخلة اليمانية. انظر: ابن حجر، فتح الباري 8/ 671، ياقوت الحموي، معجم البلدان 5/ 277.

(33) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، (2/315).

(34) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (1/431)، وأورده ابن شبه، عمر، تاريخ المدينة، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد – جدة عام النشر: ١٣٩٩ هـ ذكر سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم (2/472)، وذكره العراقي، أبو الفضل، طرح التثريب، الطبعة المصرية القديمة - وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي)، (7/249)، وقال ليس إسنادها بمتصل ولا ثابت، وأخرجه أخرجه البخاري معلقا قبل حديث (٦٤) بنحوه مختصًرا، والبيهقي (١٨٤٤٩)، والخطيب في «الكفاية» (ص٣١٢) باختلاف يسير.

(35) المعافري، أبو محمد عبد الملك بن هشام، تهذيب سيرة ابن هشام، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، بيروت، (1 /190-192).

(36) البقرة، الية: 217

(37) ابن حجر، أحمد، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ (7 /323).

(38) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/7) وهو ما رجحه، العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، (2 /369-370).

(39) الأنفال، 41

(40) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/14)، وقد أوردها الألباني، في صحيح السيرة النبوية، المكتبة الإسلامية - عمان – الأردن، ط. الأولى، ص218، وصححها، وشعيب الأرنؤوط، في تخريج مشكل الآثار، ص4878، بإسناد ضعيف، وأشار أحمد شارك في مقدمة كتاب، عمدة التفسير، (2/103)، إلى صحته، وذكر ابن كثير في البداية والنهاية، (3/247)، أن له شواهد مسندة،

(41) الأنفال، 5.

(42) ابن حجر، فتح الباري، حديث رقم 11346، (7 /280).

(43) الحج، 39.

(44) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (5/380)، وذكره ابن حجر في فتح الباري، (7/327) بإسناد صحيح، وحسنه الترمذي في السنن، (3171).

(45) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/59)، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.دار المعارف بمصر، ط.الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م (2 /28)، ابن كثير، البداية والنهاية، (2 /315).

(46) العُشيرة -بالمعجمة والتصغير وآخرها: هاء- هي ببطن ينبع، وخرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمادى الأولى يريد قريشا فوادع فيها بني مُدْلج من كنانة. للمزيد انظر: السيرة النبوية لابن هشام (2/ 598).

(47) قال الواقدي: «الحوراء: وراء ذي المروة بينها وبينها ليلتان على الساحل، وبين ذي المروة والمدينة ثمانية برد أو أكثر قليلا». الواقدي، المغازي (1/ 101).

(48) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/14)، وقد أوردها الألباني، في فقه السيرة، ص218، وصححها، وشعيب الأرنؤوط، في تخريج مشكل الآثار، ص4878، بإسناد ضعيف، وأشار أحمد شارك في مقدمة كتاب، عمدة التفسير، (2/103)، إلى صحته، وذكر ابن كثير في البداية والنهاية، (3/247)، أن له شواهد مسندة، رواه ابن هشام، (2 / 61)، عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن ابن عباس.

(49) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/60)،

(50) قال: ابن سعد: «وهي على ميل من المدينة» الطبقات الكبرى (2/ 12)، انظر: الشراب، محمد بن محمد، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دمشق- بيروت : دار القلم، الدار الشامية، الطبعة: الأولى - ١٤١١ هـ (ص43) إذ قال فيه: «بئر أبي عنبة: بلفظ واحدة العنب. روي في حديث غزوة بدر أن رسول الله ضرب عسكره على بئر أبي عنبة وهي على ميل من المدينة. فعرض أصحابه وردّ من استصغره».

(51) قال أبو بكر الهمداني: « ذَفِرَانَ: - بِفَتْحِ الذال وكسر الفاء وبَعْدَهَا راء -: وادٍ قربَ وادي الصفراء، قال ابن إسحاق - في مسير النَّبِي صلى الله عليه وسلم إلى بدر -: فلما استقبل الصفراء وهي قَرْيَة بين جبلين ترك الصفراء يساراً وسلك ذات اليمين على وادٍ يُقَالُ له ذفران». انظر: أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي الهمداني، زين الدين (ت ٥٨٤هـ)، الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تحقق: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٥ هـ (ص447). ولا زال

المكان معروفا يأخذه الطريق من الحمراء- بوادي الصفراء- إلى ينبع، راجع: محمد شُرَّاب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص120).

(52) لم أجد له ترجمة، بالرغم من شهرته، قال الحلبي: «ولا يعرف له إسلام، والذي من الصحابة» السيرة الحلبية (2/ 197).

(53) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/15)، ابن كثير، البداية والنهاية، (3/261)، وقال له شواهد، وأخرجه الطبري في تاريخه، (220/11).

(54) الأنفال، 7

(55) المقداد ابن عمرو ابن ثعلبة ابن مالك ابن ربيعة البهراني ثم الكندي ثم الزهري حالف أبوه كندة وتبناه هو الأسود ابن عبد يغوث الزهري فنسب إليه صحابي مشهور من السابقين لم يثبت أنه كان ببدر فارس غيره مات سنة ثلاث وثلاثين وهو ابن سبعين سنة. راجع: ابن حجر، تقريب التهذيب، المحقق: محمد عوامة، سوريا: دار الرشيد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ (ص545).

(56) برك الغماد: قيل: إنه موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن. ويبدو أنها أمكنة متعددة توصف بالوعورة، أو البعد والوعورة. انظر: الشراب، المعالم الأثيرة (ص 47)

(57) العسقلاني، فتح الباري، حديث رقم 11346، (7 /280).

(58) نقل الحموي قول السكري في وصف المكان إذ قال: «وقال السكري: الجحفة على ثلاث مراحل من مكة في طريق المدينة، والجحفة أول الغور إلى مكة، وكذلك هي من الوجه الآخر إلى ذات عرق، وأول الثغر من طريق المدينة أيضا الجحفة». الحموي، معجم البلدان (2/ 111).

(59) أي الكفار بالعدوة القصوى، وهي البعيدة التي من ناحية مكة. انظر تفسير ابن كثير (4/ 66).

(60) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/14-16)، ابن كثير، البداية والنهاية، (3/261)، وله شواهد، والطبري، تاريخ الطبري، (220/11).

(61) الأنفال، 11

(62) الحباب بن المنذر الأنصاري الأسلمي يكنى بأبي عمرو ويلقب بذي الرأي كان عمره في غزوة بدر 33 سنة وقد أخذ النبي برأيه في غزوة بدر أيضا ومات في خلافة عمر ﷺ. انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (3/567).

(63) عبد الجبار، صهيب، الجامع الصحيح للنسن والمسانيد، 2014م، (14/411)، (19/211).

(64) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/60).

(65) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ، أسلم يوم فتح مكة، من المؤلفة قلوبهم. له ترجمة في الإصابة (1/ 349).

(66) الأنفال، 44

(67) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/61).

(68) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/25) (5/169)، وأخرجه مسلم في الجهاد، حديث (58)، وأحمد في المسند (1/ 30، 32، 117).

(69) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/25) (5/169)، وأخرجه مسلم في الجهاد، حديث (58)، وأحمد في المسند (1/ 30، 32، 117).

(70) ابن كثير، البداية والنهاية، (2/491).

(71) قال ابن سعد: «قَيْسُ بنُ صَعْصَعَة ابن وهَبْ بن عَدِيّ بن مالك بن عَدِيّ بن عامر بن غَنْم بن عَدِيّ بن النجار، وأمه النجود بنت الحارث بن عدي بن مالك بن عَدِيّ بن عامر بن غَنْم بن عَدِيّ بن النجار، فَوَلَدَ قَيْسُ بن صَعْصَعَةَ: المُنْذِرَ، وأمُّه أُمُّ المنذر بنت قيس بن عَمرو بن عُبيد بن مالك بن عدي بن عامر بن غَنْم بن عَدِيّ بن النَّجّار. وشهد قَيْسٌ أُحُدًا». الطبقات الكبير، المحقق: الدكتور علي محمد عمر، القاهرة – مصر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م (4/ 332). والجدير بالذكر أن ترجمة قيس ليست مذكورة في طبعة الصادر، وأفضل طبعات هذا الكتاب هي طبعة الخانجي لأنها جمعت شتات الكتاب في طبعة واحدة.

(72) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/15)، الأثر في تفسير الطبري، (6/ 184، 185)، وسيرة ابن هشام، (1/ 606، 607)، وأخرجه الطبري في تاريخه، (220/11)، وذكره أحمد شامر في مقدمة كتاب عمدة التفسير، (2/103).

(73) الأنفال، البية: 42

(74) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/58).

(75) الأنفال، 47.

(76) الشوكاني، محمد، فتح القدير، دمشق، بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط.الأولى، ١٤١٤ هـ (2/392).

(77) الأنفال، 47.

(78) البغوي، أبو محمد، معالم التنزيل، عبد الرزاق المهدي، بيروت: ط.دار إحياء التراث العربي –، ط.الأولى ، ١٤٢٠ هـ (2/300).

(79) الشوكاني، فتح القدير، (2/392).

(80) الرازي، أبو عبد الله، التفسير الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط.الثالثة، ١٤٢٠هـ (15/492).

(81) سراقة بن مالك بن جُعْشُم بن مالك بن عمرو بن تيم المدلجي الكناني يكنى أبا سفيان صحابي مشهور من مسلمة الفتح، وهو الذي لحق النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر حين خرجا مهاجرين إلى المدينة. انظر ترجمته في الإصابة (3/ 41).

(82) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/64)، وذكر البوصيري، اتحاف الخيرة المهرة، (2/291)، كذب من داود بن المحبر.

(83) الزمخشري، ابو القاسم، الكشاف، بيروت: دار الكتاب العربي، ط.الثالثة، ١٤٠٧ هـ (2/216).

(84) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/64).

(85) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/64)، الرازي، التفسير الكبير، (15/491).

(86) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/65)، الرازي، التفسير الكبير، (15/492).

(87) الواقدي، محمد، المغازي، مارسدن جونس، دار الأعلمي – بيروت، ط.الثالثة - ١٤٠٩/.١٩٨٩ (1/71).
(88) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/66)، ابن كثير، البداية والنهاية، (3/342)،
(89) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/21)، ابن كثير، البداية والنهاية، (3/342)،
(90) الأنفال، 12
(91) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/16)، صحيح مسلم، برقم (1763)، ومسند أحمد، (1/118).
(92) الأنفال، 9
(93) صحيح البخاري، (6/51)، برقم (4124)، مسند الإمام أحمد، (5/165)، برقم (3042)، إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عكرمة، =فمن رجال البخاري. وهيب: هو ابن خالد بن عجلان البصري، وخالد هو ابن مهران البصري الحذاء. قال الحافظ في «الفتح» 8/619: هذا من مرسلات ابن عباس، لأنه لم يحضر القصة، وروى عبد الرزاق (في تفسيره 2/259، قلنا: والطبري أيضا 27/108) عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة، أن عمر قال: لما نزلت: (سيهزم الجمع ويولون الدبر) جعلت أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع وهو يقول: (سيهزم الجمع) الاية، فكأن ابن عباس حمل ذلك عن عمر، وكأن عكرمة حمله عن ابن عباس، عن عمر. قلنا: وأخرجه البخاري (4875) عن محمد بن يحيى الذهلي، عن عفان بن مسلم، بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري (2915) و (3953) و (4875) ، والنسائي في «الكبرى» (11557) ، والطبرائي (11976) ، والبيهقي في «الدلائل» 3/50، وقي «الأسماء والصفات» ص149، والبغوي في «تفسيره» 4/264، وفي «شرح السنة» (3775) من طريق عبد الوهاب الثقفي، والبخاري (4877) من طريق خالد بن عبد الله الواسطي، كلاهما عن خالد الحذاء، به.
(94) الأنفال، 12
(95) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/36).
(96) رواه بهذا اللفظ: «لن يلج النار»، الإمام البزار، في البحر الزخار، الحديث، (8/276)، برقم (3340).
(97) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب حكم الجاسوس إذا كان مسلمًا، (3/785)، برقم (2650).
(98) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا، (3/88)، برقم (3983)..
(99) صحيح البخاري، (5/80)، برقم (3992)، وقد انفرد بإخراجه البخاري وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ، والصواب رواية البخاري كما ذكر ابن كثير، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/18)،
(100) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي، اتفق العلماء على شهوده بدرًا، وكان أحد فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها، مات في سنة ثلاثين في خلافة عثمان، وله خمس وستون سنة. راجع ترجمته في الإصابة (2/ 4).
(101) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/18)، صحيح البخاري، (5/145)، برقم (4274).
(102) صحيح البخاري، (5/80)، برقم (3992).
(103) صحيح البخاري، (5/86)، برقم (4022).

(104) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/21).
(105) الأحزاب، 10
(106) الثعلبي، أحمد، الكشاف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، ، ط.الأولى، ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م (4/333).
(107) البغوي، أبو محمد، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، دمشق، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م (7/106).
(108) البقاعي، إبراهيم، نظم الدرر،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (3/194).
(109) ابن عاشور، محمد، التحرير والتنوير: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ (9/281).
(110) الأنفال، 12
(111) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (1/672).
(112) الأنفال، 9
(113) آل عمران، 125
(114) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/98)، ابن هشام، السيرة النبوية، (1/643)،
(115) الأنفال، 10، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/99)
(116) الأنفال، 12، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/99)
(117) الأنفال، 12، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/99)
(118) قال ابن سعد: «أخبرنا عتاب بن زياد، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا هشام بن عروة عن عباد بن حمزة بن الزبير قال: نزلت الملائكة يوم بدر عليهم عمائم صفر وكان على الزبير يوم بدر ريطة صفراء قد اعتجر بها». الطبقات الكبير، (2/ 24).
(119) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/20)
(120) آل عمران، 124.
(121) آل عمران، 124.
(122) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/97).
(123) آل عمران، 124.
(124) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/98)
(125) الأنفال، 11.
(126) الأنفال، 12.
(127) آل عمران، 123.
(128) الأنفال، 43.
(129) الزمخشري، الكشاف، (2/225)؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/315).
(130) القمر، 44.

(131) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/60). وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، (1/239)، ابن كثير، البداية والنهاية، (3/267)، والحديث أورد أبو داود في سننه، (3/58)، برقم (2681)، المسند الجامع الموضوعي الجامع للكتب العشرة، (7/233).

(132) بن كثير، المغازي النبوية، ص49

(133) الأنفال، 11

(134) آل عمران، 154

(135) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/19).

(136) الطبري، جامع البيان، (2/44).

(137) الانشراح، 5- 6

(138) القمر، 45

(139) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/19).

(140) الأنفال، 42

(141) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، (2/ 325).

(142) البيضاوي، ناصر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: ط.دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ (114/1)، ابن الجوزي، زاد المسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط.الأولى - ١٤٢٢هـ (3/367 – 368).

(143) القرطبي، جامع البيان، (26/4)، ينظر: البيضاوي، ناصر، (114/1)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (419/2).

(144) الزمخشري، الكشاف، (217/2)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (419/ 2).

(145) الأنفال، 49

(146) الأنفال، 12

(147) الأنفال، 43

(148) الأنفال، 44

(149) قال ابن سعد: «قباث بن أشيم بن عامر الملوح بن يعمر وهو الشداخ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث. شهد بدرا مع المشركين وكان له فيها ذكر، ثم أسلم بعد ذلك وشهد مع النبي، ﷺ، بعض المشاهد» الطبقات الكبير، (5/ 128)، قال محقق الكتاب كذا ضبطت القاف بالفتح في الأصل ضبط قلم. وورد لدى ابن حجر في الإصابة «قباث والمشهور فتح أوله وقيل بالضم، وبه جزم ابن ماكولا».

(150) ابن كثير، أبو الفداء، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ط.عيسى البابي الحلبي،القاهرة، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م، (2/465).

(151) آل عمران، 13

(152) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/61)، الطبراني، المعجم الكبير، (10/147)، برقم (10269)، وابن أبي شيبة، المصنف، (7/260)، برقم (36698)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (6/84)، برقم (9993)، بإسناد صحيح.

(153) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/328).

(154) آل عمران، 13

(155) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/14).

(156) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/14)، ابن حماد، نعيم، الفتن، (1/345)، برقم (999)، ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني، (1/254)، برقم (328)، الحاكم، المستدرك، (3/275) برقم (5076)، قال الهيثمي: وإسناده حسن. مجمع الزوائد: 6/74، وسكت عنه الذهبي في التلخيص

(157) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2/14).

(158) ومستند فريق أهل العلم في أن جموع أصحاب بدر: 314 رجلا، هو الحديث التالي: (عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر فقال لأصحابه: (تعادوا فوجدهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا. ثم قال لهم تعادوا فتعادوا مرتين. فأقبل رجل على بكر له ضعيف وهم يتعادون فتمت العدة)، فتح الباري. (12/294)، وسنن سعيد بن منصور، (2/363)، برقم (2874)، تيسير الساري تخريج أحاديث فتح الباري، (4/2722)، برقم (1839).

(159) من اعتمد على هذا العدد من العلماء كان دليله في ذلك حديث البراء الذي ورد فيه: (كنا نتحدث أن أصحاب بدر يوم بدر كعدة أصحاب طالوت ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا). الجامع الكبير للترمذي. كتاب السيد عن رسول الله، ﷺ. باب ما جاء في عدة أصحاب بدر. حديث (3/248)، برقم (1597).

(160) من ذكر عدة أهل بدر 319 رجلا، استدل برواية عمر بن الخطاب التي جاء فيها: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله، ﷺ، إلي المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا)، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير. باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث (1763)، ص.843

(161) استعرض القرآن الكريم بتفصيل قصة الملك طالوت وهو في طريقه لقتال جالوت، والابتلاء الذي تعرض له جيشه العريض. ولم يقو على تحمل الشدائد إلا فئة قليلة من جنوده، وهي التي كان النصر حليفها في دحر جبروت جالوت.

(162) اسمه الكامل: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، أشهر شرح موضوع على الجامع الصحيح.

(163) رتب البخاري من تمت له روايته عنهم في جامعه الصحيح، ذكرها في: كتاب المغازي. باب: (تسمية من سمي من أهل بدر في الجامع).

(164) ضياء الدين المقدسي (ت643هـ) العلامة المحدث والمؤرخ المشهور، صاحب المصنفات الجليلة أهمها: (فضائل الأعمال) و(الأحاديث المختارة)، و(فضائل الشام)، و(فضائل القرآن)، و(مناقب أصحاب الحديث)، و(سبب هجرة المقادسة إلى دمشق). ترجمته في: فوات الوفيات، (2/391)، ذيل طبقات الحنابلة، (3/514).

(165) اسم الكتاب: (السنن والأحكام عن المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام)، صدر بتحقيق: عبد الله حسين بن عكاشة. عن دار ماجد عسيري. جدة. السعودية. ط1425هـ-2004م. وما وجد من هذا الكتاب ينقصه كتاب المغازي الذي تضمن أسماء البدريين على الحروف، ومن حسن الحظ أن العلامة ابن كثير احتفظ لنا بنص ضياء الدين المقدسي، وأدرجه بتمامه في كتابه البداية والنهاية، (5/213-256).

(166) أبو الفتح محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمري (ت734هـ)، له مصنف في السيرة النبوية

سماه: (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير). صدر الكتاب في مجلدين، بتحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مسيتو، عن دار ابن كثير. (د.ت)

(167) محمد بن إسحاق بن يسار (ت151هـ) أحد العلماء المتقدمين في معرفة المغازي والسير، وأحد أوعية هذا الفن، جمع المغازي والسير في كتاب اشتهر بسيرة ابن إسحاق، المسماة بـ: (المبتدأ والمبعث والمغازي). صدر هذا الكتاب بتحقيق وتعليق: محمد حميد الله. عن معهد الدراسات والأبحاث والتعريب. المغرب. 1396هـ-1976م. ترجمته في: الطبقات الكبرى، (7/349-350).

(168) فتح الباري شرح صحيح البخاري، (12/357).

(169) الأنفال، 42

(170) الواقدي، (1/54)، ابن سعد، الطبقات، (2/15)، وابن هشام، السيرة، (2/259)، البيهقي، أحمد، دلائل

(171) النبوة، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، ط.دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، ط.الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، (3/110).

(172) الأنفال، 9

(173) الدر المنثور، (4/28)، فما بعدها.

(174) الأنفال، 42

(175) الدر المنثور، (4/74)، فما بعدها.

(176) آل عمران، (4/26).

(177) آل عمران، 127.

(178) آل عمران، 12

(179) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/28).

(180) الأنفال، 19

(181) الحج، 19.

(182) الخبر مذكورٌ عند ابن هشام، (2/268)، والبيهقي، دلائل النبوة، (3/79)، والهيثمي، مجمع الزوائد، (6/78)، بإسناد ذكر أنه حسن.

(183) الأنفال، 17

(184) هو: سواد بْن غزية الأنصاري من بني عدي بْن النجار، وقيل: هو حليف لهم، من بني بلي بْن عمرو بْن الحاف بْن قضاعة، شهد بدرًا، والمشاهد بعدها، وهو الذي أسر خَالِد بْن هشام المخزومي يَوْم بدر، وهو كان عامل رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم علي خيبر، فأتاه بتمر جنيب، قد اشترى منه صاعًا بصاعين من الجمع. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبير (3/ 478)، عز الدين ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (2/ 590).

(185) هو: عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب، وأمه النوار بنت عامر بن نابئ بن زيد بن حرام بن كعب. وآخى رسول الله ﷺ بين عمير بن الحمام وعبيدة بن الحارث وقتلا يوم بدر جميعا. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبير (3/ 523).

(186) الأنفال، 15

(187) الأنفال، 9

(188) الأنفال، 1

(189) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/3)، صحيح البخاري، (6/61).

(190) كان الفداء يتراوح ما بين ألف درهم إلى أربعة آلاف، ابن هشام، السيرة، (2/306)، وسنن أبو داود، كتاب الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال، (3/139).

(191) الأنفال، 41

(192) الأنفال، 69

(193) كان معظم الرجال الذين أكرهوا على الخروج من بني هاشم، منهم العباس بن عبد المطلب ونوفل بن الحارث وطالب بن أبي طالب وعقيل بن أبي طالب وغيرهم. انظر: البيهقي، دلائل النبوة، (3/ 105).

(194) أبو شهبة، محمد، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، الناشر: دار القلم – دمشق، ط.الثامنة - ١٤٢٧ هـ (2/149).

(195) العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط. السادسة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م (3/366).

(196) ابن حزم، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، ص152-147

(197) الطبري: محمد بن جعفر (311 هـ)، تاريخ الأمم الملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية، د.ت، (2/459).

(198) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (3/300).

(199) الواقدي، المغازي (1/144).

(200) ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص .155

(201) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (3/300).

(202) ابن هشام، السيرة، (2/373)، الطبري، جامع البيان، (2/474)، الواقدي، (1/14).

(203) ابن هشام، السيرة، ()2/372.

(204) ابن سعد: محمد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1405هـ (2/18).

(205) الواقدي، المغازي (1/144).

(206) ابن عبد البر: يوسف بن عبد البر النمري، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص .111

(207) الأنفال، 29

(208) الأنفال، 45

(209) الأنفال، 60

المصادر والمراجع:

(1) ابن الجوزي، زاد المسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط.الأولى - ١٤٢٢هـ.

(2) ابن عاشور، محمد، التحرير والتنوير: الدار التونسية للنشر – تونس.

(3) أبو شهبة، محمد، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، الناشر: دار القلم – دمشق، ط.الثامنة - ١٤٢٧ هـ

(4) الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم [ت ١٤٠١ هـ]، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

(5) الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ .

(6) الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي الهمداني، زين الدين (ت ٥٨٤هـ)، تحقق: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٥ هـ

(7) البداية والنهاية، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل مكتبة المعارف، بيروت.

(8) البداية والنهاية، ابن كثير، الحافظ عماد الدين، تحقيق عبد الله المحسن التركي، ط. الرياض: دار هجر، 1419هـ

(9) البغوي، أبو محمد، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، دمشق، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(10) البقاعي، إبراهيم، نظم الدرر،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (3/194).

(11) البيضاوي، ناصر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: ط.دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ

(12) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.دار المعارف بمصر، ط.الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

(13) تاريخ المدينة، ابن شبه، عمر، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد – جدة عام النشر: ١٣٩٩ هـ

(14) تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وواريديها)، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: د بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

(15) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

(16) التفسير الكبير، الرازي، أبو عبد الله، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط.الثالثة، ١٤٢٠هـ.

(17) تقريب التهذيب، ابن حجر، المحقق: محمد عوامة، سوريا: دار الرشيد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

(18) تهذيب سيرة ابن هشام، المعافري، أبو محمد عبد الملك بن هشام، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، بيروت.

(19) الثعلبي، أحمد، الكشاف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، ، ط.الأولى، ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢م.
(20) الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر: يوسف بن عبد البر النمري، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
(21) دلائل النبوة، البيهقي، أحمد، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، ط.دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، ط.الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
(22) ذيل طبقات الحفاظ، جلال الدين، أبو الفضل، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، مطبوع بذيل: «تذكرة الحفاظ» للذهبي، وضع حواشيه: زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م.
(23) الزمخشري، ابو القاسم، الكشاف، بيروت: دار الكتاب العربي، ط.الثالثة، ١٤٠٧ هـ (2/216).
(24) سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405 هـ
(25) السيرة الحلبية، الحلبي، أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن احمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 2002م.
(26) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين، العمري، أكرم ضياء، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط.السادسة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م (3/366).
(27) السيرة النبوية الصحيحة، العمري، أكرم ضياء، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
(28) السيرة النبوية من خلال أهم كتب التفسير، الحميدان، صالح، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، ص62.
(29) السيرة النبوية، ابن هشام، عبد الملك، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط.الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.
(30) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط.1، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
(31) صحيح السيرة النبوية، الألباني، المكتبة الإسلامية - عمان – الأردن، ط. الأولى.
(32) الطبقات الكبرى، ابن سعد: محمد، دار صادر، بيروت، 1405هـ (2/18).
(33) الطبقات الكبير، ابن سعد، المحقق: الدكتور علي محمد عمر، القاهرة – مصر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
(34) طبقات المفسرين، محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي (ت ٩٤٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر.
(35) طرح التثريب، العراقي، أبو الفضل، الطبعة المصرية القديمة - وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي.

(36) فتح الباري بشرح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية – مصر، الطبعة: «السلفية الأولى»، ١٣٨٠ - ١٣٩٠ هـ

(37) فتح القدير، الشوكاني، محمد، دمشق، بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط.الأولى، ١٤١٤ هـ

(38) اللهيبي، صالح محمد زكي، تدوين السيرة النبوية من خلال كتب تفسير القرآن.

(39) المعارف، ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

(40) المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، الشراب، محمد بن محمد، دمشق- بيروت : دار القلم، الدار الشامية، الطبعة: الأولى - ١٤١١ هـ

(41) معالم التنزيل، البغوي، أبو محمد، عبد الرزاق المهدي، بيروت: ط.دار إحياء التراث العربي –، ط.الأولى ، ١٤٢٠ هـ (2/300).

(42) معجم البلدان، الحموي، ياقوت، بيروت، 1400هـ

(43) المغازي، الواقدي، محمد، مارسدن جونس، دار الأعلمي – بيروت، ط.الثالثة - ١٩٨٩/١٤٠٩.

(44) منهج ابن كثير في التفسير، سليمان بن إبراهيم اللاحم، الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، 1420هـ

(45) النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، (2/ 325).

مدن مملكة الأنباط منذ عام 86ق.م ـ 40م
«دراسة تاريخية حضارية»

أ.أسماء بنت عبدالله القحطاني
باحثة - المملكة العربية السعودية

المستخلص:

يحتوي هذا البحث على دراسة تاريخية حضارية عن مدن الأنباط فيما بين عام 86 ق.م – 40م، ونشأة المدن وتطور العمران في مملكة الأنباط، وأهمية الموقع الاستراتيجي لهذه المدن في اكتساب أهمية تاريخية وحضارية، فكل مدينة كان لها دورها وأهميتها في الحضارة فهناك مدن اكتسبت أهمية سياسية كالبتراء، ومدن ذات أهمية تجارية كالحوراء، ومدن ذات أهمية دينية كالحِجر، وتأتي أهمية هذا البحث فإن مدن الأنباط تعد مصدراً مهماً لمعرفة آثار وحضارة العرب ومرونتها في الامتزاج بالفنون اليونانية والرومانية، وإبراز مدن متميزة ذات فن عربي أصيل، وتسليط الضوء على اسهامات ملوك الأنباط في بناء المدن ومدى حبهم للفنون المختلفة. وقد خلص البحث إلى أهمية المدن وموقعها الجيد في إنعاش التجارة واقتصاد المملكة النبطية وزيادة إيرادات البلاد، والرخاء الذي عمّ مملكة الأنباط والذي حفز ملوكها إلى الإبداع في بناء مدن مختلفة ذات اهتمامات متنوعة، وتطوير القرى إلى مدن حاضرة ومكانة تاريخية في مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية وفلسطين وسورية.

الكلمات المفتاحية: الأنباط، مدن، حارثة

Cities of the Nabataean Kingdom since 86 BC -40 AD
“A cultural-historical study»

Asmaa bint Abdullah Al-Qahtani

Abstract:

This research contains a historical-cultural study of Nabataean cities between 86 BC. - 40 AD, the emergence of cities and the development of urbanization in the Kingdom of the Nabataeans, and the importance of the strategic location of these cities in acquiring historical and civilizational importance. Each city had its role and importance in civilization. There are cities that acquired political importance such as Petra, cities of commercial importance such as Al-Hawra, and cities of religious importance such as the stone. The importance of this research comes. The cities of the Nabataean cities are an important source of knowledge of the effects and civilization of the Arabs and their flexibility in blending with Greek and Roman arts, highlighting distinguished cities with authentic Arab art, and highlighting the contributions of the Nabataean kings in building cities and the extent of their love for the

various arts. The research concluded the importance of cities and their good position in reviving trade, the economy of the Nabatean Kingdom and increasing the country's revenues, and the prosperity that motivated the Kingdom of the Nabataeans, which stimulated its kings to be creative in building different cities with diverse interests.

Keywords: Nabataeans, Cities, Haritha

المقدمة:

اكتسبت المدن الواقعة في جنوب بلاد الشام وشمال شبه الجزيرة العربية حضارة عريقة ومكانة سامية منذ العصور القديمة، وازدادت أهميتها بظهور حضارة الأنباط العربية واهتمامهم بالعمران وحب الفنون والثقافات المختلفة وتأثيرها على حضارتهم. ومن هذا المنطلق فإن دراسة مدن الأنباط في الفترة الواقعة ما بين عام 84ق.م وحتى عام40م في التاريخ الكلاسيكي أحد أهم الدراسات في معرفة تاريخ حضارة العرب في الشمال، كونها في موقع استراتيجي مهم برياً وبحرياً، فخارجياً هي حلقة وصل تربط بين آسيا وأفريقيا وأوروبا وبين البحر الأحمر والبحر المتوسط، مما جعل الكثير من الأمم تسعى لتوطيد العلاقات مع الأنباط في جميع مناحي الحياة الاقتصادية والدينية والسياسية، ومن الناحية الداخلية كانت مدن الأنباط وضواحيها تحظى باهتمام حكامها الأنباط, بحيث اعتنوا بتشييدها بأفضل العمران والطرق والمخططات السكنية وسكوا المسكوكات من أجلها حتى غدت مدن ذات مناظر جميلة وآسرة، وكان الملك حارثة الثالث من أكثر ملوك الأنباط الذين سخروا امكانيات بلادهم في تشييد المدن بطابع عربي ممزوجاً بفن يوناني وروماني، حيث شيد العاصمة البتراء كمدينة تجارية متطورة ذات طابع يوناني، أيضا اهتم الملك حارثة الرابع بالحجر(مدائن صالح) وشيد بها أجمل المباني والمقابر وجعلها مدينة يغلب عليها التأثير الديني.

لقد ابدع المؤرخون والرحالة في وصف المدن النبطية كالبتراء والحجر (مدائن صالح) وأم الجمال والحوراء وعبدة. وتأتي أهمية موضوع البحث فإن مدن الأنباط تعد مصدراً مهماً لآثار وحضارة العرب في تلك الحقبة التاريخية، ووقوع بعض تلك المدن ضمن مناطق حكومتنا الرشيدة المملكة العربية السعودية، وأهمية هذه المدن وتأثيرها على النواحي السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية، وإبراز دور الفن وبناء المدن والمباني في الامتزاج الثقافي بين العرب واليونان والرومان وتأثيره على مر العصور، واسهامات ملوك الأنباط في الاهتمام بتلك المدن وتشييد المباني وتشغيل هذه المدن حسب الاحتياج السياسي والديني والاقتصادي، وأثرت هذه المدن على تنشيط الطرق التجارية وزيادة ايرادات المملكة النبطية وازدهار مدنها ودورها في توطيد العلاقات الخارجية للأنباط. والذي دعا لكتابة هذا البحث قلة المواد العلمية في إبراز اسهامات الانسان العربي في بناء المدن وخاصة في شبه الجزيرة العربية، وإظهار معالم هذه المدن التي تمثل حضارة العرب. وقد تركزت أهداف البحث في توضيح الهوية الحقيقة لتاريخ المدن العربية في تلك الحقبة الزمنية، وتخصيص المدن النبطية بدراسة تعنى بها فقط، ودراسة الكتب الكلاسيكية التي تناولت هذه المدن والكشف عن معلومات هذه المدن ودورها التاريخي. ويتناول هذا البحث الإطار الزماني فيما بين عام 86 ق.م-40م، في حين أن إطار البحث المكاني يمتد من البحر الأحمر وفلسطين وسيناء غرباً ودمشق بادية الشام شمالاً ودومة الجندل شرقاً والحجر (مدائن صالح) والعلا جنوباً _أي حدود مملكة الأنباط.

أما منهج البحث فسيعتمد في كتابة البحث على المنهج التتبعي الاستقرائي الوصفي حسب ما تتوفر من مصادر، وتتبع المعلومات من تلك المصادر ومحاولة التحقق من صحتها وتحليلها إلى عدة موضوعات، والاعتماد على مراجع صحيحة وسليمة، واتباع منهج استنتاجي باستنتاج النتائج بعد قراءة المعلومات وجمعها وتحليلها. وبالنسبة للدراسات السابقة للبحث بعد البحث والتقصي فيها وجد أن هناك القليل من الدراسات التي تناولت بعض محتويات الموضوع لكن لم أجد أي دراسة قد استفردت بهذا الموضوع وحده حسب ما توصلت إليه من تقصي وبحث. وأهم المراجع التي اعتمد عليها في كتابة هذا البحث هي كتاب جرجي زيدان, العرب قبل الإسلام, مطبعة الهلال – مصر، 1923م، ط2، وكتاب احسان عباس، تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق، عمّان، 1987م، ط1، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، العراق، 1413هـ /1993م، ط2، محمد الخطاطبة، عمارة الأنباط السكنية، مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض، 1427هـ/2006م، ط1، خالد الحموري، مملكة الأنباط دراسة في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، بيت الأنباط، عمّان، 2002م .

لقد اشتملت خطة البحث على تمهيد ومبحثين، واحتوى كل مبحث على عدد من الموضوعات, فبدئت بتمهيد عن المدن قبل فترة الدراسة منذ أن أسس الأنباط مملكتهم حتى الفترة الواقعة في عام 87 ق.م .

أما المبحث الأول فقد تناول مدن الأنباط حسب مكانتها وما اشتهرت به، منها مدن سياسية كدمشق المتنازع عليها سياسياً بين الأنباط ومن حولهم, ثم مدن تجارية لها مكانة عند تجارة الأنباط والعالم وإبراز دور تلك المدن في الطرق التجارية وأهم معالمها, ثم مدن دينية ذات مكانة دينية لدى الأنباط بتخصيصها لعبادة آلهتهم ومدى عنايتهم بالمعابد والمقابر التي تشبه القصور في بنيانها ونصب آلهتهم في تلك المدن لتحميها. وناقش المبحث الثاني اهتمام ملوك الأنباط بالمدن, واقتصر على ملكين من أكثر ملوك الأنباط عناية واهتماما بالمدن, الملك حارثة الثالث في الفترة الواقعة ما بين 86 ق.م – 62 ق.م, والملك حارثة الرابع في الفترة الواقعة ما بين 9 ق.م – 40 م ، ثم اختتمت الدراسة بخاتمة وملاحق.

تمهيد:

في عصر ملوك الأنباط في الفترة ما قبل عام 86ق.م لم يكن هناك مدن بالمعنى الحضاري بل كانت اشبه بمناطق وقرى تقوم بوظائف اختصت بها لكن دون أي تطور وازدهار , وقد نزح إليها الأنباط في بداية توسعهم بقصد التجارة كما في منطقة البتراء بعد صراع مع المؤابيين الذين كانوا يقطنون في هذه المنطقة, وكان في القرن الثاني قبل الميلاد تنافس كبير بين القبائل النبطية والقبائل الاخرى في الاستيلاء على المناطق التي تقع على طرق التجارة , حتى استولى عليها الأنباط من منطقة البتراء شمالاً حتى الحِجر جنوباً , واشتغلوا في تجارة هذه المناطق لكن دون أي تنظيم أو تحضر وبناء ؛ وذلك يرجع لانشغال ملوك الانباط بالحروب مع الرومان ومع جيرانهم اليهود , كذلك انشغالهم في توسيع مملكتهم لذلك كانت مناطق النبط بسيطة لا تكلف في بناءها ولا يوجد بها شيء ملفت للنظر أو منشآت وكانت أشبه ما يكون ببادية قبلية ومنطقة صحراوية وكانت تسمى بقرى أو محافظات إلى نهاية عهد رب إيل الأول سنة 78ق.م, فهؤلاء الملوك انشغلوا بحروبهم مع جيرانهم والاهتمام بالتوسع في حدود مملكتهم أكثر من اهتماهم في تطويرها، ولم تذكر النقوش

أو الدراسات القديمة في تلك الفترة ما يدل على وجود مدنية واهتمام ببناء المدن وعمرانها من قبل الأنباط، فالعكس من ذلك نجد ذكر للمناطق المتنازع عليها سياسياً دون ذكر جانب فني وعمراني.

ففي مطلع القرن الأول قبل الميلاد أصبحت المناطق الشمالية والجنوبية لمملكة الانباط كالبتراء والنقب والحِجر تشغل الانباط بتجارتها، فاتسع نشاطها وازدهر حتى أصبحت شبكة للتجارة ومحطة للتجار القادمين من أوروبا وشبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين ومصر، وبدأت معالم المدنية والتحضر تظهر على مدن الأنباط بعد اهتمام ملوكها بها، وأصبحت بعض القرى والمدن تكتسب أهمية سياسية واقتصادية ودينية لدى العالم كمدينة البتراء والحجر وأم الجمال وغيرها من المدن.

مدخل عام:

وقبل الحديث عن مدن الأنباط في العصور القديمة لا بد أن نذكر مناطق التي توزعت فيها مدن الأنباط وأماكن تواجدها في العصر الحاضر. لقد توزعت تلك المدن على أربعة دول في العصر الحاضر (الأردن، سورية، فلسطين، السعودية) وتركزت معظم المدن النبطية في دولة الأردن حيث ضمت عدد من المدن منها البتراء، قرى وادي موسى، وادي رم، أم الجمال، إيلة، الحميمة، السيق البارد، خربة فينان، خربة التنور، خربة السلع، وضمت دولة سوريا عدد من المدن النبطية منها بصرى، سوادا، سبع، سلخه، تل دبة، بينما ضمت فلسطين مدينة الخلصة، كرنب، عبدة، نصتان، سبيطة، وبئر السبع. وفي المملكة العربية السعودية ضمت عدد من المدن النبطية منها الحِجر، دومة الجندل، تيماء، العلا(ددن). وقد قسمت هذه المدن حسب مكانتها وأهميتها في عهد الأنباط فتنوعت ما بين مدن سياسية ومدن تجارية ومدن دينية.

المبحث الأول : مدن الأنباط.

مدن سياسية: (دمشق) هناك مدن نبطية اتخذت مكانة سياسية لدى عرب الأنباط وأهمها دمشق البلدة المعروفة في أرض الشام وهي بلدة الأنبياء,[1] وتمتلك هذه المدينة مكانة سياسية مهمة لدى الأنباط واليهود، فقد كانوا متنازعين عليها فتارة تكون ملك للعرب وتارة اخرى تكون ملك اليهود(الحشمونيين), ايضا تمتلك مكانة سياسية عالية عند الرومان واليونان فكانوا متنازعين عليها كذلك, وقد ضمت دمشق لمملكة الأنباط مرتين المرة الأولى في عهد الملك النبطي الحارث الثالث في القرن الأول قبل الميلاد, عندما طلب أهالي دمشق بأن تكون مدينتهم تابعة للملك النبطي حارث الثالث؛ وذلك للتخلص من تحرشات العرب اليطوريين[2] ونزاعات اليونانين الداخلية, فدخل الحارث بجيشه إلى دمشق عام 85ق.م وعين عليها حاكم ينوب عنه, وسك الحارث لهذه المناسبة الكبيرة السكة النبطية في المدينة وظهرت عليها لأول مرة صورة الملك النبطي واسمه وارفق بها عبارة «محب يونان» وظلت تصدر تلك النقود حتى عام 70ق.م, وكانت المدينة تحت سلطة الأنباط مدة خمسة عشر(15) عاماً حتى انتزعت من أيديهم من قبل ملك أرمينية «دكران» عام سبعين قبل الميلاد (70ق.م), ولم يهتم الأنباط في استعادة دمشق فترة طويلة .[3]وضمت دمشق مرة اخرى إلى مملكة الأنباط في عهد حارثة الرابع, وذلك أثناء صراعه مع هيرود انتبتياس (ملك اليهوديه) وتدخل قائد الرومان طبياريوس, مما أثار غضب ملك النبط حارثه الرابع وانتصر على هيرود واتجه مباشرة بعد انتصاره إلى دمشق واستولى عليها عام 37م واعادها إلى مملكة الأنباط بعد فترة طويلة من انتزاعها, وجعل عليها حاكم ينوب عنه في شؤونها وبقيت دمشق طوال فترة حكم حارثه الرابع ضمن مدن الأنباط إلى أن توفي

حارثه الرابع عام 40م واستولى عليها الرومان في عهد خليفته مالك الثاني فور توليه الحكم .[4] وهناك نص يدل على أن دمشق كانت تحت سيطرة الأنباط في عهد حارثة فيقول الرسول :» كان الحاكم بدمشق تحت آمرة أرتياس الملك حارثة يحرس مدينة الدمشقيين».[5] وقد تأثر الأنباط من حضارة دمشق .[6]

أما المدن تجارية عرف الأنباط بالتجارة ووقوع هذه المدن على الطرق التجارية المهمة, كالطريق المؤدي إلى البحر المتوسط والبحر الميت والخليج العربي مما جعلها محط أنظار التجار حول العالم, ومن تلك التجارة عمرت المدن وازدهرت ومن أشهر هذه المدن.

1-البتراء:

وتعد أشهر مدن الأنباط والعالم القديم, وتقع على طريقين يتجه الطريق الأول إلى سورية والآخر إلى غزة, وجنوب البحر الميت تقع المدينة,[7] وتعرف هذه المدينة عند اليونان «بالبتراء أي الصخرة», وعند اليهود (العبرانيين) «بسلع», وعند العرب تعرف «بالرقيم»,[8] كما ذكرت في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**﴾ سورة : الكهف , آية : 9 .

وهي عاصمة الأنباط أرض مستوية السطح تقع على صخرة مستديرة شديدة الوعورة والانحدار من الخارج, ومن داخلها آبار كثيرة تسقي زراعهم وتستخدم لاستعمالات اخرى, ويوجد بالصخرة شق يعرف «بالسيق» مدخل مدينة البتراء الذي به أخدود عميق بين جبلين, تميزت المنطقة عن باقي المدن من حولها بكثرة ووفرة الماء الصافي, وحول هذه الصخرة كلها أراضي صحراوية ([9]).

كانت هذه المدينة بداية لانطلاق دولة الأنباط كمملكة لها كيانها, وكانت دار لملوك الأنباط ونبلاءها, كما كانت منبع للتجارة في الشرق, فهي مليئة بالخيرات من زيت السمسم والأغنام ذو الأصواف ايضا الجمال (الإبل) التي تحمل قوافلهم التجارية, ايضا وجود البحر الميت المليئ بالثروات كالأسفلت الذي يعود لهم بأموال طائلة , وكانت هذه المدينة ممر للكثير من القوافل التجارية من نواحي شتى, ومركز للتجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ,ويسكنها أغلب الأجانب من يونان ورومان وكان يسكنها سكان مرفهين([10]) أيضا كانت مركز مهم للزراعة فقد استغل الأنباط أراضي البتراء في تلبية احتياجات الأنباط والمملكة,لزيادة دخلها ورفع المستوى المعيشي لها واستغلال المياه الموجودة في الصخرة وقلتها في المنطقة, بحفر القنوات والسدود والخزانات لإيصالها في أنحاء متفرقة من المدينة بشكل يشبع أراضيها, وتزويد القوافل التجارية. ونرى البناء الذي تميزت به المدينة ومعالمها التي أصبحت آية في الجمال كالمسرح العظيم وخزنة فرعون ومعبد الأسود المجنحة, ويرجع ذلك إلى ازدهار التجارة في البتراء ووقوعها على طريق التجارة حول العالم, وكان لموقعها الاستراتيجي أن أصبحت ذات مكانة تجارية عالية بين مدن العالم القديم والأول بينهم, وكانت بها أهم الطرق التجارية الرئيسية الهامة والقادمة من أنحاء متفرقة, فهناك طريق أتي من شبه الجزيرة العربية باتجاه شمال سورية, او اتجاه غرب غزة وشواطئ البحر المتوسط, واحاطة المدينة بعدة قرى ومواقع ذات أهمية تجارية واقتصادية كوادي موسى, السيق البارد, صبرا, براق .([11]).

كما تمكن الأنباط من استخراج الموارد الطبيعية من أراضي البتراء من مناجم النحاس والحديد واستخدامها في صناعة ما يلبي احتياجاتهم والتجارة بها, كما حولوا هذه المدينة الصخرية إلى مدينة تجارية جميلة, ويقول أ.جواد العلي عن مدينة البتراء : « أخذوا من الهيلينية تنظيم المدن وأصول الإدارة والفن وحولوا مدينتهم الصخرية إلى مدينة حديثة جميلة تنطق حتى اليوم بكفاية أصحابها وبقابليتهم للمدينة»([12]).

أيضا ظهرت الكثير من الأنشطة التجارية ومظاهر الحياة النبطية في البتراء, بالعناية التجارية من تربية الجمال والحرص على مؤونتها وتزويدها بأفضل المعدات لحفظ البضائع من التلف والنهب, وبناء السفن التجارية والتدريب على كل أنواع التجارة البحرية والبرية وتهيئة الموانئ والمعدات التي تمر بها البضائع كميناء حوراء وإيلة, كما خصصت أماكن لتخزين البضائع وتفريغها ومن ثم تعبئتها كمخزن السيق البارد[13]، فكان ازدهار التجارة بهذه المدينة يرجع إلى الرعي والزراعة والصناعة والتعدين, وكانت أكثر سلعهم الحيوانات من الجمال التي يقودوا بها القوافل التجارية والتي اشهرت تجارة الأنباط بكثرة استعمالهم لها, ايضا من سلعهم الضأن ذو الأصواف والثيران الكبار التي كانت بديلة عن الخيول التي لاوجود لها في تجارة الأنباط أو استخداماتهم اليومية, ومن سلعهم المشهورة زيت السمسم بديل زيت الزيتون لقلة وجود الزيتون في بلادهم, كما كان يتاجرون بالقار[14] المستخرج من البحر الميت؛ للحفاظ على سلعهم من الماء والتلف وتلوين المعادن وصناعة المومياء والتحنيط, كما كانت لديهم سلعة نادرة لا توجد في أراضي العالم القديم سوا في البتراء وهو نبات البلسم[15] واستخدامه كعقار طبي مهم جداً .[16]

وكان الأنباط يستخدمون طرق تجارية من البتراء إلى عدة مناطق, وكان يجنون من هذه الطرق الأموال الطائلة؛ لأنهم كانوا يأخذون من كل تاجر يمر بطريق مملكتهم أموال قوافلهم وحمايتها وأموال لمبيتهم والمراعي التي يستقون منها جمالهم, فكان لموقع البتراء الاستراتيجي ووقوعها على الطريق الرئيسي للتجارة العالمية دور في انعاش اقتصاد الأنباط وازدهاره, فطريق البخور الذي يربط تجارة اليمن جنوب الجزيرة العربية بالبتراء شمال الجزيرة العربية من أهم الطرق التجارية في العالم القديم , كما كانت البتراء تشرف على موانئ تجارية مهمة منها

الميناء الأول: ميناء غزة[17] وهو من أهم الموانئ النبطية, حيث أنه يربط الجزيرة العربية وبلاد الشام (العرب), وبلاد الروم (الغرب), فهو يوجد على ساحل البحر الأبيض المتوسط في فلسطين, وأهمية هذا الميناء يظهر في أنه النقطة الأخيرة للقوافل التجارية الآتية من جنوب جزيرة العرب, فكانت تتوقف هذه القوافل قبل الوصول للميناء في البتراء ومن ثم تنطلق من البتراء إلى ميناء غزة عن طريق منطقة النقب النبطية في الشمال وعسقلان على حوض البحر المتوسط حتى تصل إلى الأسواق المصرية أو الأسواق الأوروبية, لذلك يعد هذا الميناء مركزاً مهماً لتبادل السلع الآتية من الغرب الأوروبي إلى بلاد العرب أو العكس .

الميناء الثاني : ميناء لويكي كومي[18] .

وهذا الميناء يقع على البحر الأحمر (الأرتيري) ويعد من أهم موانئها, ومن المراكز التجارية المهمة والمشهورة في مملكة الأنباط, أنشأه الأنباط أثناء صراعهم مع البطالمة سنة 24ق.م وهذا الميناء ممتد به طريق إلى البتراء يستقبل المركب التجارية الصغيرة من الجزيرة العربية, ووضع الأنباط قوات مسلحة؛ لحفظ الأمن وجمع الضرائب على السلع بنسبة معينة.

الميناء الثالث: ميناء إيلة[19]

وهذا الميناء كان حلقة تجارية مرتبط مع ميناء لوكي كومي في خليج ايلة –العقبة- على البحر الأحمر, فكان ميناء إيلة مركز تجاري مهم لدى مملكة الأنباط حيث تتجمع فيها تجارتهم من البتراء إلى موانئ جنوب الجزيرة العربية, والبضائع الآتية من الهند والصين ومن أفريقيا, فكانت تأتي هذه البضائع من الجنوب وتتجه

إلى البتراء وتحط رحال بضائعها.

كما كان الأنباط يعقدون الاتفاقيات مع التجار في الهند وتبادل السلع العربية والهندية, بإمداد البتراء بالتوابل والبهارات عن طريق سواحل عمان في جنوب الجزيرة العربية . وكانت هذه الطرق التجارية التي تمر بها القوافل طرق ساعدت على نقل الثقافات المختلفة والتبادل التجاري.[20] وكانت البتراء تسيطر على طرق تجارية اخرى كالطريق المؤدي بصرى[21] ودمشق في الشمال والى الخليج العربي مرورا بالصحراء, وكانت تستبدل فيها جمال القوافل بجمال اخرى سليمة ليسهل مسير القوافل, ومن أبرز معالم هذه المدينة الشامخة, السيق في مدخل مدينة البتراء , وخزانة فرعون المنحوت في صخرة البتراء والمسرح العظيم .[22]

وقد نجح الأنباط في تجارة البر والبحر ويتمثل في ذلك في قرصنة تجارة الروم والبطالمة عندما استولوا على مناطق للأنباط .[23]

2-أم الجمال (المدينة السمراء)

وتقع هذه المدينة جنوب دمشق وشرق بلدة المفرق اثنى عشر كيلو متر, وعلى الطريق المؤدي إلى بغداد, وهي على أرض صحراوية منبسطة, ويرجع مسماه بأم الجمال إلى موقعها في منطقة ذات ساحات مفتوحة تلتقي فيها قوافل الجمال, أما بالنسبة لمسماها بالسمراء فهو بناء المدينة من الحجر الناري الأسود وحجرها البركاني من أبواب وسقوف, لذلك تبدو في لونها الأسمر([24]). وكانت هذه المدينة ذو مكانة تجارية لدى الأنباط لموقعها الاستراتيجي وتوفر المياه من أمطار الشتاء في برك كل منزل في بئر, فكان لا يخلو منزل من هذه البرك؛ وهذا أكثر ما تحتاجه القوافل لسير قوافلهم, وكانت ممر للقوافل التجارية المتجهة إلى بُصرى ودمشق , وازدهرت هذه المدينة في منتصف القرن الأول قبل الميلاد حتى بعد سقوط المملكة النبطية, فهي محطة للقوافل التجارية من دمشق إلى الجزيرة العربية, أيضاً كانت مصدر للثروات الحيوانية إلى الجنوب العربي, ويوجد في المدينة مخازن تجارية منها مخزن للحبوب ويتمثل ذلك في بناء ألواح كبيرة تشبه الأبواب من الحجارة البازلتية واستخدامها مباني للطواحين, لذلك نشطت التجارة وتطورت في تلك المنطقة, وكانت المدينة محاطة بالأسوار محصنة وبداخلها منازل الأنباط وآبارهم.([25]).

3-الحميمة([26]) (الحوراء) :

وتقع على جنوب الأردن على طريق البخور التجاري القديم, والبتراء عاصمة الأنباط شرقها, وتعرف هذه المدينة عند النبط بالحوراء وكان يرجع اسمها (أوارا) إلى وحي إله النبط لهم بتسميتها بهذا الاسم, وكانت محطة للقوافل التجارية بين البتراء وإيلة, وتكمن أهميتها التجارية في كونها على طريق البخور القديم القادم من اليمن إلى البتراء ومن ثم إلى غزة ومنها إلى البحر المتوسط, وتجمع كميات كبيرة من مياه السيول في صحراءها القاحلة, ووجود قنوات مائية وخزانات تتبع نظام ري متكامل أُنشئ في القرن الأول قبل الميلاد, وكانت هذه المياه تلبي حاجات القوافل التجارية.[27]

مدن دينية:

1-الحِجر (مدائن صالح)[28]وهي من أهم المدن النبطية وقد احتلت مكانة عالية عند الأنباط خاصة في نهاية القرن الأول قبل الميلاد, وقد احتلت هذه المدينة مكانة دينية لدى العرب حتى قبل الأنباط كقوم ثمود الذين ورد ذكرهم وذكر الحجر في القرآن الكريم, وهي على مقربة من العلا[29] تبعد عنها 15 كيلو متر,

واشتهرت هذه المدينة في عصر الأنباط , وكانت ذا مكانة دينية مقدسة لدى الأنباط ويدل ذلك الآثار من معابد ومقابر اشتهرت بها الحِجر, فقد ابتنى الأنباط معابد ومقابر ضخمة ومرتفعة تشبه بناء القصور, وكانت تشيد على الجبال والأماكن المرتفعة وتنحت على الصخور منها مقابر الأسود هي مقابر نبطية مزينة بنحت لأسود في أعلاها وبها و21 مقبرة , ايضا هناك مقابر المنطقة كذلك المعابد ومن اشهر تلك المعابد معبد الديوان الذي نحت على الصخور على جبل أثلب وهو معبد نبطي معروف باسم معبد شعيب ويحتوي على مقابر داخله, أما معبد قصر البنت الذي يعد من أكثر المعابد أهمية فهو معبد لإله الأنباط ذو شرى, وأكثر المعابد جمالاً وعده البعض قصراً فقد كان مرفق بالحمامات والساحات ومذبح وغرف وغرفة مركزية لإلههم ذي شرى وخصص تلك المعابد للعبادة والطقوس الدينية, كما كانت كذلك القبور تملئ المدينة بها في كل بقعة مما يدل على مكانة الحِجر الدينية وقداستها لدى الأنباط, وكانت توجد وظيفة دينية تسمى (م س ر) أي قارئ أو كاهن أو سادن المعبد, وكانت على آلهتهم ذي شرى نقوش دينية .[30]وقد ذكر استرابو[31] مدينة الحجر كمدينة للنبط, حين ذكر حملة جاليوس على جنوب بلاد العرب وأنه سار في صحراء ليس بها غير القليل من العيون عند محلة آجر(حِجر), التي تقع قريباً من البحر في أرض عبادة ملك النبطيين, وقد امتلكها الأنباط في المنتصف الأول قبل الميلاد .[32]

2- عبدة

ومدينة عبدة احدى مدن صحراء النقب[33]) التي تقع على الطريق التجاري المهم بين البتراء وغزة في الشمال الغربي من مملكة الأنباط,[34]) وهذه المدينة كانت لها مكانة دينية لدى الأنباط وملوك الأنباط, ويرجع بناء هذه المدينة وتسميتها لملك الأنباط عبادة الثالث عام (9-28 ق.م), فقد كان الملك عبادة يختلي في هذه المدينة للراحة والعبادة بعيداً عن ضجيج البتراء ومشاكلها, وقد آله الملك عبادة بعد موته كما هي عادة الأنباط في تأليه ملوكهم بعد موتهم, حيث وجدت الكثير من التماثيل للملك عبادة وزوجته وعليها كتابة آثرية تدعو بالألوهية للملك عبادة,[35] كما وجدت الكثير من المعابد الدينية في هذه المدينة منها معبد عبده [36])

3- خلصة .

والخلصة مدينة رئيسية من مدن النقب وهي ملاصقة لمدينة عبودة في الجنوب, وبنيت في القرن الأول قبل الميلاد, ويعود تسمية هذه المدينة إلى الآلهة النبطية العزى أو الخلصة, وقد عرفت هذه الآلهة عند العرب كثيراً فكانت من الآلهة التي يعبدون مع ذو شرى, وتعتبر هذه المدينة مدينة دينية خالصة, كثيرة المعابد, وقد سكنها الأنباط في القرن الأول قبل الميلاد ودل على ذلك النقوش التي وجدت في مدينة الخلصة أرخت فيها حكم الملك النبطي الحارث الثالث([37])

4- وادي رم .

وهو وادي ومدينة يقع في جنوب البتراء ومن أكبر أودية الأنباط وتميزت هذه المدينة بكثرة المعابد الدينية, وكان به أشهر المعالم والمعابد كأعمدة الحكمة السبعة حيث كان هناك معبد لآلهة الأنباط «أترعتا» الذي بني في عهد حارثة الرابع قبل الميلاد وبقي منه بقايا آثرية, وقد ازدهرت المدينة في القرن الأول قبل الميلاد([38]).

المبحث الثاني: اهتمام ملوك الأنباط في المدن:

-**حارثه الثالث (62-86 ق.م)** وهو أكثر ملوك الأنباط الذين اعتنوا بالعمران، والملك الخامس من ملوك الأنباط والابن الثالث من أبناء الملك حارثه الثاني الذين تولوا الحكم بعد أخوته عبادة الأول ورب إيل الأول, وقد اعتلى عرش مملكة الأنباط وكانت في أوج قوتها بعد انتصارات اخوته خاصة رب إيل الأول, فبدء حارثه الثالث بالتوسع في مملكته وضم عدد من المدن, فبدء بالاستيلاء على مدينة دمشق بعد أن طلب أهالي دمشق من الملك الحارث أن يكونوا تابعين له كما أسلفنا ذكره من قبل,[39] وهذا الملك من أوائل ملوك الأنباط الذين اهتموا بالمدن والتحضر، ويظهر ذلك الاهتمام عندما ضم دمشق وسك مجموعة من المسكوكات باسمه وصورته وعليها شعار «محب اليونان»؛ تخليداً لحكمه في دمشق، وكانت تصدر تلك العملة كل سنة حتى انتزعت من أيديهم عام 70ق.م .[40].واعتنى ايضا بالبتراء عاصمة مملكة الأنباط فأدخل فن الحضارة اليونانية الهلنسنتية في عمران المدينة, وجاء بأفضل صناع سوريا (دمشق) وجعلهم يبنون العاصمة البتراء على النموذج اليوناني, بإدخال نماذج يونانية في بناء الخزنة وعدد من الأبنية والشوارع الرئيسية والمداخل الرئيسية وأصبحت البتراء تأخذ شكل المدينة اليونانية الجميلة,[41] كذلك بنى المسرح العظيم الذي يعد أجمل عمران البتراء وأحد عجائب الدنيا السبعة, كما وبنى المباني النبطية الخالصة منها معبد إلههم ذي شرى ودل على ذلك النقش الذي وجد بإسمه (الحارث) على المعبد .[42]

قام كذلك الملك الحارث الثالث ببناء مدينة أم الجمال (المدينة السمراء) من الحجر الأسود البازلتي, وجعلها مرفأ للقوافل التجارية وأحاطها بأسوار حصينة وأبواب شرقيها وجنوبيها وأبراج دفاعية، فأصبحت مدينة ذات مكانة تجارية هامة لتجارة الأنباط المتجه إلى دمشق وبصرى .[43] وإلى جانب البتراء بنى الملك حارث مدينة حوراء (المدينة البيضاء) أو كما يقال لها قديماً (أورارا) بوحي من الآلهة وأنشأ نظام ري متكامل في المدينة وبنى بها معبداً لعبادة الإله القوس يعرف بمعبد خربة التنور [44].

الملك حارثة الرابع 9 ق.م – 40 م:

وهو آخر حكام الأنباط الأقوياء اعتلى العرش من قبل الأنباط, بعد الفراغ السياسي الذي احدثه موت عبادة الثالث, وحارثه الرابع ملك لا ينتمي للأسرة الملكية النبطية بل كان قائد عسكري في الجيش النبطي, عرف بلقب «محب شعبه» – رح م ع م ه[45],[46] وقد تميز الملك حارثه الرابع باهتمامه الشديد بالمدن حتى يعد عهده من أزهى عصور الأنباط وأكثرها رخاء، فقد نقل المدن البسيطة النائية إلى مدن عظيمة ذات معالم شاهقه خاصة في جنوب مملكة الأنباط,[47] فنرى اهتمامه بمنطقة الحِجر واتخذها قاعدة عسكرية لبلاده بعيداً عن تسلط الرومان وعمل على تنشيط المنطقة بالبنيان والعمران والتجارة والدين, فبنى بها الكثير من المعابد والقبور التي اتخذت في عمرانها عمران القصور كمعبد الديوان ومقبرة قصر البنت وهي من أشهر معالم مدينة الحِجر, فأصبحت مدينة تملك مكانة دينية هامة لدى الأنباط, كما اتخذت مكانة البتراء بعمرانها واهميتها حيث جعلها الملك حارثة الرابع طريق لتجارته إلى بُصرى حتى لا يمر بالمناطق التي بها تجارة الرومان وسفنها حتى باتت سيدة المدن النبطية، أيضا اهتم بالمدن الاخرى في الجنوب فوفر بها كل الأسباب التي تجعل من هذه المدن مدن تجارية نشطة ومصدر دخل دون اللجوء للتجارة الخارجية كالعلا, لكن اهتمامه بالحِجر والمناطق في الجنوب لم يجعله يهمل العاصمة البتراء,[48] وأولى الملك حارثه الرابع

اهتمامه لمدينة البتراء حيث تأثر في بناءها بالحضارة الرومانية,[49]وبنى في هذه المدينة أبرز معلمين فيها وإحدى عجائب الدنيا الآسرة بجمالها وفنها العمراني التي باتت معالمها إلى يومنا هذا, احدهما معلم الطيطر الذي بنى كمعبد ديني منحوتاً في الصخر الذي يوضح لنا الديانة التي عليها الأنباط والآلهة التي يعبدونها, أما المعلم الثاني قصر البنت بناه في وسط البتراء يزينها بجماله وروعته وعليه نقش يشير على أنه بُني في عهد حارثة الرابع,[50] وجعلها مدينة رئيسية للتجارة وسوقاً لتجار العالم بتوفير الصناعات المتعددة المتنوعة وجعلها منطقة تجمع مختلف الآلهة والغنى والرفاهية فأصبحت مدينة الأغنياء وطبقات النبلاء والتجار وملتقى لمختلف الحضارات والأجناس, حيث كثر فيها الأجانب أكثر من الأنباط وكان يعم المدينة السلام والأمن تميزت بمداخلها العجيبة والغريبة , التي لا مثيل لها في العالم عرفت بمسمى السيق, وأكثر فيها من بناء المعابد الضخمة والهتها المتعددة, كما بنى فيها المسرح العظيم الذي يعد أعجوبة في البناء كان يقيم فيها المراسم الملكية والاحتفالات الكبرى في المملكة, كما زود أسواقها بكل أنواع البضائع التي يحتاجونها ويحتاجها القادمين إلى مملكتهم،[51] حتى وصل عدد سكان البتراء في عهد الحارثة الرابع أكثر من 25 ألف نسمة؛ بسبب مركزها التجاري والديني.[52]

كما اهتم بالمدن وادي رم فبنى فيها عدد من المعابد الدينية التي تعكس لنا الحضارة النبطية, كما اعتنى بشده بالمدن الواقعة في منطقة النقب بجنوب فلسطين المتمثلة بمدينة عبدة التي اعتنى بمعابدها ومراكزها المدنية بشكل عام حتى ازدهرت في عهده ازدهاراً كبيراً, فقد بنى الكثير من المباني من الرخام المتقنة البناء كما بنى بها أفران لصناعة الفخار ووجدت نقوش محفورة بإسم الملك حارثة الرابع على تلك المباني وقد توقف ازدهار المدينة بوفاة الملك حارثة الرابع عام 40م واهتمامه ذلك؛ بسبب أن عبدة تقع في منطقة حدودية على طريق التجارة إيله وغزة,[53] ووجدت الكثير من المعابد والمراكز الدينية والمقابر والقصور في شتى مدن الأنباط تعود إلى عهد الملك حارثة الرابع, كذلك اهتم بمدينة دمشق التي كانت تحت سيطرته في العشر السنوات الأخيرة وعين عليها أفضل رجاله لحماية المدينة .[54]

وكان الملك حارثة الرابع من شدة حبه واهتمامه بالمدن، يخلد عمران المدن بسك النقود كل مدينة لها نقدها الخاص باسمها, نرى ذلك النقد الذي أصدره لمدينة الحِجر وعليه صورته ونقش باسم مدينة (الحِجر), ايضاً أصدر عدد من النقود لكلاً من مدينة عبدة وسبيطة وعوجا الحفير التي وجدت في منطقة النقب.[55]

الخاتمة:

ومن أبرز ما خلصت إليه من نتائج في هذا البحث:

لقد ساهم موقع مدن الأنباط الاستراتيجي بوقوعها على طرق التجارة العالمية في تطور وتمدن المدن النبطية. كما تميزت مدن الأنباط عن غيرها من المدن؛ بسبب الرخاء الذي كان يسود المملكة في أن كل مدينة لها وظيفتها، فنجد هناك مدن اتخذت طابع سياسي ومدن ذات طابع ديني وأخرى تجارية. وعرف الأنباط كما هي عادة العرب بتقديسهم لديانتهم ومعبوداتهم, مما جعل الملوك يتفننون ويبدعون في بناء معابد

ومقابر تشبه القصور في جمالها. وقد اشتهرت مدن الأنباط بمبانيها الشامخة المنحوتة في الصخور والجبال من قصور ومقابر ومساكن ودور عبادة, وهو ما يظهر لنا براعة الأنباط وحسهم الفني الجمالي. مدى تأثر ملوك الأنباط بالحضارات العالمية اليونانية والرومانية في عمارة مدنهم ومبانيهم وامتزاجه بالفن العربي، مما أدى إلى إبراز فن حضاري راقي.

الهوامش:

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان, ج2، ط1، دار صادر, بيروت, 1397هـ/1977م, ص463 .

(2) اليطوريين : هم عرب كانوا يحكمون منطقة لبنان الشرقية وملكهم بطليموس بن معن .

(3) احسان عباس: تاريخ دولة الأنباط، ط1، دار الشروق, عمّان-الأردن, 1987م, ص42 .

(4) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قيل الإسلام,ج3, ط2، جامعة بغداد, بغداد, 1413هـ/1993م, ص44.

(5) مارغريت مري: البتراء (سلع), ترجمة: دينا الملاح, مراجعة: أحمد إيبش, دار الكتب الوطنية, أبو ظبي, 2012م, ص149

(6) عبد العزيز الصالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة, مكتبة الانجلو المصرية, القاهرة, 2010م, ص147 .

(7) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام, مطبعة الهلال, نمرة-مصر, 1923م, ص-75 76 .

(8) محمد بن بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ,دار المعرفة الجامعية ,الاسكندرية ,1976م ,ص522-521 .

(9) استرابو : استرابون والجزيرة العربية, إشراف وتحرير :عبدالله بن عبدالجبار, ترجمة : السيد جاد, تعليق: مسفر الختعمي, دارة الملك عبدالعزيز, الرياض, 1439هـ/2017م, ص123 .

(10) برت هيلند : تاريخ العرب من العصر البرونزي إلى صدر الاسلام, ترجمة : عدنان حسن ، ط2,شركة قدمس ,بيروت , 2010م، ص101-100

(11) زيدون حمد المحيسن : الحضارة النبطية, مؤسسة حمادة, اربد –الأردن, 2004م, ص106 - 109 .

(12) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, ج3, ص18.

(13) السيق البارد: هي ضاحية نبطية تقع بالقرب من وادي البيضا، تتمتع بأهمية تجارية كبيرة لدى الأنباط حيث تربط مرتفعات البتراء بمنطقة البحر الأحمر وغزة ومصر كلها بسواحل البحر المتوسط. خزعل الماجدي: الأنباط التاريخ، المثولوجيا، ط1، الفنون، دار النايا -المحاكاة، دمشق، 1433هـ/2012م، ص104-103.

(14) قار: مادة سوداء كالغراء تستخرج من البحار(البحر الميت)تستخدم في طلاء السفن والتحنيط كمادة عازلة .

(15) البلسم: نبات ينمو في أودية الأردن وكان طيب الرائحة يستخدم في علاج الأمراض وكان نادر الوجود قديماً .

(16) احسان عباس: تاريخ دولة الأنباط, ص108 .

(17) غزة : هي مدينة اقصى لبشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان مسافة فرسخ أو أقل, وهي من نواحي فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان, ج4, ص202 .

(18) لوكي كومي: المدينة البيضاء المفقودة على البحر الأحمر قرب الوجه. فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين, دار الثقافة, بيروت, ترجمة : جورج حداد وعبدالكريم رفيق, 1951م, ص426 .

(19) إيلة : مدينة صغيرة على ساحل بحرالقلزم مما يلي الشام وهي بنهاية الشام وبداية الحجاز . ياقوت الحموي : معجم البلدان, ج1, ص229.

(20) خالد الحموري : مملكة الأنباط دراسة في الأحوال الاجتماعية والاقتصادية, بيت الأنباط, البتراء-الأردن, 2002,ص122-119.

(21) بصرى : مدينة تقع في جنوب سوريا شرق حوران, وبلغت أهمية لدى الانباط في القرن الأول الميلادي كطريق للتجارة في جنوب الجزيرة العربية, ومكانة دينية خاصة في عهد الولاية الرومانية عام 106م

.22 - فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين, ص418. انظر : محمد مهران, دراسات في تاريخ العرب القديم, ص523 .

(22) عبدالعزيز صالح: تاريخ شبة الجزيرة العربية في عصورها القديمة, ص146.

(23) خزعل الماجدي: الأنباط التاريخ.المثولوجيا.الفنون, ص96 .

(24) عزام أبو الحمام: الأنباط تاريخ وحضارة، ط1، دار أسامة, عمّان, 2008م, ص81 .

(25) الحميمة: بلد من أرض الشراة من أعمال عمّان في أطراف الشام . الحموي: معجم البلدان, ج2, ص307.

(26) خزعل الماجدي : الأنباط التاريخ.المثولوجيا.الفنون, ص102, 103 .

(27) اسم لديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام, وهي قرية صغيرة قليلة السكان وهي من وادي القرى على يوم بين جبال. ياقوت الحموي : معجم البلدان, ج2, ص221 .

(28) العلا : تعرف قديماً –ددن- كما ذكرت في التوراة, تقع في وادي القرى من شمال غرب الجزيرة العربية ووقعت تحت سيطرة الأنباط في اخر عهد الملك حارثه الرابع . عبدالرحمن الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية ص77 .

(29) عبدالرحمن الطيب الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية, دارة الملك عبد العزيز, الرياض, 1395هـ/1975م, ص79. للاستزادة انظر حلمي بن محروس : الشرق العربي القديم وحضارته بلاد مابين النهرين والشام و,ص255 .

(30) استرابو: هو مؤرخ معاصر وجغرافي يوناني قديم ظهر في نهاية القرن الأول قبل الميلاد, واشتهر بكتابه الجغرافيا, وأوائل الذين كتبوا عن العرب . عبدالله بن عبد الجبار : استرابون والجزيرة العربية, ص-23 25.

(31) الويس موسل: شمال الحجاز, ترجمة : عبدالمحسن الحسيني, مؤسسة الثقافة الجامعية, الإسكندرية, 1952م, ص106, 118.

(32) 33 - لنقب: موضع بينه وبين بيت المقدس مسيرة يوم للفارس من جهة البرية. الحموي : معجم البلدان, ج5, ص298 .

(33) محمد فاضل أمين الخطاطبة: عمارة الأنباط السكنية, ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية, الرياض, 1427هـ, ص176 .

(34) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين, ص423 . انظر عزام أبو الحمام : الأنباط تاريخ وحضارة, ص96 .

(35) خزعل الماجدي: الأنباط التاريخ.المثولوجيا.الفنون, ص144 .

(36) زيدون المحيسن : الحضارة النبطية, ص220-219 .

(37) عزام أبو الحمام : الأنباط تاريخ وحضارة, ص79 .

(38) سليمان بن عبدالرحمن الذيب : التاريخ السياسي للأنباط, سلسلة كتب الآثار, الرياض, 1432هـ, ص32.
(39) احسان عباس : تاريخ دولة الأنباط, ص44 .
(40) توفيق برو : تاريخ العرب القديم, ط2، دار الفكر, دمشق, 1996م, ص108. للاستزادة انظر : أ. هـ.م.جونز : مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية, ترجمة: احسان عباس,ط1، دار الشروق, عمّان,1987م, ص118.
(41) محمد مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم, ص513 .
(42) خزعل الماجدي : الأنباط التاريخ.المثولوجيا.الفنون, ص97 .
(43) زياد مهدي السلامين: المدن والقرى النبطية المتنازع عليها بين الأنباط والمكابيين, المجلة الأردنية للتاريخ والآثار, م11, ع1, 2017م, ص63 .
(44) ورحم أي بمعنى «محب»، سليمان الذيب : المعجم النبطي – دراسة مقارنة للمفردات والألفاظ النبطية, ط1, مكتبة الملك فهد الوطنية, الرياض, 1421هـ/2000م, ص242 .
(45) سليمان الذيب : التاريخ السياسي للأنباط, ص45 .
(46) خزعل الماجدي : الأنباط التاريخ.المثولوجيا.الفنون, ص138.
(47) زيدون المحيسن : الحضارة النبطية, ص237-235 . انظر: احسان عباس: تاريخ دولة الأنباط, ص60 .
(48) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين, ص422 .
(49) احسان عباس: تاريخ دولة الأنباط, ص61 .
(50) يوسف غزال: الملك الحارث الرابع والملكة شفيقة, دار عالم الثقافة, عمّان, 2008, ص-2 4 .
(51) خزعل الماجدي: الأنباط التاريخ. المثولوجيا. الفنون, ص88 .
(52) زيدون المحيسن : الحضارة النبطية, ص219 . انظر فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين, ص420 .
(53) جواد العلي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, ص42 . واخرون حلمي محروس : الشرق العربي القديم وحضارته, ص263 .
(54) زيدون المحيسن : الحضارة النبطية, ص221-220 .

المصادر والمراجع:

أولاً: مصادر عربية:

(1) احسان عباس: تاريخ دولة الأنباط، ط1، دار الشروق، عمّان-الأردن، 1987م.

(2) توفيق برو: تاريخ العرب القديم، ط2، دار الفكر، دمشق، 1996م.

(3) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، مطبعة الهلال، نمرة-مصر، 1923م.

(4) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قيل الإسلام، جزء، ط2، جامعة بغداد، بغداد، 1413هـ/ 1993م.

(5) حلمي بن محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضارته بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م .

(6) خالد الحموري: مملكة الأنباط دراسة في الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، بيت الأنباط، البتراء-الأردن، 2002م.

(7) خزعل الماجدي: الأنباط التاريخ.المثولوجيا.الفنون، ط1، دار النايا-المحاكاة، دمشق،1433هـ/2012م.

(8) زيدون حمد المحيسن: الحضارة النبطية، مؤسسة حمادة، اربد –الأردن، 2004م.

(9) سليمان بن عبدالرحمن الذيب: التاريخ السياسي للأنباط، سلسلة كتب الآثار، الرياض، 1432هـ

(10) سليمان بن عبدالرحمن الذيب: المعجم النبطي – دراسة مقارنة للمفردات والألفاظ النبطية، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1421هـ/2000م.

(11) عبدالرحمن الطيب الأنصاري: لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1395هـ/1975م .

(12) عبد العزيز الصالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 2010 م.

(13) عزام أبو الحمام المطور: الأنباط تاريخ وحضارة، ط1، دار أسامة، عمّان، 2008م.

(14) محمد بن بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1976م .

(15) محمد فاضل أمين الخطاطبة: عمارة الأنباط السكنية، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1427هـ

(16) ياقوت الحموي: معجم البلدان خمسة أجزاء، ط2، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م.

(17) يوسف غزال: الملك الحارث الرابع والملكة شفيقة، دار عالم الثقافة، عمّان، 2008 م.

ثانيا: المراجع الأجنبية المترجمة:

(1) استرابو: استرابون والجزيرة العربية، إشراف وتحرير: عبدالله بن عبدالجبار، ترجمة : السيد جاد، تعليق: مسفر الختعمي، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض, 1439هـ/2017م .

(2) أ.هـ.م.جونز: مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة: احسان عباس، ط1، دار الشروق، عمّان,1987م.

(3) الويس موسل: شمال الحجاز، ترجمة: عبد المحسن الحسيني، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1952م.

(4) ربرت هيلند: تاريخ العرب من العصر البرونزي إلى صدر الاسلام، ترجمة: عدنان حسن، ط1، شركة قدمس ، بيروت، 2010م.

(5) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: جورج حداد وعبدالكريم رفيق، دار الثقافة، بيروت، 1951م .

(6) مارغريت مري: البتراء (سلع)، ترجمة: دينا الملاح، مراجعة: أحمد إيبش، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2012م .

ثالثاً: الدوريات:

· زياد مهدي السلامين، المدن والقرى النبطية المتنازع عليها بين الأنباط والمكابيين، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، م11، ع1، 2017م.

الرعايا الأجانب ودورهم في توسع النفوذ البريطاني في غرب الخليج العربي (1255 - 1334هـ/1840 - 1916م)

أ.نورة بنت إبراهيم نامي النامي
باحثة دكتوراه في التاريخ الحديث - جامعة أم القرى
المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تُعد منطقة الخليج العربي واحدة من أهم المناطق الاستراتيجية في العالم، وأدّت دورا كبيرا في تشكيل تاريخه، وقد تجلت أهميتها عبر العصور المختلفة؛ نظرا إلى موقعها الجغرافي المتميز الذي يتوسط بين الشرق والغرب، حيث ازدهرت الملاحة بين موانئ الخليج العربي وموانئ المحيط الهندي. ولقد شكلت منطقة الخليج العربي موقعا متميزا في إستراتيجيات الدول الكبرى_(البرتغال-إنجلترا-هولندا- فرنسا-روسيا- ألمانيا)_ ومحط التقاء القوافل التجارية البرية والبحرية منذ القدم، كما أن ارتباطه بالمحيط الهندي الذي يتوسط النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، وما يؤدي إليه من ممرات مائية عالمية، ضاعف من أهميته، فهو معبر تجاري ومركز للتجارة. ونظرًا إلى أهمية وغنى موارد الساحل الغربي (منطقة الدراسة) الذي يمتد من الكويت شمالًا حتى عمان جنوبًا متمثلة في التالي: (الكويت، القطيف، البحرين، الأحساء، قطر، الإمارات، عمان)؛ شهدت المنطقة ضغوط قوى عالمية ذات أطماع جلية فيها، كان لبريطانيا الدور البارز والسيطرة العظمى خاصة في القرن الثالث عشر الهجري /التاسع عشر الميلادي ؛ فقد تنوعت أساليبها في الهيمنة فنجدها تارة بالمعاهدات الإلزامية المغلفة بطابع الحماية ، وتارة بامتيازات تجارية ، وتارة أخرى بحماية رعاياها بالمنطقة .وكل ذلك وغيره يستشف الخطط المدروسة التي نسجت خيوطها بالسيطرة على المنطقة بشكل او بأخر. اعتمدت الدراسة على منهج البحث التاريخي- التحليلي ؛ الذي يعتمد على استقصاء ما يتعلق بالناحية التجارية في تلك الحقبة الزمنية عن طريق جمع المادة العلمية ثم تحليلها؛ للتأكد من صحتها، ولا يكتفي بسرد الحقائق التاريخية، بل يسعى الى تحليل الأسباب وتعليلها والتي ساهمت في وجود التدخلات والرعايا الأجانب بمنطقة الدراسة ، ومدى الأثر والتأثر الذي حل بعد ذلك، وارتباطها بالقوى المحلية .

الكلمات المفتاحية: الرعايا ، الهنود ، النفوذ البريطاني ،الخليج العربي.

Foreign subjects and their role in British Sovereignty extension at the west of Arab Gulf (1255- 1334AH/1840-1916 AD)

A.Noura Ibrahim Nami Alnami

Abstract:

The Arab Gulf Region is one of the most strategic areas in the world and has played a vital role in constituting its history. Its importance has been evident throughout different eras due to its special geographic location between the east and west Navigation has flourished between Arab Gulf ports and Indian Ocean Ports. The Arab Gulf Re-

gion has been a special location in the strategies of Major Powers (Portugal; England; Netherlands; France; Russia and Germany) and the global water channels leading to it which doubled it importance as it is a trade passage and a trade center. Due to the importance and richness of west coast resources (the region of this study) which extends from Quwait in the North to Oman in the South representing the below: (Quwait، Qatif، Bahrain، Al Ahsa، Qatar، Emirates and Oman)، The region has witnessed pressures by world powers having clear occupation desire. Britain had a significant role and upper control especially in the thirteenth Hijri century/ nineteenth Gregorian century as its ways of control have diversified. One time by obligatory conventions with protective nature and another time by trade privileges and third time by protecting its subjects in the region. All of this and others reveal its examined plots to control the region in a way or another. This study depends on historic analytical research approach which focuses on investigating what is related to trade aspects at such era through gathering scientific material then analyzing it to verify its authenticity. It does not only narrate historic facts but it also endeavors to analyze and explain reasons that Contributed to presence of foreign interventions and subjects at the region of this study and the extent of effect and being affected which took place afterwards and its connection with local forces.
Key words: Subjects، Indians، British control and Arab Gulf.

المقدمة:

ان للخليج العربيّ أهمية قصوى من الناحية التجارية، وخصوصًا الدوليَّة والإقليميَّة، والتي برزت أهميتها بشكل كبير في العَلاقات الدوليَّة خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، التاسع عشر والعشرين الميلاديين، ومن ناحية أخرى فإن الخليج العربيّ يمتلك ثروات كبيرة في مياهه؛ مثل الأسماك واللؤلؤ والصدف، كما يتميَّز بوجود موانئ تجارية هامة على شواطئه، أصبحت ذات أهمية إستراتيجيَّة دوليَّة، فضلًا عن وجود مواد معدنية كالحديد، والذهب، والقصدير، والنحاس، والكبريت، والفحم الحجريّ[1].

ان قيام المراكز التجارية والملاحية الكبرى على شواطئ الخليج العربيّ؛ قاد المنطقة إلى الازدهار التجاري؛ فالازدهار الاقتصاديّ بشكلٍ عامٍّ لكافَّة دول الخليج العربيّ ، بما فيها دول ساحله الغربي ،وزاد من أهميته تعدُّد خلجانه وجُزُره الصالحة للملاحة وقيام الموانئ.

هذه المميزات وجهت أطماع الدول الأوروبية ليكون لها مؤطأ قدم بالمنطقة، وكما ذكرنا سابقًا عن التفوق البريطاني بالمنطقة ، فقد أَوْلَتْ بريطانيا منطقة الخليج العربي اهتمامًا بالغًا لتحقيق دوافعها الاقتصاديَّة والسياسيَّة، فضلا عن موقع الخليج العربي الإستراتيجيّ من ناحية الملاحة البحرية ، فأهمية ذلك

الموقع وتسهيله لنقل التجارة من الشرق إلى أوروبا جعله على رأس أولوياتها [2]. وأصبحت هي القوة المهيمنة في الخليج على مدار مايقارب من مائة وخمسين عاما من عام 1235ه/ 1820م وحتى انسحابها عام 1390ه/ 1971م،وكانت تهدف لتطوير مصالحها الاقتصادية بشتى الطرق والوسائل،وبدأت سياستها واطماعها تتبلور بشكل كبير في الخليج خاصة بعد توسيع نطاق ممتلكاتها الاستعمارية في الهند. بالمعاهدات والاحتكارات وتدخل رعاياها بالمنطقة والتي تعطيها صلاحيات قانونية بذلك والتي تغلفت بالطابع التجاري غالبا .

وقد سجل التاريخ قدم الصلات التجارية بين بلاد السند وبلاد الرافدين عن طريق الخليج العربي ([3]) وخليج عمان، ويؤكد علماء الآثار على وجود علاقات قديمة بين الهند والخليج ترجع الى العصر البرونزي(2000-3000 ق.م).

كما شهدت جزيرة العرب تردد العديد من الشعوب إليها، كالروم والفرس والهنود ،ولعل الأوضاع في شبه القارة الهندية كالصراعات السياسية والنزاعات الدينية كانت عاملًا لا يستهان به للفرار منها إلى منطقة تميزت بالتسامح وحرية العقائد ،فضلًا عن الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم _كحرق موتاهم ،وارتداء أزياء العرب دون تميز خاصة بسلطنة مسقط([4]).

وتميز العرب بإكرام الضيف وحسن الوفادة ،ولذا نال التجار الهنود القدامى من العرب نظرة تقدير واحترام. وتاجروا الهنود بسلعهم وبضائعهم عبر بعض السفن العربية ،وفضل بعضهم الاستقرار في بلاد العرب، وقد اطلق سكان الجزيرة العرب العديد من الأسماء عليهم كالزط([5])،والأساورة ،والسيابجة ،والأحامرة، والميد ([6])،والبياسرة ،والتكاكرة .ومارسوا العديد من المهن ،وسلك بعضهم سلك البداوة الرحل([7]).

وقد وفد الهنود «البانيان»([8])مع البرتغاليون الى مسقط ؛لظروف دولتهم السياسية والاقتصادية ،والأزمات التي صاحبتها ، وعملوا كتجار صغار وموزعين بين المدن والقرى وكانوا يأتون دون اصطحاب عوائلهم غالبًا([9]). وساندوا سلطنة مسقط([10]) في طرد البرتغاليين من عمان ،ومع حلول القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي ألف الهنود جالية تجارية ناجحة فيها ،وقد أثرت التطورات السياسية في الخليج على تزايد حجم الوجود الهندي به. وهكذا ارتبط سكان الخليج والهنود قبل فرض البريطانين لسيطرتهم، ولقد شكل البحر المصدر الرئيسي لرزق سكان الخليج ،وعندما نافستهم شركة الهند الشرقية([11]) ،وحاولت حكومة بومباي ضرب النشاط التجاري العربي خاصة عندما قوي نفوذ القواسم([12]) بالدولة السعودية،فقدكانوا يتصدون للمنافسة الأجنبية بضرب السفن التي ترفع العلم البريطاني وكان من تلك السفن المتصدره سفن الهنود([13]). ومن الملاحظ ان حجم الوجود الهندي إزداد بشكل أكبر على السواحل العربية للخليج ، في ظل الحماية والنفوذ البريطاني ،وعظمت كثافتهم في المناطق التي وصل إليها ذلك النفوذ مبكرًا كعمان وإمارات الساحل المتصالح ([14])والبحرين عنها في قطر والكويت ([15])والأحساء([16]) مثلًا. واتخذت بريطانيا من الرعايا الهنود والبريطانيين ذريعة للتدخُّل في دول غرب الخليج العربي. وساعد على زيادة حجم ذلك الوجود اضطراب الأوضاع الأقتصادية والاجتماعية بسبب ذلك النفوذ المتسلط([17]). وعُدت عمان أولى إمارات الخليج العربي التي توافدوا اليها بأعداد كبيرة ،ونجحوا في تكوين جالية تجارية في مسقط،خاصة البانيان ،وقد تركزوا في مسقط ومطرح فضلا عن صحار والسويق ،ونعموا في السكن بحي حول مقر القنصلية البريطانية بمسقط([18]). وقدر عددهم في تلك المدينة 1256ه/1840م، 2000 شخص([19]). وتأثر عرب عمان

والبحرين خصيصًا بهم،فكانت لهم دور الوساطة بينهم وبين عموم العرب،فضلا عن الاندماج الحضاري والتعايش بينهم ، فقد تأثرت لغتهم العربية ببعض المصطلحات واللكنات([20]);ولذا انتشرت كلمات هندية عند أهل الخليج خاصة البحرين ،كالدانة Danna وتعني اللؤلؤةالكبيرة الغالية،والبوكا Buuka اللؤلؤة الصغيرة الرخيصة،وجيوان Jiwanاللؤلؤة المستديرة البيضاء .والتاوه ،وهي أنية لعمل الخبز ،وسامان أي أثاث ،وتجوري وتعني صندوق مصنوع بالخشب والحديد ([21]).

وقد آلف العرب التعامل التجاري مع الهنود،وممكن تقسيم التجار الهنود إلى فئتين :

1-البانيان أي الهندوس

2- الخوجه([22]) المسلمون([23]).

وتحججت بريطانيا باضطهاد رعاياها لزيادة تدخلها في المنطقة التي تطمع بزيادة نفوذها بها، ففي عام 1254ه/ 1839 م ،تم عقد اتفاقية تجارية بين سلطان مسقط وبريطانيا ،على أساس معاملتها الدولة الأكثر ذات الأفضلية والأكثر رعايا ،ونصت على السماح بشراء او بيع او ايجار الأراضي في مسقط من قبل الرعايا البريطانيين ، والتعهد بحماية أولئك الرعايا الموجودين فيها وحصانتهم ،وتم إعادة تلك الشروط في معاهدة بين الطرفين السابقين في عام 1308ه/ 1891م ، وكذلك في الهدنة البحرية التي تم توقيعها عام 1258ه/ 1843م ،لمدة عشر سنوات بين بريطانيا والساحل المتصالح؛ حيث كان منع رعايا بريطانيا من صيد اللؤلؤ على ضفاف المياه احد اسبابها ؛ نتيجة للخلافات القائمة بين الجهتين ؛ولذلك ألغت هذه الهدنة حق الزعماء في شن حرب معلن عنها ،والتي تضمنتها معاهدة عام1235ه/ 1820م ([24]).وقد عارضت بريطانيا حاكم البحرين عام 1274ه/ 1858م عندما منع ابحار سفن الهنود للقطيف([25]) ،وفرض عليهم اتاوات([26]) عام1275ه/ 1859،والتي انتهت بمصادرة احدى السفن الشراعية التابعة له وكانت مسلحة بعشرة مدافع كبيرة ،ورفض اعادتها له قبل الزامه بدفع تعويضات مالية عن الخسائر التي الحقت بالتجار الهنود([27]). ولم يحض جميع الهنود بالخليج بإمتيازات وحقوق وحماية بريطانية ،فلم تعترف بريطانيا ولم تقبل انضمام المسلمين الهنود كرعايا بريطانيون ،بل اقتصر ذلك على الهندوس الذين قدموا إلى الخليج في ظل الوجود الفعلي البريطاني في منطقة الدراسة([28]). ويتضح ذلك من رفض المقيم السياسي الاعتراف برعاية فاضل ميران عام1291ه/ 1875م،وكان من الهنود المسلمين (الخوجه)وعدت اسرته من الأسر العريقة المتواجدة في مسقط،عندما قدم إليه من أجل رغبته بالاستفادة من الامتيازات التي منحتها بريطانيا للهندوس (البانيان) وتمتعهم بحمايتها. ونتيجة لتلك الامتيازات شهدت المنطقة زيادة كبيرة في توافد الهندوس والقيام بأعمال مختلفة كالقيام بدور الوكلاء([29])التجاريين للشركات الأوروبية،والبريطانية خاصة،وتصريف السلع،كما امتهن منهم مهنة التجارة في مختلف مناطق الخليج من مسقط جنوبا إلى الكويت شمالا ،بل رجح البعض على أنهم قبضوا على مفاتيح التجارة الداخلية في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشرالميلادي .ومارس بعضهم دور الرأسماليين في إمارات الخليج ،واقراض صيادي اللؤلؤ.وقد تمتع الهنود المسلمون من الخوجة في عمان بمنحهم الجنسية العمانية، وانحصرت مهمة الأغلبية في جمع وتوزيع البلح وهذا مايبرهن تواجدهم بكثرة في مطرح لكونها أكبر موانىء التوزيع لتجارة عمان الداخلية. في حين تمتع البانيان وعدد من الخوجه بالحماية البريطانية مما أدى إلى إيجاد تنافس بين الطرفين([30]). وفي معاهدة 1277ه/ 1861م بين حاكم البحرين

(الشيخ محمد ال خليفه) ([31])(1258-1284)، (1843-1868م) والكابتن (جون فيلكس) Jones Felix ([32]) المقيم السياسي في الخليج،أعطت الرعايا البريطانيين العديد من المميزات في البحرين كالاستقرار ،وحرية التجارية كأداء الرسوم مرة واحدة، وأن يعاملون كرعايا الدول الأكثر رعاية[33].

كما حاول التجار الهنود المقيمين في البحرين تعزيز مركزهم في ميناء القطيف، فقد سعى جانجارام تيكام داس و شركاءه،وهو أحد كبار التجار الهنود بالبحرين دور كبير في تحسين حال الجالية ،حيث أقاموا وكالة تكون مسؤوله عن تجارة الهنود في القطيف ،ثم ألحقت بوكالة أخرى([34]).

كما سعوا الى تعيين وكيل قنصلي بريطاني بالقطيف ،وجددوا طلبهم في إيجاد حامية قنصلية في الاحساء ،وإقامة رصيف داخل البحر لميناء المنامة مقابل دفع مبلغ مالي الا أن طلباتهم لم تلق قبولا([35]). وفي عام 1321ه/1904م، قدموا التجار الهنود المتمتعين بالجنسية البريطانية بالبحرين الى اللورد كيرزون([36])بتعين ممثل بريطاني يخدم مصالهم بالقطيف ؛نتيجة لمضايقة موظفي الجمارك الاتراك ، وأن يعين الوكيل السياسي في البحرين نائبا للقنصل في الأحساء ، فضلا عن تعين وكيل قنصلي محلي في القطيف ، الا ان السفير البريطاني في اسطنبول عارض ذلك خشية من موقف الدولة العثمانية نظير هذا الإجراء ويتبين من مجريات الأحداث تسوية هذا الأمر مع الأمير السعودي لاحقا بمايرضي الطرفين ([37]). وفي الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي ،تمتعوا الرعايا البريطانيون بأهمية كبيرة على الساحل العماني،خاصة كونهم دائنين لصناعة اللؤلؤ ،أدى ذلك إلى عقد الاتفاقية المتبادلة بين شيوخ عمان المتصالحة في 24 يونية عام 1296ه/ 1879م،وتم توقيعها من قبل مشايخ الشارقة ودبي وأبو ظبي ورأس الخيمة وأم القوين وعجمان من أجل حماية الرعايا الهنود في عُمان وبقية أنحاء الخليج العربي ، وألزمت مشيخات الساحل العماني والخليج العربي بحماية الرعايا البريطانيين، ورغم تلك الحماية البريطانية للرعايا والتجار الهنود إلا أنَّ الأمرَ لم يخل من توترات كثيرة بينهم وبين أهالي المنطقة الخليجية وحكامها، وقد حدَث ذلك في عُمان والبحرين وقطر، وفي بقية مشيخات الساحل العماني[38].

كما بلغت بهم الحصانة والحماية بمنع دور الهنود ومحالهم ومخازنهم من دخول رجال السلطان دون موافقة القنصل البريطاني مهما كانت أهمية الأسباب التي تدعو السلطات العمانية من دخولها([39]). وهكذا يتَّضِح أن الرعايا البريطانيين والهنود والجاليات الأوروبية بمختلف فروعها، كانت إحدى الذرائع التي تمكنت بريطانيا من خلالها من تسريع سيطرتها ومد نفوذها إلى دول غرب الخليج العربي؛ بحجة الدفاع عنهم. وبلغت تلك الحماية لمصالح الهنود ذروتها في معاهدة 19 مارس عام 1308ه/ 1891م ،تحت اسم «معاهدة الصداقة والملاحة والتجارة»بين بريطانيا ومسقط،وتضمنت العناصر اللازمة لحماية الرعايا الهنود في بقية أنحاء الخليج خاصة عمان.كما منحت المعاهدة العديد من الامتيازات للرعايا البريطانيون ،سواء في التجارة والملاحة وتملك الأراضي والمنازل والممتلكات ،وقيدت السلطان بعدم فرض رسوم تتجاوز 5 %من قيمة البضائع والسلع على الواردات. ومنذ عام (1318-1292ه)/(1901-1876م)أي مايقارب من ربع قرن زاد عدد الهنود في الساحل المتصالح فزاد عدد البانيان من 59 شخص إلى 183، أي ثلاثة أضعاف تقريبًا ،وفي عام 1322ه/ 1905 كان عدد الخوجة 158 في الشارقة ،و33 برأس الخيمة ،و23 بدبي،فتزايد عددهم من 16 إلى 214 خلال الأعوام التالية(1322-1292ه/ 1905-1876)أي مايقارب 14 ضعف ([40]).

كل ذلك خير شاهد على استقرار أوضاعهم في الخليج بل وحجم الامتيازات التي مُنحت لهم ،فضلا

عن الأرباح التي جنوها. وقد بلغ عدد الهندوس عام 1322ه/ 1905 م بالبحرين حوالي 69 والخوجة 122،باستثناء الحرس الهندي لدار الإعتماد البريطاني([41]).

أما قطر فلقد كان الوجود الهندي بها يتميز بعدم الاستقرار ؛وربما يعود لمنافسة البانيان لحكام البلاد كالشيخ جاسم آل ثاني[42] (1331-1242ه/ 1913-1827م)في تجارة اللؤلؤ دور كبير في ذلك؛فضلا أن نظام الهدنة مع بريطانيا كان عام 1284ه/ 1868م،وقبل ذلك كان العثمانيين حلفاء لآل ثاني ضد أطماع السعوديين وآل خليفة ، ولقد وقف الشيخ جاسم بن محمد موقف معاديا حازما ضد التجار الهنود ،وطردهم من الدوحة ،خاصة بكونه احد تجار اللؤلؤ البارزين ومنافسين له في تجارة بلده([43])؛ ولذا عبر الهنود في البدع عن رغبتهم في مغادرة البلدة عام 1291ه/1875م نتيجة المضايقات التي تعرضوا لها، إلا أن الشيخ محمد بن ثاني حاكم قطر دافع عن نفسه أمام الوكيل السياسي ردًّا على اتهام الهنود له بإساءة معاملتهم([44]).

أما الكويت فلقد اتبعت سياسة تقييد هجرة الهنود إليها حتى اكتشاف البترول([45]) . وقد احتكر الهنود التجارة المحلية في الخليج منذ الستينات من القرن الثالث عشر الهجري،التاسع عشر الميلادي؛لخبرتهم في مجال التجارة والمرونة التي تمتعوا به؛،فضلًا على اتصال تجارة الخليج بدولتهم التي كانت غنية الموارد،والتسهيلات التي تمتعوا بها،مما عاد عليهم بالنفع في تكوين جالية تجارية ناجحة وذات مصالح تجارية كبيرة في منطقة الدراسة،خاصة بمسقط([46]). وكانوا يبتدئون برؤوس أموال صغيرة ،ويعملون بأعمال التي ينظر إليها بإزدراء،وقد فضلت الشركات التجارية الأوروبية التعامل عن طريق التجار الهنود المقيمين بالخليج،لوجود «نظام الوكلاء الإداريين»،والذي عمل به الهنود بعد الإنتهاء من احتكار شركة الهند الشرقية للتجارة الخارجية فضلا على تفضيلهم بأن يكون شريكهم تاجر هندي يستفيدون بمشورته وخبرته بالتقاليد والأوضاع المحلية بالخليج،وحل مشاكلها في غيابهم ،وقد كان بعض التجار الهنود من أغنى تجار مسقط،وأهم بيوتهم أسرة بهيماني ،وراتانس بورشوتام،ودوالات جيرجي وغيرها،وهناك بعض البانيان الذين أسسوا أعمال تجارية ناجحة وازدهرت تجارتهم في مسقط ،مثل كمجي رامداس،ودايال بور شوتام ورانجي موراجي([47]). وقد شكل التاجر الهندي عنصرًا أساسيا في تجارة العبيد ،لتمويلهم سماسرة ([48])العبيد،وكانت ذات طابع اقتصادي ،ويتم نقلهم من ميناء مسقط وصور إلى موانىء السند مثل كتش([49]) وكاثياوار وبومباي بواسطة السفن الخليجية والهندية([50]).ونتيجة لأهمية الدور الاقتصادي الذي يقوم به الهنود ،وخشية العرب من فرط العقوبات البريطانية ان تعرضوا اليهم لكونهم بحماية تلك الجالية، مهما بلغ التذمر من بعض تصرفاتهم فانها لاتصل الى درجة الاضرار بمصالح الهنود مثل التبرم الذي حدث في عهد حاكم الشارقة الشيخ صقر بن خالد 1332-1300ه/ 1914-1883م الذي اهمل مطالب الهنود كلما تقدموا بها ([51]). وقد تأثر مدى عمق وجودهم وسيطرتهم في الخليج ،بوجود السلطات الحاكمة ،فقد وصلوا الى مكانة اقتصادية مرضية في عمان في ظل سيادة السيد سعيد ([52])(1272-1220ه) ،(1856-1806م)،ويدل على ذلك حجم نشاطهم في مسقط، والامتيازات التي منحت لهم، مما دفع بالسيد سعيد الاعتماد عليهم في اعمال الإدارة ومرافقتهم له في شرق افريقيا .وعلى النقيض مثلا عندما عبروا عن ضيقهم في التعامل مع الشيخ زايد بن خليفة (1326-1271ه)،(-1855 1909م)([53])وشكوا من اهماله لحقوقهم رغم كونهم رعايا بريطانيين، وكذلك في دبي في ظل حكم الشيخ راشد بن مكتوم (1311-1303ه)، (1894-1886م)فكثرة شكاياتهم الى السلطات البريطانية ،أدى الى فرض غرامة

باهضة عليه([54]). وهكذا نجد ان سياسه حكام الخليج معهم اختلفت من إمارة لاخرى ومن حاكم الى اخر في الولاية ذاتها . ولقد استخدمت السلطات البريطانية أساليب شتى لحماية رعاياها الهنود، كالضغوط السياسية وإرهاب السلطات المحلية والسكان بالأسطول البريطاني او زيارة نائب الملك في الهند وهكذا([55]). وسعت بريطانيا الى وقاية رعاياها من الاضطرابات السياسية في منطقة الخليج ،حتى وان اضر بمصلحة حكامه المحليين او سكانه([56]). وكانت تؤيد أي حاكم يساهم في تسهيل مهمة التاجر الهندي([57])،كما عمدت بريطانيا ترشيح الهنود في الوظائف الكبرى بالدوائر الحكومية ،والشؤون المالية والجمارك والحرس ،لإحكام قبضتها على مقاليد الأمور ، فقد شكلوا عينا لها، وبإمكانها الاطلاع على دقائق الأمور فيما يخص الحكام المحليين وولاياتهم .كما كانت مهمة الاسطول الهندي حماية المصالح البريطانية وترسيخ نفوذها في منطقة الدراسة. وقد سعت بريطانيا من تحفيزها لزيادة الوجود الهندي في الخليج لإنشاء مستعمرة بريطانية ([58]). وعمل التجار الهنود المقيمين ،ذو الحماية البريطانية ،الذين يتمتعون بامتيازات كبيرة بدور الوسيط التجاري بين تجار الخليج العربي وبين المستهلك الغربي، خاصة في المدن الأساسية مثل باريس ،ولندن ،ونيويورك ،خاصة في تجارة اللؤلؤ فقد كانوا هم الوكلاء الأساسيين لتلك السلعة ،ويتم بيعه بأسعار مرتفعة جدا ، فضلا عن كونهم ممولون ، فكانوا يمرون على مغاصات اللؤلؤ ويشترونه كالطواشة([59])المحليين. واستمرت المعاملة الجيدة بين العرب والهنود ،وقد تأثرت تلك العلاقة عندما زاد نشاط تهريب الذهب إلى الهند ،بعدة طرق متقنة سواء بإخفائها في التمور المصدرة أو كحلي تتحلى بها الهنديات لتسهيل مروره عبر الجمارك ،خاصة الجالية الهندية المسلمة في دبي والشارقة([60]).

هكذا يتبين الدور البارز للرعايا الأجانب في كونهم احد منافذ التدخل الأجنبي في المنطقة ، والذي أثمر بنتائج جديرة بالاهتمام لدولتهم صاحبة النفوذ والرعاية ، وان كانت الصلات بين القطرين (الخليج العربي(ساحله الغربي) خاصة –والهند)ذات جذور متأصلة عبر التاريخ الا ان حدتها ورسوخها اتضح بشكل كبير بعد الرعاية البريطانية لهم ؛نظير الامتيازات الممنوحة .

مما سبق تبين:

- أهمية منطقة الخليج العربي، خاصة غربها، من الناحية الاستراتيجية والخيرات المتنوعة في فترة الدارسة.
- انعكاس أهمية المنطقة في زيادة الأطماع الأجنبية ، لاسيما بريطانيا لكونها الدولة ذات النفوذ البارز في الخليج وقتئذ حتى ان الخليج عرف بكونه بحيرة بريطانية .
- الطرق المختلفة التي سعت بريطانيا سلكها ؛ ضمانا لنفوذها في المنطقة بالمعاهدات والاحتكارات وكان لضمان سلامة رعايا أثر قوي وقانوني أتاح لها مشروعية زيادة التدخل
- دور الرعايا الأجانب _الهنود_، ووظائفهم ، والامتيازات التي تمتعوا بها في إمارات الساحل الغربي للخليج العربي ، فقد تبين اتساع حجم الامتيازات في مسقط خاصة والبحرين أكثر من بقية الأمارات الأخرى .

- الاندماج الحضاري الذي فرضته طبيعة العلاقة التجارية بين الوطنيين والرعايا الأجانب واتضاح

ذلك في الجانب اللغوي مثلا فضلا عن جوانب حضارية أخرى كالملبس وغيرها.

- تباين موقف القوى المحلية _الوطنية_ اتجاه الرعايا وادراك بعضهم لخطر المنافسة خاصة بتجارة اللؤلؤ التي هي أساس الدخل الوطني في تلك الحقبة الزمنية وقبل اكتشاف اللؤلؤ الصناعي والنفط.

الهوامش:

(1) عبدالله :علي عبد الحسين. أمن الخليج العربي في ظل المتغيرات الإقليمية والدولية ،(دمشق : دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، ، 2011م) ط1 ، ص 40، 41.

(2) الجوهري:يسرى.دول الخليج والمشرق الإسلامي، (القاهرة:مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، 1999م) ص 34-53.

(3) استخدم هذا الاسم_الحليج العربي_ لكثرة الدول العربية المطلة علية ابتداء من جنوب العراق في راس الخليج الى سلطنة عمان ، وعرف بالفارسي نسبة الى التسمية التي اطلقها الاسكندر المقدوني في حروبه ضد الإمبراطورية الفارسية عام 325 ق. م. الحموي : شهاب الدين أبوعبدالله ،معجم البلدان ،تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي ،(بيروت : دار الكتب العلمية ، 1990م) ج3 ،ص 71-68.

(4) المسسري :حسين . تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق والخليج العربي ، (بيروت: د.ن، 1982 م) ص 46

(5) لمزيد من التفاصيل حول موقعة انظر: شاكر : محمود. موسوعة تاريخ الخليج العربي ، (عمّان: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2005م) ص 6.

(6) القاسمي: نورة محمد .الوجود الهندي في الخليج العربي 1947-1820م،(الشارقة:دائرة الثقافة والاعلام، 2007م) ط3،ص 17، 32، 39.

(7) الزط: بضم الزاي وتشديد الطاء ، هم طائفة من الهنود ، وقيل بانهم اهم الشعوب في البنجاب ووادي السند، كما ارجع البعض ان الكلمة تعريب من الفارسية جت Jat او Jets حيث هاجروا اليها ،وغلبت عليهم القرصنة وقطع الطرق، لهم صفات جسمانية تميزهم واشتهروا بصناعة الثياب.

(8) إسماعيل أكبر: فايزة .الزط وموقعهم في التاريخ الإسلامي ، العصور ، مجلة علمية نصف سنوية ، محكمة، تعني بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية،(الرياض: دار المريخ للنشر ،رجب 1413هـ/ يناير 1993م)مج8 ، ص 130-128.

(9) الميد: طائفه من الهنود سكنت من حدود الملتان الى البحر، لهم مراع كثيره، يرى البعض بان طائفه منهم كانوا لصوصا وقطاع طرق، سكنوا صحراء كتش (كجه).

(10) إسماعيل أكبر:مرجع سابق، مجلة العصور، مج 8، ص128.

(11) القاسمي:الوجود الهندي في الخليج العربي، ص 33.

(12) البانيان: تطلق على التجار الهنود تميزا لهم عن الطوائف الهندية الأخرى ، وهم ذو بشرة سمراء اعتادوا على لبس العمائم البيضاء ، لهم نشاط تجاري في معظم مدن وبلدان الخليج ، امتازوا بمهارتهم التجارية ودقة حساباتهم ،القاسمي ، القاسمي : المرجع السابق ،ص 59، 60.

(13) الابراهيم: يعقوب يوسف.محنة الجامعة بين الترضية والتربية قسم التاريخ نموذجاًنقد كتاب اليهود في الخليج، (الكويت: منشورات ذات السلاسل ، 2015م)ص 263، .264

(14) الطاهر :ليلى عبدالله أحمد . الغوص وتجارة اللؤلؤ في الخليج العربي 1364-1235ه/1945-1820م، رسالة دكتوراه غير منشورة ،(الرياض:1441هـ/2019م)هامش ص19

(15) البسام: علي حسين عبدالله،الأوضاع السياسية والاقتصادية في سلطنة مسقط وأثرها على الملاحة والتجارة في عهد السلطان تركي بن سعيد وابنه فيصل 1873 -1914م،(بيروت:الدار العربية للموسوعات، 1439هـ/2009م)ط1 ،ص56.

(16) مسقط: عاصمة سلطنة عمان ، وتقع على ساحلها الجنوبي ، وسط كتله من الصخور البركانية حيث تمتد 10 أميال على طول الساحل من دار سيت إلى بندر جصة ، وتقع المدينة في قاع خليج صغير ، وبداخلها تلال وعرة على جانبي الوادي. ويحدها وادي سمائل من الغرب ووادي الطائيين من الجنوب ، اما البحر فيحدها من الشرق والشمال، يبلغ عمق خليجها نحو ثلاث ارباع الميل ، واتساع يقدر نحو نصف ميل.

(17) معجم البلدان والقبائل في شبه الجزرة العربية والعراق وجنوبي الأردن وسيناء ، ترجمة وعلق عليه:الوليعي ،عبدالله بن ناصر، (الرياض:دارة الملك عبدالعزيز ، 1435هـ) مج 9،ص 339، 340، 350. للمزيد .انظر:ص 359-339

(18) تأسست شركة الهند الشرقية في لندن في 3/3/1008ه-22/9/1599م،تحت اتحاد التجار المغامرين للتجارة مع الشرق، وصادقَت عليها ملكة بريطانيا رسميًّا، وفي نهاية عام 1009ه/1600م أصدرت الملكة مرسومًا ملكيًّا يَسمَح للشركة بحق اختيار التجارة مع الهند، وقد منحَها المرسومُ الملكي حقَّ الاتجار مع آسيا وإفريقيا وجُزُر هذه المناطق وموانيها ومدنها على أن يكون ذلك لحساب الشركة وبأموالها، ثم دخلت الشركة في صدام مع البرتغاليين في جزيرة هرمز، ثم حصلت الشركة على بندر عباس الواقعة قبالة جزيرة هرمز، ثم حصلت مومباي التي أصبحت مركزًا رئيسيًّا من مراكز شركة الهند الثلاث الرئيسيَّة (كلكتا-مدارس-بومباي) و أسَّست الشركة لها وكالات رسمية في الخليج، الأولى كانت في البصرة والأخرى في بوشهر في عام (1795م)، وظلت الشركة تُحقِّق تقدُّمًا كبيرًا في ساحل غرب الخليج العربي حتى عام 1255ه/1840م. الصايغ:فاطمة .الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، (العين:دار الكتاب الجامعي، 2000م) ص 188.

(19) يرجع اصل القواسم الى العرب العدنانيون بإتفاق أهل الانساب ، ويرى البعض ان تسميتهم بالقواسم نسبة الى القاسم بن سُعوة الذي أرسله الحجاج بن يوسف الثقفي على رأس جيش الى عمان لمحاربة سليمان الجلندي الذي عزم على الانشقاق عن دولة الخلافة الأموية، والذي مات قبل الوصول الى مقصده فأرسل الحجاج أخيه مجاعة بن سُعوة لأداء تلك المهمة ، ويقال ان الشيخ رحمه بن مطر بن كايد هو مؤسس إمارة القواسم على الساحل الشمالي أثر ضعف دولة اليعاربة وانحلالها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي ،الذين حكموا عمان ، فاتخذ من رأس الخيمة (جلفار) عاصمة للقواسم في ذلك التاريخ ، وامتد نفوذهم على خورفكان والشارقة وكلبا _التي تتاخم الحدود البوسعيدية فضلا عن بعض الجزر كجزيرة ابوموسى وطنب الكبرى والصغرى، و...وغيرها من المدن والجزر والمواقع ، وقد حرص الانجليز على القضاء على تلك الدولة الفتية بدافع القرصنة كما ادعوا ، وامتنعت سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية عن دفع الرسوم لهم أثر مرورها في مياه الخليج، وأخافت قوتهم البحرية السلطات الإنجليزية ففي1219هـ/ أوائل عام 1805م استنجد حاكم بومباي الإنجليزي بحكومته عندما هاجمت قوات القواسم احدى السفن الإنجليزية موضحا خطورة القواسم

بتتبع السفن الأوروبية ليس في الموانىء والسواحل والمياه الخليجية فحسب بل حتى وصولهم الى شواطئ الهند أحيانا ، وبلغت قوتهم ذروتها في أواسط القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر الهجري /أواسط الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر الميلادي ،وقدر احد ضباط الاسطول الهندي البريطاني عدد مراكبهم بثلاث وستين سفينة كبيرة الحجم وثمانمائة وثلاث عشرة من الحجم الصغير، وخاضوا بشجاعة معارك عدة مع البريطانيون ، الذين احرقوا رأس الخيمة بنيران المدافع ، وادعوا حفظ الأمن في المياة الخليجية فعقدت العديد من المعاهدات ، وفتت إماراته فاطلقت عليها بإمارات الساحل المهادن او المتصالحة ، وخاضت بريطانيا معارك عنيفة ضدهم وارسلت حملات للقضاء عليهم،و في شهر ديسمبر من سنة1233هـ/ ١٨١٨م، وصل القبطان فرانسيس إرسكاين لوك إلى الخليج ليشغل منصب الضابط البحري الأول فتغيرت سياسة بريطانيا اتجاه الخليج حينها. ونتيجة لماقام به من تتبع لسفن القواسم والسيطرة على الغنائم وأسر من فيها ، تلقى حينها رسالةً من الشيخ حسن بن رحمة القاسمي_حاكم رأس الخيمة_الذي اقترح هدنةً يتعهد القواسم بموجبها بتوفير الأمان للسفن البريطانية والسواحل المتصلة بالأقاليم البريطانية في الهند. إلا أن لوك رفض هذا العرض، وقد تمكنت حملة 1234هـ/ 1819م بقيادة السير ويليام جرانت كير واضطروا القواسم لعقد معاهدة، كانت هذه المعاهدة لقمع القرصنة، وتأسيس خطٍ تجاريٍ بين موانىء الخليج والهند ، واستمر لوك في ملاحقتهم وحلفائهم في مناطق أخرى من الخليج، وشن هجماتٍ على سفنِهم، و نجحت الحملة في فرض نظامٍ جديدٍ في الخليج تحت الوصاية البريطانية، الذي ظل قائمًا لمائةٍ وخمسين سنةٍ بعدها. وفي عام1235هـ/ 1820 م اضطر الشيخ سلطان بن صقر الأول الى اتخاذ الشارقة عاصمة له ،والذي عُد من أكبر شيوخ القواسم، وانحصرت أملاك القواسم على أجزاء في الساحل العماني .

(20) السيابي :سالم حمود.إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ،مراجعة أحمد التدمري، نسخة رقمية 1976،

(21) ص 19، 30 ، 37- 39 ، 41 ، 45-47

(22) ودبريج :ديفيد، فرانسيس لوك والحملة البريطانية للقضاء على «القرصنة» في الخليج، مكتبة قطر الرقمية، 28 يوليو2021.

(23) https://www.qdl.qa

(24) القاسمي:الوجود الهندي في الخليج العربي،ص 36، 37، 234.

(25) اطلق على الساحل، بالساحل المتصالح Trucial Coast نظير إقتراح قدمه الكابتن بريو F.Bprideaux أحد ضباط البحرية البريطانية ، نتيجة عقد بريطانيا اتفاقية السلام البحري الدائمة عام1269ه/ 1853م، مع شيوخ الساحل المتصالح ، وهذه التسمية ظلت شائعة في الوثائق البريطانية والمحافل الدولية حتى قيام دولة الامارات العربية المتحدة في14 شوال 1391ه، 2 ديسمبر 1971م.

(26) وتمتد عمان المتصالحة كوحدة جغرافية متكاملة من حدود سلطنة عمان في الشرق الى قطر وصحراء الجافورة في الغرب ، وتتبع المنطقة لشيوخ عجمان وابوظبي وام القوين ودبي والشارقة ، فضلا عن أراضي القبائل التابعة لهم وهي التي انتظمت مشكلة دولة الامارات العربية المتحدة عام1391هـ/ 1971م ، وأصبحت عضوا بمجلس التعاون ، ويطلق على الجزء الملاصق لابوظبي شرقي الجزيرة العربية

الممتد شمالا باسم عمان الشمالية ؛ حيث تمثل الجزء الأقصى لشمالي عمان ، كما عرف عن أهالي سلطنة عمان باسم الشمال ، الا ان التسمية الشائعة لذلك القطر هي « ساحل عمان»وهو الذي اطلقت على جزء منه الكتابات الإنجليزية بساحل « القرصنة « The Pirate Coast «. كما تم تسميت هذا الساحل « بعمان المتصالحة» Trucial Oman ؛ لإلتزامها بمعاهدات مع الحكومة البريطانية وقتئذ. وهي التي تمتد من خور كلبا حتى دبا في خليج عمان ، ومن شعم حتى خور العديد في الخليج العربي . وتتألف من حزام بحري وجزر وسهول داخلية وسلاسل جبلية ويحاذي الساحل عدد من الشعب المرجانية .

(27) الوليعي:معجم البلدان ، مج7، ص 308-306.

(28) تصغير لكوت أي الحصن الصغير ، وتعرف سابقا باسم القرين نسبة الى جزيرة القرين الواقعه بالقرب من الكويت غربا ، وتبعد تقريبا 80 ميلا جنوب البصرة مع الميل قليلا الى الشرق، والى الشمال الغربي من بو شهر نحو 180 ميلا ، والى شمال –شمال غرب البحرين بنحو 280 ميلا ، وتقع على الشاطئ الجنوبي لخليج الكويت ويمثل خليجها خورا كبيرا يمتد من الزاواية الشمالية الغربية للخليج العربي ، ويضم جزيرة فيلكة ، كما تحتوي على دوحة كاظمة وتقع في اقصى الغرب بين رأس عشيرج ورأس كاظمة ، حيث تؤلف اكبر تجويف في الخليج كله ، وتقع الجهرة عند طرفه الغربي وتشتهر بصيد اللؤلؤ وصناعة السفن.

(29) الوليعي: مرجع سابق،مج9،ص 368، 369

(30) اطلق لفظ (الأحساء)قديمًا على هجر والبحرين، ويحدُّها من الشمال القطيفُ وصحراءُ أبو الحمام، ومن الجنوب صحراء الجافورة ورمال يبرين، وصحراء الربع الخالي، ومن الغرب الصمان وهضبة الفروق والدهناء، ومن الشرق رمال العقير وسبخة الصفراء ومن ورائها شاطئ الخليج العربي، ثم اطلق لفظ(الأحساء) على جزءمن المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، على الساحل الغربي للخليج العربي، ابتداءً من حدود الكويت شمالًا، وحتى حدود أبو ظبي وقطر وعمان وصحراء الجافورة جنوبًا. تشتهر بعدة مميزات منها وفرة مياهها وينابيعها التي أخذت منها التسمية فالحساء كما قيل في اللغة جمع حسي ، وهو موضع رمل تحته صلابة التي تحفظ ماء المطر وتخزنه بجوفها . ولمزيد من التفاصيل انظر:نخلة:محمد عرابي.تاريخ الاحساء السياسي (1913-1818)،(د.م:ذات السلاسل، د.ت)ص6

(31) قمر:محمود . دور البحرين في الملاحة والتجارة البحرية: من صدر الإسلام إلى سقوط الخلافة العباسية،(د.م: د.ن،د.ت) ص 39، 40.

(32) القاسمي:المرجع السابق، ص 64.

(33) لاندن: روبرت جيران. عمان منذ 1856مسيرا ومصيرا. ترجمة محمد أمين عبدالله، (عمان:وزارة التراث والثقافة،1437ه/2016م)،ط6، ص144، 150، 151، 154

(34) البسام:الأوضاع السياسية والاقتصادية في سلطنة مسقط ،ص 56.

(35) القاسمي:الوجود الهندي في الخليج العربي ،ص 34.

(36) مطر:عبدالعزيز .خصائص اللهجة الكويتية ،(د.م:د.ن،د.ت)، ص 336

(37) القاسمي:الوجود الهندي في الخليج العربي ،ص 207-205.

(38) قيل بان هذا الاسم مشتق من كلمة « لوت» ؛ وهو اسم هندي لوعاء الماء ، وقيل شيئا اخر ، وتتركز هذه الطائفة في الخليج العربي بسلطنة عمان ، خاصة في مطرح ، كما يعيش عدد كبير من افرادها في المدن الساحلية بعمان وإيران، ويقطنون في قلعة مسورة على ساحل البحر في مدينة مطرح ، وقد اتخذوا ذلك لضمان عزلتهم وأمانهم ، وقد تمتعوا بالحماية البريطانية ؛ فهم رعايا بريطانيون، ويتاجرون بالبهارات والاقمشة ، كما يعمل كبار تجارهم باستيراد الأرز من كلكتا والاقمشة والزيوت والأدوية من بومباي ، ويصدرون التمور رطبة وجافة فضلا عن السمك المجفف الى الهند ويمتلك البعض الأراضي هناك .وترجع أصول معظمهم الى السند او الى كاشي.

(39) الوليعي:معجم البلدان، مج3،ص 269، .270

(40) القاسمي:الوجود الهندي في الخليج العربي ،ص 36 للمزيد الاطلاع على ص 56-54

(41) وثيقة انجليزية 3907،دارة الملك عبدالعزيز

(42) القطيف:المكان الرئيس والمدينة الكبيرة في واحة القطيف على الساحل الشرقي لشبة الجزيرة العربية ، على بعد 230 ميلا جنوب شرق-جنوب مدينة الكويت ، وعلى بعد 36 ميلا تقريبا شمال غرب جزيرة البحرين ، وعلى بعد 64 ميلا شمال غرب العقير وتقع على شاطئ خور يمتد من راس تنورة الى الدمام ، ينسب لها أحيانا ، وتقع جزيرة تاروت شرق-الشمال الشرقي من المدينة ، ويحتوي شاطئها على العديد من الشعب المرجانية وهو غير صالح لرسو القوارب التي يربو غاطسها على 6 أقدام ، كما تحتوي على قلعة تعرف بالكوت أحيانا ، وتحاط بسور له أبراج يبلغ ارتفاعه 30 قدما ، وكانت القلعه مقر للحامية العثمانية ، وتشتهر بصيد اللؤلؤ وزراعة التمور .

(43) الوليعي:معجم البلدان ، مج 8،ص403، 404

(44) إتاوة: مصدر (أَتَا) وجمعها (إتاوات وأتاوى)وتأتي بمعنى الجزية أو الضريبة التي تعطى دليل للطاعة والخضوع أو ثمن للأمن.معجم المعاني الجامع . جامع اللغة العربية المعاصر، معجم الرائد.

(45) كيلي: جون.ب. بريطانيا والخليج 1795: 1870،ترجمة محمد أمين عبدالله (سلطنة عمان : وزارة التراث القومي والثقافة ،د.ت) ج2، ص 196، 197 .

(46) القاسمي:الوجود الهندي في الخليج العربي ، ص 49

(47) الوكالةُ جمعها: وكائل أو وكالات، وجاءتْ مِن وكيل الرجل الذي يتولى أمره، ووصفها المَقْريزيّ قائلًا: إن الوكالة بمعنى الفنادق والخانات، وهي مرادفة للقيسارية، وتعني: المأوى للتجار والمسافرين وقوافلهم، وتُعدُّ مخزنًا آمنًا لبضائعهم، ومكانًا لعقد الصفقات، فهي بمثابة مؤسسة تجارية كبيرة خاصَّة بالسلع، يتم البيع فيها بالجملة والتجزئة، وربما نُسِبَتْ لمالكها.ابن منظور: ج11، مج6، «مادة وكيل»، ص4910. المقريزي: الخطط، ج 2،ص 93. والخان لفظة فارسية والبعض يرى انها لفظة تركية، وتعني غالبًا (الحانوت) أو الدكان ومنزل القوم، وأطلقها البعض على الأمير أو لقب به سلاطين تركستان، وهي اختصار لكلمة خاقانا وقاعان أي السلطان الأعظم، كما أطلقها البعض على محطات القوافل التجارية دائرة المعارف الإسلامية (مادة خانة)،ص 25، 26. القياسر: مشتق من اسم قيصر أو قيصرية، ويقصد

به «السوق الصغير»، وهو بناء مستطيل أو مربع الشكل يتوسَّطه فناء وتصطف حوانيت على جانبه يتراوح عددها ما بين 40-30 حانوتًا، وربما تتعدد المداخل للقيسارية حسب موقعها، وتزود بأحواض للوضوء والاغتسال، وتغلق عادة بالليل، ويتولى حراستها حارس أو اثنان؛محمد: رفعت موسى . الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1413هـ/1993م)ط1،ص 39، 40.

(48) القاسمي:المرجع السابق،ص 49، 50 ، 102

(49) لاندن: عمان منذ 1856مسيرا ومصيرا،ص 145-143، 156-150

(50) حكم البحرين خلال فترة البحث الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان ال خليفة(1283-1256ه/ -1841 1867م) ثم اخوه الشيخ علي ال خليفة(1285-1283ه/ 1869-1867م)ثم الشيخ محمد بن عبدالله 1285ه/ 1869مثم الشيخ عيسى بن علي آل خليفه (1341-1285ه/1923-1869م) .

(51) الوزان:فيصل عادل.اقتصاد الخليج العربي في ستينات القرن التاسع عشر»دراسة لوثائق أحمد المنشي» ،(الكويت:مركز البحوث والدراسات الكويتية ، 2019م)ط1،ص 45

(52) طهبوب:فائق حمدي . تاريخ البحرين السياسي 1870-1783م، (الكويت:ذات السلاسل، 1983م) ص 265-212.

(53) الكابتن جون فليكس: ولد جيمس فيليكس جونز في شورديتس من مقاطعة ميدلسكس جنوب لندن ، في 1227ه/ 1813م، عمل في الخدمة البحرية من صغره متطوعا ، ورشح كضابط بحري قبل بلوغه الخامسة عشر من عمره، ثم عمل في شركة الهند الشرقية في بومباي 1243ه/1828م، وترقى الى ضابط ملازم بحري1252ه/ 1837م، عمل نقيبا للبحرية الهندية الملكية ، وكان مقيما لبريطانيا في بوشهر ، زار الكويت نوفمبر عام1254ه/ 1839م، وكتب عن الناحية الصحية فيها بعد انتهاء وباء الطاعون ، كما عين قائدا بحريا1263ه/ 1847م ، ثم نقيبا بحريا عام 1274ه/ 1858م ، اتقن اللغتين العربية والفارسية ، كُلف من قبل حكومة بومباي بعمل مسحا للعراق واعداد دراسة شاملة عنه ، وقد قدم مسحا شاملا مضمن بالخرائط ، منذ (1271-1258ه/1855-1843م) أوضح أهمية العراق وضرورة استثمار رؤوس الأموال البريطانية فيها ؛فكان لذلك دورا في تعزيز نفوذ بريطانيا في المنطقة ، كما أسندت حكومة بومباي عام1275ه/ 1859م مهمة اقناع السيد ثويني عن الهجوم على زنجبار اثر الخلاف الذي حدث بين أبناء السيد سعيد اثر وفاته1272ه/ 1856م. توفي عام 1294ه/1878م ، عد عمر يناهز 65 عاما.

(54) الكابتن فليكس جون F.Jonesمكتبة قطر الرقية الوطنية IOR-R-15-1-175،F20

(55) الجار الله :خالد فهد .صحة الكويت ، قراءة في وثائق كويتية وأجنبية (الكويت:مركز البحوث والدراسات الكويتية ، 2019م)ط1، ص 30

(56) انظر :شاكر: موسوعة تاريخ الخليج العربي ، ص 383، 384.القرالة وآخرون:التنافس البريطاني العثماني على البحرين ،دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ،مج 46، ع1، م1، ص5

(57) أبو الطحين: علي .جيمس فيلكس جونز صاحب أشهر خارطة لبغداد سنة1269ه/ 1853م. ملاحق جريدة المدى اليومية ،جريدة عراقية،28/12/2014م.أبو الطحين: علي .من يوميات كتبي في لندن فيلكس جونز وزيارته الى الموصل، ملاحق جريدة المدى اليوميه، جريدة عراقية، 24/9/2017.

(58) مدني: حسن .ورقة محور العمال، بحث منشور ضمن اللقاء السنوي الثالث والعشرون،(البحرين، يناير 2002م)ص17، 18.

(59) المدني:عبدالله . الخليج العربي والمحيط الآسيوي: الفرص والتحديات، (الكويت:دار قرطاس للنشر، 2002م)ط1، ص 175.

(60) القاسمي:الوجود الهندي في الخليج العربي،ص 50، 51.

(61) لوريمر:ج.ج.دليل الخليج ،(قطر: طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد ال ثاني) القسم التاريخي،ج3 ،ص1494، 1495

(62) لوريمر :مصدر سابق ،القسم التاريخي، ج3،ص 1495

(63) كيرزون نائب الملك في الهند(Lord Curzon)جورج ناثانييل كيرزون(1343-1275ه/ 1925-1859م) من رجال الحكم البريطانيون الذين فاقت سمعتهم ، شغل منصب نائب الملك حاكم عام للهند البريطانية مابين الفترة (1322-1315ه/ 1905-1898م) كما تقلد منصب وزير خارجية بريطانيا خلال أعوام1337ه/ 1919م حتى 1342ه/1924م أيام الملك جورج الخامس قام بزيارته الشهرية للمنطقة في نوفمبر عام 1320ه/ 1903م تمهيدا للحماية البريطانية على المنطقة .

(64) رونالدشاي : ايرل .(حياة اللورد كرزون ج1)السيرة الذاتية لجورج ناثييل كرزون ،ترجمة : محمد عدنان السيد،مراجعة وتحرير:د.أحمد أيبش (د.م:الوراقون، د.ت)

(65) IOR-L-PS-18-B406 . ملف وثائقي .مكتبة قطر الرقمية –المكتبة البريطانية . التمثيل القنصلي البريطاني في الأحساء والقطيف 1321ه/1902م.

(66) مدني: ورقة محور العمال ، ص 174. القاسمي،الوجود الهندي في الخليج العربي ،ص 51

(67) القاسمي،الوجود الهندي في الخليج العربي، ص 53.

(68) القاسمي،المرجع االسابق، ص 53-51، 69.

(69) القاسمي،المرجع السابق،ص 69

(70) جاسم بن محمد بن ثاني:مؤسس قطر، قائدا عسكريا ، فارسا ،قاضيا ، مفتيا، ولد عام 1242ه/1827م، نشأ في فوريط شمال شرقي قطر ، تولى إدارة الحكم1292ه/ 1876م الى جانب والده ، وفي عام1284ه/ 1868م أصبح خلفا لوالدة فثبت دعائم الحكم ، اهتم بالتعليم ومؤسساته ، واهتم بالناحية البحرية ، توطدت علاقته بالدولة العثمانية فمنحته لقب القائمقام ، وكذلك رتبة قابوتشي باشي، وهي رتبة تشريفية عالية، لكن لزيادة تدخلها في أموره التقيا في معركة انتصر عليها عام1310ه/ 1893م ، توفي عام 1331ه/1913م .

(71) الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني 1913-1878م ، الديوان الأميري.

(72) الجابر:موزة سلطان جابر . الحياة الاجتماعية والاقتصادية في قطر من عام 1930-1900، رسالة ماجستير غير منشورة، (القاهرة : 1986م) ص 151.

(73) مدني: ورقة محور العمال، ص 17، 18

(74) المدني:الخليج العربي والمحيط الآسيوي، ص 175.

(75) القاسمي،الوجود الهندي في الخليج العربي ، ص50، 51

(76) القاسمي،الوجود الهندي في الخليج العربي، ص 82

(77) القاسمي،المرجع السابق، 70، 71، 96

(78) القاسمي،المرجع السابق، 99-97

(79) قد ذكرتْ كُتُب الحِسْبة لفظةً مرادفةً للسمسار إلا وهو (الدلال)؛ ويقصد به مَن يُنادي على السلعة لتُباع.محمد: الوكالات والبيوت الإسلامية، ص73

(80) كتش: او (كجه) صحراء في بلاد السند ، سكنتها طائفة المید.

(81) أسماعيل أكبر:الزط وموقعهم في التاريخ الإسلامي ، مجلة العصور، مج 8، ص 128

(82) كلي :بريطانيا والخليج 1780:1895 ،ج 2 ص 9

(83) القاسمي:الوجود الهندي في الخليج العربي،ص 225

(84) سعيد بن سلطان (1273-000هـ/1856-000م):سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد البوسعيدي ، سلطان عمان ، بعد مقتل عمه (بدر بن أحمد) عام 1220هـ/1805م ، أقام بمسقط ، حدثت في عهده خلافات مع الامام سعود بن عبدالعزيز ، وانتهت بمايعة الأول للثاني وأصبحت عمان ومسقط تابعة لنجد عام 1223هـ/1808م، الا انه بعد عام نقض عهده واستنجد بانجلترا ، وإيران بعد ذلك الا انه هُزم. عقد معاهدات تجارية مع انجلترا ، وفرنسا ، وامريكا ، تجاوت مدة حكمة 50 عاما ، قيل بأنه مات بالبحر قاصدا زنجبار ، ودفن فيها.

(85) الزركلي:خير الدين. الأعلام ، قاموس تراجم ، لأشهرالرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت:دار العلم للملاين، أيار / مايو 2002)ط15، ج3، ص 95

(86) زايد بن خليفة (1326-000هـ/ 000 -1908م) زايد بن خليفة بن شخبوط بن ذياب من آل بوفلاح، شيخ ابوظبي ، شهدت استقرارا في عصره وقوة ، عاش قرابة التسعين سنة وتوفي فيها .

(87) الزركلي: الأعلام، ج3، ص 40، 41

(88) عبدالله:محمد مرسي .دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ،(الكويت: دار القلم ،1401هـ/1981م) ط1 ، ص45، 46

(89) لوريمر:دليل الخليج،القسم التاريخي ،ج7 ،ص3837- 3840

(90) القاسمي،الوجود الهندي في الخليج العربي ، ص 260

(91) لاندن: عمان منذ 1856م، ص 156، 157

(92) القاسمي،الوجود الهندي في الخليج العربي ، ص 256، 259

(93) تجار اللؤلؤ .

(94) محمد :خالد سالم .ربانية الخليج العربي ، ص48.

(59) الجابر : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في قطر ،ص 151